T

the further adventures of

شيرلوك هولمز

سجين الخوف

سيوارت دوجلاس

ترجمة : فاطمة جلال

T t.me/tea_sugar

شيرلوك هولمز

سجين فوق العادة

T t.me/tea_sugar

دوجلاس،ستيوارت.
المغامرات الجديدة لشيرلوك هولمز /سجين فوق العادة
رواية /ستيوارت دوجلاس.
ترجمة :فاطمة أحمد.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2023.
342 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-130-7
ا– القصص الأمريكية
أ– أحمد، فاطمة (مترجم)
ب– العنوان : 823
رقم الإيداع : 19760 / 2021
الطبعة الأولي : يناير 2023.
جميع حقوق الطبع والنشر مد

قناة T إحدى قنوات
مكتبة
t.me/soramnqraa

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

This translation of THE FURTHER ADVENTURES OF SHERLOCK HOLMES: THE IMPROBABLE PRISONER, first published in 2023, is published by arrangement with Titan Publishing Group Ltd.
© 2023 Stuart Douglas

ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم ٤
هاتف أرضي: **0235918808**
هاتف محمول: **01000405450 – 01001872290**
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**.
جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو الكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

T t.me/tea_sugar

المغامرات الجديدة لـشيرلوك هولمز

سجين فوق العادة

ستيورات دوجلاس
ترجمة
فاطمة أحمد

إلى سكوت

الفصل الأول

طوال معرفتي بشيرلوك هولمز، كان هناك بعض المناسبات التي كنت أشعر فيها بالامتنان لصداقتنا ولكن ليس مثل خريف عام 1898. حتى الآن وأنا أستعيد تلك الشهور بين نهاية صيف دافئ وممتع، وبداية شتاء ممطر وقاس، كل ما استطعت تذكره هو القذارة والبرودة، قصاصة الجريدة التي أحملها في يدي وحدها كافية للتسبب بشعوري بالثقل والرهبة، يستقر في جوفي ويجعل فمي جافًا مثل الرماد، بالكاد يمكن قراءتها على الرغم من مرور كل هذه السنوات العديدة، لا يزال بإمكاني تحديد العنوان الرئيسي واستدعاء الأحداث التي تنذر بها.

T t.me/tea_sugar

القبض على الطبيب واطسون!

المؤرخ الخاص بالمحقق الشهير شيرلوك هولمز متهم بالقتل العمد!

المزيد بالداخل...

ولكن ربما حان الوقت، حيث إن حياتي قد اقتربت من نهايتها، لتسجيل هذه الأحداث التي ظللت أخفيها لفترة طويلة، ولإتاحة الفرصة للعالم أن يتعجبوا من حكمة أعز أصدقائي.

ومع ذلك، فإن سلسلة الأحداث التي كادت أن تؤدي إلى موتي بدأت بالكامل بطريقة مألوفة.

كنت أقوم ببدء ممارسة عمل صغير أثبت في البداية أنه أقل انشغالاً نوعًا ما مما أملت، وبالتالي غالبًا ما كنت أزور المزيد من المرضى المسنين والعجائز في المساء. لذلك، عندما غادرت غرفة جندي عجوز طريح الفراش كنت أعالجه كل ليلة لمدة أسبوع، شققت طريقي من وارينجتون كريسينت إلى شارع بيكر.

مع المسافة التي تقل عن ميلين، كنت قد اعتدت المشي وتجربة أحداثًا وخطوطًا لأحدث روايتي كما أفعل دومًا. كانت أمسية خريفية قاسية، لكنني كنت أرتدي ملابس ثقيلة مناسبة، وكون الجندي العجوز هو آخر زيارة لي، سمحت لذهني بالتجول تمامًا كما فعلت قدمي، أعيد في رأسي، بينما كنت أسير، محادثة سابقة مع ممرضة ساحرة.

لولا حالتي الذهنية المشتتة، لكنت أكثر انتباهًا وربما تجنبت الأشهر الرهيبة التي تلت ذلك. لا شك أن هولمز كان ليهاجمني لإضاعة الوقت في تكهنات فارغة، ولكن لازالت الفكرة تُلِح علّي أنني لو أخذت سيارة أجرة، أو سلكت طريقًا مختلفًا، لم أكن لأعرف داخل سجن هولواي، ولم أكن لأسمع اسم ماكلاكلان أو أتعرف على ماثيو جالوي السيء السمعة.

لكن هولمز سيكون على حق. أياً من هذه التكهنات ستكون مضيعة للوقت والجهد، لأن حقيقة الأمر أني لم أكن منتبهًا تمامًا عندما سمعت صوت خطوات راكضة في

ظلمة شارع جانبي، ولا عندما نادت اسمي شابة شعثاء وهي تركض داخل مجال إضاءة المصباح الغازي الذي ينير الطريق.

"دكتور واطسون! هل أنت الدكتور واطسون؟!" صرخت في يأس واضح "لقد قالوا بأنك ستمر من هذا الطريق في طريقك إلى المنزل، ولدي حاجة مُلِحة لمساعدتك، سيدي!"

كانت الفتاة في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمرها، وكان شعرها شبه فضي في ضوء الشارع، ووجهها صغيرا مستديرا، وعيناها كبيرتين داكنتين. كانت مهندمة رغم بساطة ملابسها، لكنها لم تكن ترتدي معطفًا أو سترة، وهو أمر لا يوصى به لمثل هذه الليلة الباردة.

أكدت لها، "نعم، أنا دكتور واطسون" آملًا أن يكون تعبيرًا مطمئنًا، على الرغم من صعوبة الحكم على ما إذا كنت ناجحًا أم لا، لأنها كانت بائسة جدًا. سحبت ذراعي وأشارت للوراء إلى الزقاق الذي ظهرت منه.

"جدتي!" صرخت بعبرة مختنقة. "أعتقد أنها تحتضر! من فضلك، من فضلك ... تعال وساعدها، أتوسل إليك!"

حتى لو لم أكن طبيبًا، وملتزمًا بقسم المساعدة، كنت لأذهب مع الفتاة وأفعل ما بوسعي، كانت توسلاتها صادقة للغاية. أومأت بموافقتي وسارعت وراءها وهي تتجه نحو الزقاق.

كان المنزل الذي قادتني إليه في وسط شارع لينهوب. كان مكونًا من ثلاثة طوابق، منزل عائلي سابق تم تحويله

إلى غرف سكنية؛ ليست كبيرة كما كانت سابقًا، لكنها سكنًا لائقًا على كل حال. غطت السقالات المبنى المجاور، وبالتالي كان يلقي بظلاله عليه، ولكن بخلاف ذلك كان الشارع غير ملحوظ.

دفعت الفتاة الباب الرئيسي وتبعتها للداخل، كان هناك باب على كل جانب من الرواق يفترض أنه كان يقود لما كان غرفًا خاصة في السابق، مع درج أمامنا مباشرة وإلى جانبه الأيسر ممرًا آخر مضاء بشكل خافت افترضت أنه يؤدي إلى الحديقة الخلفية.

قالت الفتاة بنفس متقطع، "الطابق العلوي"، وهي تصعد الدرجات الأولى بالفعل.

مرة أخرى، تبعتها، حول منعطف الدرج للطابق الأول، والذي كان صورة طبق الأصل من الطابق السفلي.

"من هنا" قالت وهي تدفع الباب على يسارنا وتدعوني لأدخل.

كانت الغرفة فسيحة وخلال النهار كانت ستكون مضاءة بشكل جيد بفضل النافذة الكبيرة، ولكن حاليًا كانت مضاءة بمجموعة من الشموع التي كانت تلقي بظلالها الناعمة على الجدران ولوحة مطبوعة ذات حجم ضخم كانت معلقة قبالة الفراش. كان بالغرفة القليل من الأثاث. هناك خزانة ملابس بمرآة متصدعة تستند على الجدار بجوار النافذة المفتوحة، مع رداء نسائي من نوعية جيدة ملفوف على بابها. وطاولة صغيرة متسخة تحمل مِغسَلة وإبريقا ومنظارا قديم الطراز وضع بجانبه. ومع ذلك، وبغض النظر عن هذا

الأثاث القليل، لم يكن هناك سوى فراش مزدوج كبير في وسط الغرفة، حيث كان يمكنني أن أميز جدة الفتاة عليه. عندما اقتربت كانت صامتة بلا حركة.

خشيت أن تكون ضاعت جهودنا وأن المرأة كانت بالفعل لا تحتاج مساعدتي. خُيل إلي أني سمعت الباب يغلق من خلفي، ولكن لم أفكر بالأمر بخلاف التساؤل عما إذا كان لدى الفتاة بعض الهواجس أننا تأخرنا جدًا ووجدت أن الدخول مؤلم للغاية. ولأنني لا أتمتع بمثل تلك الرفاهية، وضعت حقيبتي على حافة الفراش وسحبت الجزء العلوي من الغطاء الثقيل.

المشهد الذي واجهني كان مشهدًا لن أنساه أبدًا. الموت العنيف ليس بشيء غريب علي، ولا يحمل لي الكثير من الرعب، لكني كنت أصغر سنًا مما أنا الآن، وطوال فترة وجودي في الجيش، كانت هذه أول مرة أرى امرأة مذبوحة بمثل هذه الوحشية. كان جسد سيدة مسنة مكشوفًا الآن، وعيناها مفتوحتين على مصراعيهما في رعب، وفمها متراخ. تم طعنها عدة مرات كما يتضح من كم الدم الذي لطخ ملابسها الليلية والجروح المفتوحة التي استطعت رؤيتها على رقبتها وذراعيها، لكن شيئا ما ـ ربما كانت الصدمة، أو إحساس متأصل بواجبي كطبيب ـ أجبرني أن أفحص نبضها وأرفعها قليلًا لأتأكد من أن تيبس الأعضاء قد بدأ في الظهور.

فقط عندما أنزلت جسدها على الملاءات الرطبة، بدأ المنطق السليم لديّ من العمل مرة أخرى. مشيت إلى

الباب عازمًا على الإمساك بالفتاة التي أتت بي إلى هنا والتي من الواضح، لم تكن الحفيدة قلقة أكثر مما كنت، مع ذلك،الباب كان مغلقا ولا يوجد مفتاح، كنت محبوسًا في الغرفة مع المرأة المقتولة.

ركلت الباب وسحبت المقبض، لكن دون جدوى. ربما كان المنزل في حالة أفضل في السابق، لكن أبوابه كانت متنيه مثل يوم بنائها. ركضت إلى النافذة وفتحتها، كان الشارع بالأسفل فارغا وهادئا ورغم ذلك صرخت طلبًا للمساعدة، لم يرد أحد. تُركت دون خيار، عدت إلى الباب وبدأت أركله بغضب، كل ذلك بينما أصرخ طالبًا النجدة، وأن جريمة قتل قد ارتُكبت.

أُقدر أن أقل من دقيقة مرت في هذه التصرفات المحمومة قبل أن أسمع وقع أقدام ثقيلة تصعد الدرج وأدرك أن هناك يدًا تدير نفس المقبض الذي مازلت أمسكه، فقط من الجانب الآخر من الباب.

صرخ أحدهم من القاعة "افتح يا هذا!" ثم "الشرطة، افتح!"

"ألا تعتقد أني سأفعل لو استطعت؟!" قُلت مهتاجًا.

"لا يوجد مفتاح، وقد حبسني أحدهم! بسرعه يا رجل! لقد تم ارتكاب جريمة قتل!"

"جريمة قتل!!ـــ" سمعت الشرطي مجهول الوجه يتمتم في الصمت المفاجئ حيث إني أوقفت اعتدائي على الباب.

"ابتعد للوراء يا سيدي، لأنني سأقوم باقتحام الباب"

فعلت كما أوصاني، وتراجعت إلى نهاية الفراش.

ارتجف الباب تحت وقع هجوم الشرطي، لكنه فشل في أن يُفتح. ما حدث بعد ذلك، أني سمعت خُطى تهرع أسفل الدرج، ذهبت للنافذة ورأيت شخصًا يرتدي زيًا رسميًا يركض في الشارع. بعد بضع دقائق، عاد للظهور مع عدة رجال آخرين من خلفه. بعد لحظات، طار الباب وتحطم من الجزء الضعيف أو المهترئ من الجص في الجدار، وارتد جزئيًا منه. هرع الشرطي إلى الداخل، ومن خلفه العديد من العمال، ومن خلفهم سيدة مسنة نحيفة، أيقظتها الفوضى، والتي تبين لاحقًا أنها صاحبة المنزل.

في تلك اللحظة، بدا كل شيء مفرطًا إلى حد ما، الغرفة حارة جدًا، الجثة فاحشة جدًا في تشويهها، وصراخ صاحبة المنزل من المدخل يخترق الأذان. لقد رأيت جثثًا من قبل، لكني كنت، على الأقل في جزئية ما، مستعدًا لتلك الوفيات. الآن، على الرغم من ذلك، في هذه الغرفة غير الاستثنائية، شعرت بقلق عميق، شعور يدق جذوره في، بأن الأحداث كانت تتخطى فهمي. كما لو كنت أتحرر من محيطي، شعرت أن حواسي أصبحت غير مبالية وخدرة. ربما كان هذا الانفصال هو ما منعني في البداية من سماع الشرطي وهو يفحص الجثة ويبدأ يطرح الأسئلة علي.

"سيدي، اسمح لي يا سيدي" قاطع صوته فجأة خيالي، مثل انقطاع سير الفرامل في السيارة.

رفعت ذقني من حيث استقرت على صدري وأعدت تركيز عينيّ على الغرفة والرجل الذي يهز ذراعي الآن.

"آسف، لا أعرف... هذه المرأة المسكينة... لابد أن

ذهني شرد... ماذا كنت تقول؟!"

"اسمك يا سيدي، هذا أولًا، وكيف أتيت لهذا المكان، هذا ثانيًا"

لقد لاحظت أنه كان يافعًا ولكنه أصلع قليلًا، كما بدا كفئا تمامًا.

كان قد سحب الغطاء مرة أخرى على الجثة (أدركت أنه كان يجب على أن أفكر في فعل هذا) ووقف أمامي حاملًا دفتر ملاحظات في يد وقلم رصاص في اليد الأخرى.

كرر عل السؤال "ما اسمك يا سيدي؟"

"جون واطسون، الدكتور جون واطسون"

"حسنًا إذًا، الدكتور واطسون هو كذلك، الآن، دكتور واطسون، هل يمكنك أن تخبرني كيف انتهى بك الحال في هذه الغرفة مع هذه السيدة التعيسة؟"

لقد سررت لسماع تحقيق وسؤال حقيقي بدلًا من الاتهام المستتر في صوته. عند ذكر حالتي المهنية، كان قد استرخى، بالقدر الكافي الذي يمكن للمرء أن يفعل نظرًا للظرف الحالي. شرحت بقدر استطاعتي الأحداث التي أدت إلى وجودي في الغرفة، بينما كان يكتب ملاحظات مستفيضة ويطلب مني أن أعيد وأكرر بعض الحقائق أو أستفيض في أخرى. كان، كما هو متوقع، مهتمًا بشكل خاص بوصف الفتاة التي أدعت أن العاجزة جدتها. أخيرًا لخص ما قلته بدقة، وأشار إلى أني سأحتاج إلى تقديم بيان رسمي في مركز الشرطة المحلي الليلة.

بالنظر إلى الوراء للدقائق القليلة القادمة، فإنني أندهش

من سذاجتي. أتذكر أنني كنت أفضل الإدلاء ببيان في الصباح التالي، والنظر فيما إذا كان ينبغي اقتراح استدعاء هولمز في الحال، لتقديم المساعدة للشرطة في مساعيها. من الجنونِ التفكير في أحداث هذه الليلة بتعاطف، كأنني غير متورطا على الإطلاق ويمكن التعامل معه على أنه مجرد لغز آخر ليحقق فيه صديقي. في الواقع كنت على وشك اقتراح أن نعود أنا وهولمز في الصباح عندما يساعد ضوء النهار في ما لدينا من اختبارات، عندما أتى صوت من خلفي حَوَلَ هذه الاقتراحات لموضع خلاف.

"هنا أيها الشرطي" قال أحد العاملين. "هل سمعت رجلًا يقول إن الباب مغلق ولا يوجد مفتاح؟"

استدرت لألقي نظرة على الرجل، هناك معلق بزاوية من القفل الموجود داخل الباب، كان مفتاحًا.

ذهب الشرطي إلى الباب، وأدار المفتاح في القفل، مما تسبب في إعادة المزلاج مرة أخرى إلى آليته.

قال بعد هذا العرض: "هل تهتم بأن تشرح يا سيدي؟ كيف يمكن إغلاق الباب من الداخل إذا كنت محبوسًا كما تقول في هذه الغرفة؟"

بالطبع، لم أستطع. ربما أشرت إلى أنه كنت أنا من لفت انتباهه إلى جريمة القتلِ من خلال صراخي، ولكن في الحقيقة، كان رأسي ثقيلًا، ووجدت أني أعاني ولا أستطيع التركيز. مع عدم وجود خيار آخر، اقترحت أن ننقل المناقشة إلى قسم الشرطة، حيث يمكنني أيضًا الاتصال بصديق ليأتي لمساعدتي.

وافق الشرطي، وأشار إلى أننا يجب أن ننتظر في الخارج بينما أرسل رجلًا قبلنا إلى القسم. مع شعوري المتزايد بعدم واقعيه الوضع، جلست القرفصاء في الممر وانتظرت.

T t.me/tea_sugar

الفصل الثاني

الساعات اللاحقة في قسم الشرطة كانت الأولى في عدة تجارب جديدة بالنسبة لي. هذه أول مرة أكون على جانب المتهمين، وبالطبع هذا ما جعل زيارتي مختلفة تمامًا عن سابقتها. كم كنت محظوظًا أن الرقيب الذي أخذ بياناتي تعرف عليَّ وبعد مناقشة هامسة لكن حماسية مع الشرطي الذي أتى بي إلى القسم، صحبني إلى غرفة مهجورة مع وعد أنهم سيتصلون بهولمز مباشرةً. كان في غاية اللطف، حتى إنه أتى لي بكوب من الشاي قائلًا أننا "سوف نحل سوء التفاهم هذا في أقرب وقت"، لكني لاحظت أنه أغلق الباب بالمفتاح فور خروجه.

الحمد لله أني لم أنتظر كثيرًا، بعد ما يقرب من نصف ساعة سمعت بعض الجلبة بالخارج، كان صوت هولمز واضحًا يطالب بالدخول. وأصوات أخري أقل حِدة وأكثر هدوءاً يمكن سماعها، سرعان ما انفتح باب المكتب ودخل صديقي مسرعًا وتحت إبطه رزمة أوراق ملفوفة.

"هل أنت بخير تمامًا يا واطسون؟!" تساءل وهو يعطيني الرزمة، ولسعادتي كانت تحوي قميصًا نظيفًا. "لم تتعرض لأذى؟!" كنت سعيدًا برعايته بطبيعة الحال، لكني قلقت من أنه قد أساء فهم الرقيب.

"أذى؟ هولمز. لا، على الإطلاق. لكني أشك أنه لم يتم

توضيح الأمر كليًا لك. أنا لم أكن في خطر تمامًا، مُجَرَد أني تواجدت بقربه"

لوح هولمز يده معترضًا، "لم تكن في خطر مطلقًا؟ بالطبع كنت، في الواقع أنت بالفعل في خطر، ألست مشتبها به في جريمة قتل مروعة؟ ألن تكون حياتك عرضة للخطر إن تم إثبات هذا الاتهام؟ الخطر حقيقي جدًا يا واطسون"

لقد توقف عن الكلام قليلًا، أخرج سيجارة، ثم أعاد التفكير في هذا القرار واتخذ مجلسًا بدلًا من ذلك.

"أنت بالطبع مدرك أن هذه المسألة مصممه كليًا للإيقاع بك، أنت محظوظ أن من دبر هذه المكيدة قرر أن من الأفضل له إذلالك بدلًا من قتلك. لو لم يفعل، كنت لتصبح مقتولًا، وكنت سأعمل على التحقيق في مقتلك وليس في إثبات براءتك"

حينها فقط أشعل السيجارة، عارضًا واحدة علّي وأخرى على المحقق ليستراد، الذي لاحظت دخوله للغرفة الآن. هز المحقق رأسه رافضًا بينما يفرك عينيه، لم يكن قد حلِق ذقنه وكانت ياقة قميصه غير مستوية.

"لقد كنت نائمًا في فراشي عندما أتى خادم السيد هولمز طارقًا على بابي" قال مؤكدًا، دون أي علامة انزعاج أو غضب على صوته. "كنت لأعيده بكدمة في عينيه لو أنه لم يقل إن الطبيب واطسون بحاجة ماسة لمساعدتي"

فتح ملفًا بني اللون كان يحمله، وأطلع على أول ورقتين مكتوبين على الآلة الكاتبة التي يحتويهما.

"وقد كان الفتى على حق، أليس كذلك؟" تساءل

بطريقة خطابية وهو يرفع عينيه بين الفينه والأخرى من قراءته. "هذا تقرير الرقيب هِيوي منقولاً مما كتبه في ملاحظاته، وهو تقرير غير مريح بالمرة".

مد هولمز يده مطالبًا ليستراد أن يعطيه التقرير، قام بقراءة التقرير بسرعة ثم، وبإيماءة موافقة من ليستراد، قرأ بصوت عال:

في الساعة 11:04 مساءً كنت في طريقي إلى شارع لينهوب، قرب متنزه ريجينتس، لم يكن من المعتاد تواجدي بهذه المنطقة، لكن تم إخطاري بتفقد أعمال الصيانة التي كان يتم إجراءها في العقار رقم 14، ولأني لا أثق في صدق الساكنين قررت أن أراقب المكان خاصة أنه منزل غير مؤمَّن بشكل كافٍ. بالكاد كنت قد بدأت أتفقد العقار رقم 14 عندما انتبهت إلى صوت رجل آتٍ من العقار المجاور، رقم 16. قابلتني سيدة، السيدة إليزابيث سومز، كنت أعرف أنها صاحبة العقار، في مدخل المنزل، وقالت لي "هناك رجل معتوه يصرخ أن هناك جريمة قتل في إحدى الغرف".

عندما وصلت عند الغرفة المقصودة، كان هناك صوت دق قادم من الداخل لقدم تحاول كسر الباب، وصوت رجل يصرخ قائلاً "افتح عليك اللعنة!"، وبينما استمر الدق شرحت لي السيدة سومز أن شاغلة الغرفة سيدة عجوز، استأجرت الغرفة في وقت سابق من هذا المساء، وأنه قد أتت بها فتاة قدمت نفسها أنها حفيدتها، وأنها لم تستقبل أي زوار سوى رجل واحد، على الرغم من أنها لم تتحدث

إليه، لم ترى السيدة سومز أحدًا يغادر الغرفة قبل أن يُسمع صوت الدق من الغرفة.

بعد التحقق من الأمر، اكتشفت أن الباب مغلق ولا أثر للمفتاح، وأقرت السيدة سومز أنها لا تملك مفتاحًا إضافيا، لأنه قد فُقد منذ فترة غير بعيدة. وبإنعدام سُبل الدخول إلى الغرفة تساءلت عبر الباب المغلق عن سبب هذه الضجة، جاء صوت من خلف الباب ـ على ما أظن لنفس الرجل الذي سمعته يسِب قبل قليل ـ يرد قائلًا "لا يوجد مفتاح وتم حبسي بالداخل، تم ارتكاب جريمة قتل!"

عند هذه المرحلة وباعتقادي أن هناك شخص بالداخل بين الحياة والموت، طلبت من السيدة سومز أن ترسل أحد الخدم لقسم الشرطة طلبًا للمساعدة، وبدأت محاولة كسر الباب. في بداية الأمر لم أقدر على كسر الباب حتى استعنت بمساعدة بعض الرجال لفتح الباب.

لم تحتوِ الغرفة على الكثير من الأثاث، فبالإضافة لطاولة صغيرة وخزانة ثياب، لم يكن هناك سوى فراش كبير، عليه كانت ترقد امرأة عجوز. كان واضحًا أنها تعاني من عدة جروح واضحة.

لم يكن هناك أحد آخر في الغرفة سوى رجل في منتصف العمر، كانت يداه وملابسه ملطخة بالدماء وبدا مشوش الذهن وهو يقول: "أعتذر، أنا لا أعرف هذه السيدة المسكينة، لابد أن ذهني قد شرد"

بناء على التحقيق معه أفاد السيد أنه الطبيب جون واطسون، وادعى أنه تم اصطحابه للغرفة بواسطة سيدة شابة

ادعت أن جدتها مريضة للغاية وبين الحياة والموت. وقد أفاد أيضًا أنه عند وصوله وجد الغرفة كما وصفتها أنا منذ قليل، وأنه تم حبسه بواسطة السيدة الشابة. لم يخبرنا اسم الفتاة ولكنه أمدنا بوصف تفصيلي لها. (الجانب الآخر من الصفحة).

تم إيجاد حقيبة، أفاد الطبيب واطسون أنها تعود له، كما تم إيجاد بعض الأدوات الحادة بالحقيبة مثل تلك التي يستخدمها الأطباء ولكنها كانت نظيفة للغاية بدون أي أثر للدماء عليها. لم يكن هناك أثر لأي أسلحة أخرى.

بعد التحقق من الأمر أكثر، وعكس ما قد ادعاه الطبيب واطسون، كان هناك مفتاح معلق في قفل الباب، وعندما أخبرناه لم يكن لديه أي تفسير. كما لم يكن هناك أي أثر للسيدة الشابة.

"الباقي هي الديباجة الرسمية المتعارف عليها في مثل هذه التقارير" قال هولمز وهو يلقي الملف على المكتب الذي احتل المساحة الأكبر من الغرفة.

سحب المفتش ليستراد الملف وهو يقرأه سريعًا، قبل أن يقول "رواية سيئة يا سيدي" رفع عينيه لينظر إلي وأكمل قائلًا "لكني أظن أني أجيد الحكم على الشخصيات لأعلم أن ليس لك يد بهذه القصة، على الأقل ليس بشكل مؤذٍ"

على الرغم من أن كلمات المفتش ليستراد كانت مطمئنة مثلما قصد، لكنها جعلتني أدرك حجم المأزق الذي تورطت به. لم نكن أصدقاء أنا والمفتش ليستراد، لكننا عملنا جنبًا إلى جنب بكفاءة، وتشاركنا تعليقات

هولمز غير المبالية، مما أنشأ بيننا رابطة بشكل ما. قد يكون ما أراد قوله إن تورطي في مقتل هذه السيدة هو تورط غير متعمد وغير مؤذٍ، ولكن ربما لن يعتقد الآخرون ذلك، وسيكون لديهم أسباب لعدم تصديقي؟

كما لو أنه يقرأ أفكاري، هز هولمز رأسه بخفة وهو يقول "أنت محق يا واطسون، لا عجب أن عزف باق أفراد سكوتلاند يارد في وضع ثقتهم بك، ليستراد يعرفك حق المعرفة، على عكس الباقيين، الذين لن يثقوا في براءتك"

"كيف؟" تساءلت لكن هولمز كان قد بدأ يجيب سؤالي بالفعل.

"ليس لدينا الوقت لشرح كل استنتاج أقوم به يا واطسون، لكنني سأتساهل معك هذه المرة. لقد استمعت لكلمات ليستراد بابتسامة استمتاع، ثم وقعت عيناك على الملف الذي يحتوي تقرير الضابط وظهرت عليك خيبة الأمل، بعد ذلك اتجهت بنظرة سريعة إلى الباب المغلق مفكرًا في هؤلاء بالخارج وعقدت حاجبيك للمحة وجيزة، ماذا يمكن أن يخطر ببالك سوى أن لا أحد غيرنا يصدقك؟"

كما جرت العادة، كان تحليل هولمز لا عيب فيه، ولكن بدا أن ليستراد غير متأثر.

"هذه الحيل الرخيصة كلها جيدة جدًا يا سيد هولمز، لكن لابد أن أخبرك أن مجرد معرفتي وإن كانت غير وطيدة، بالطبيب واطسون ستجعلهم يستبعدونني من هذه القضية، ولا يمكنني الجزم كيف سيقوم مفتش آخر برؤية هذه الأدلة، كما أن إفادة الشرطي هيوي لعنة من عدة جوانب.

الطبيب لديه كل الأسباب لكي يقلق"

كان لدى هولمز القليل من الصبر لسكوتلاند يارد وممثليها، والنظرة الباردة التي كان يوجهها للمفتش ليستراد الآن لم تخفف ولو قليلًا من هذا الرأي السلبي عنهم.

"بالطبع عليه أن يقلق!" انفجر صارخًا وقد نفذ صبره "تم إيجاده مع جثة امرأة مقتولة، بدون أي تفسير منطقي لوجوده سوى قصة بالية عن فتاة اصطحبته للكشف على جدتها المريضة. بالإضافة إلى أن السكاكين الوحيدة في مسرح الجريمة كانت تعود له، والغرفة التي تم إيجاده بها، كما ادعى، كانت مغلقة، ولكن تم اكتشاف المفتاح في الباب بعد أن كسره الضابط الشجاع. لديه الكثير بالفعل ليقلق بشأنه!"

"لكن هناك بعض النقاط التي من الممكن أن تكون في صالحه، مثل إذا ما كان المفتاح الذي تم اكتشافه في الباب من الداخل، هو النسخة الأصلية والتي كان ينبغي أن تكون مع المستأجر، وليس نسخة؟»

هز ليستراد رأسه وقال: "يبدو الأمر كذلك سيد هولمز، لكن هيوي بالخارج إن كنت تريد التحدث إليه قليلًا"

ودون أن ينتظر الإجابة كان قد أخرج رأسه إلى الممر وطلب من هيوي أن يأتي، هززت رأسي تحية للشرطي، والذي كان أطول مما أتذكره، لكنه لم يرد التحية بل ذهب مباشرة إلى ليستراد.

"حسنًا يا فتى، إن السيد هولمز هنا يتساءل ما إذا كنت متأكدًا أن المفتاح الذي وجدتموه هو المفتاح الأصلي

الذي أعطته صاحبة العقار للمستأجر، وليس نسخة مصنوعة من أشخاص مجهولون؟"

"لا يا سيدي، لا يمكن أن يكون نسخة" أجاب هيوي "لقد تعرفت السيدة سومز على المفتاح من بعض العلامات على أنه نفس المفتاح الذي سلمته للسيدة العجوز المقتولة عندما استأجرت الغرفة"

"والقفل؟" قال هولمز وهو ينحني للأمام بلهفة، بينما أضاء وجهه لأن عقله العظيم قد عاود نشاطه.

"كان مغلقًا بالتأكيد؟ يمكن أن يكون ببساطة محشورًا بقطعة من الخشب"

"لا يا سيدي، لم يكن هناك أثر لاي شيء من هذا القبيل، كما أن أثر انشقاق الخشب حول قِفل الباب يشير إلى أنه كان مغلقا بالقفل قبل أن يتم كسر الباب"

"وباعتقادك كم من الوقت مر منذ أن سمعت الصراخ من المنزل رقم 16 حتى كسرت الباب؟"

"لم يمر أكثر من خمس دقائق يا سيدي."

"أنت متأكد أيها الشرطي؟ لم يكن من الممكن أن تكون أقرب لعشر دقائق؟"

"ربما دقيقة أو اثنتين أكثر، لكني أقسم أنها لم تتعدّ ذلك، ليس عشر دقائق لا يا سيدي"

"سبع دقائق إذن" بدأ هولمز يدق بأصابعه الطويلة لحنًا ما على ساقيه، "وخلال هذا الوقت لم تر أي أحد آخر غير أولئك المذكورين في تقريرك؟"

"لقد كتبت ملاحظاتي عن كل من كان موجودًا يا

سيدي، لو أن أحدًا آخر كان موجودًا لكتبت عنه في دفتر ملاحظاتي"

كان هولمز يميل رأسه وهو يفكر ويأخذ ما قيل بعين الاعتبار، ثم خرج عن صمته أخيرًا وقال "شكرًا أيها الشرطي هيوي، لقد قدمت لنا مساعدة كبيرة"

أشار المفتش ليستراد لضابطه أن بإمكانه الانصراف، وهو ما فعله بارتياح تام، تاركًا ثلاثتنا وحدنا مرة أخرى. شعرت أن روحي ثقيلة، ربما بسبب الصمت المفاجئ، ثبت نظري على قدمي وكل ما يجول بخاطري أفكاري التعيسة.

سمعت صوت ليستراد كما لو أنه آتٍ من مكان قصي. "كل ما علينا في الوقت الحالي أن نرى ما يمكننا فعله لنبقي الطبيب واطسون خارج الزنزانة، واسمه بعيدًا عن الصحف"

"علينا أن نتحرك سريعًا لنلحق بالطبعة الصباحية" قال هولمز متفكرًا بتمعن "واطسون سَيُتَهم بجريمة قتل، وبينما لا أشكك في ضباطك، لكن هناك دائمًا من يتحدث للصحافة إن كان الحافز المادي مناسبًا، لكنني أعتقد أن هناك من يمكنني التحدث إليه وسيكون قادرًا على ضمان أن القضية ستختفي، على الأقل فيما يتعلق باهتمامات الصحافة الصفراء"

إن عدم رغبة هولمز لذكر أخيه مايكروفت أمام المفتش ليستراد أمر مفهوم تمامًا، لأن وضع مايكروفت وعمله في الحكومة سري ومعقد للغاية، ولكنه أُعفى من الشرح لأن هناك من اختار هذه اللحظة ليفتح باب الغرفة. رجّل

طويل، ذو شعر داكن وقف ثابتًا للحظات في مدخل الغرفة، ثم شق طريقه للداخل.

"عمت مساءً، ليستراد" قال وهو يحني رأسه "كم أنا متفاجئ لرؤيتك هنا، أليست هذه ليلة عطلتك؟"

كان من الواضح جدًا أن هذا الرجل ضابط شرطة، من أطراف شعره المقصوص بعناية، إلى حذائه اللامع المصقول.

كان رفيعًا جدًا حد الهزال، وعظام وجنتيه تكاد تخترق جلده، وأنف كبير معقوف، تحته كان شارب رفيع جدًا بالكاد يُرى، مرت عيناه سريعًا على الغرفة قبل أن يتخذ مجلسه خلف المكتب.

"ألن تقدمنا لبعضنا البعض" قال وهو يسحب الملف ـ الذي كان مازال على المكتب ـ تجاهه وهو يتحدث.

"السيد شيرلوك هولمز، الطبيب جون واطسون، أقدم لكم المفتش بوتر"

دمدم ليستراد بصوت خفيض، باذلًا أقل جهد ليخفي عدم إعجابه بزميله.

"بوتر، قبل أن نمضي قُدمًا، عليك أن تعرف أن الطبيب واطسون صديق وفيّ لسكوتلاند يارد"

كان اسمه مألوفًا لي، لكني لم أكن متأكدًا أين سمعته من قبل. هززت رأسي بإيماءة ترحيب. بينما أغمض هولمز عينيه وسمح لنصف ابتسامة أن تمرح على شفتيه.

لكن تأثير هذه المقدمات على المفتش بوتر كان أكثر وضوحًا. عند ذكر اسم هولمز، انحنى للأمام ونظر مباشرةً

إلى صديقي، وأبقى عينيه عليه لمدة شعرت أنها اقتربت من الدقيقة. تحدث أخيرًا، رغم أنه وجه كلامه للمفتش ليستراد وليس لهولمز.

"حسنًا، لنكن واضحون من البداية، لن أقدم أي خدمات هنا. إن صديقك ـ قالها ضاغطًا على كل حرف بها ـ سيتم معاملته مثل أي شخص آخر متهم بجريمة قتل، بداية من قضاء الليلة في زنزانة، حتى رحلته إلى المحكمة غدًا صباحًا، حيث أنا متأكد أنه سيتم دعوته لقضاء فترة أطول في عهدتنا"

ولكن إنصافًا للحق، فإن ليستراد اعترض من فوره وبقوة قائلًا "الطبيب واطسون والسيد هولمز قدما الكثير من المساعدة للشرطة فيما سبق، بدونهما الكثير من الأشرار سيكونون أحرارًا الآن، ولم نكن لنعلم"

لابد أن التصريح بهذا قد آلمه خاصة أنه قال ما قاله أمام هولمز، لكن أيًا ما كان ما شعر به، فإن رد بوتر قد ضاعفه بالتأكيد.

"على الرغم من هذا، ليستراد، لكن هذا هو نوع الخدمات الذي ذكرته من قبل. إن حقيقة أن هؤلاء السادة كانوا قادرين على دعم أوجه القصور الخاصة بك كمحقق، وثيق الصلة بين ما إذا كان أحدهم قاتلًا أم لا" توقف هنيهة ثم تابع قائلًا "كن متأكدًا أنني لن أحتاج لمساعدتهم"

قام من مجلسه فاردًا جسده الطويل ثم قال، "الآن كل ما علينا أن نجد ضابطًا ليقيد صديقك ـ وهو يضغط على كل حرف ثانيًا ـ واطسون ويقتاده لإحدى الزنازين"

شعرت بالإحباط عندما قام وأمسك مقبض الباب، نظرت إلى هولمز، الذي بقي صامتًا منذ أن دخل بوتر إلى الغرفة. والآن بأقل إيماءة ممكنة بدأ يتكلم.

"هل لنا أن نفترض أنه قد تم تعيينك رسميًا لتولي قضية الطبيب واطسون، أيها المفتش بوتر؟"

"ليس بعد، ليس رسميًا لا" اعترف المحقق على مضض وهو يخطو خطوة للخلف مبتعدًا عن الباب.

"إذا ليس لك سلطة على هذا الأمر لنقل مثل المحقق ليستراد، أليس ذلك صحيحًا؟"

"لقد تم إخباري من مفوض الشرطة بنفسه أنه سيتم تكليفي بهذه القضية" رد بوتر بصخب.

"سيتم تكليفك" أعاد عليه هولمز الكلمة "وليس تم تكليفك"

"في هذه الحالة سيدي المفتش بوتر" تدخل ليستراد وعلى وجهه بوادر ابتسامة "سأبقى في الوقت الحالي مسؤولاً عن قضية الطبيب واطسون. لقد تأخر الوقت، وليس هناك حاجة لتواجدنا هنا. لم لا تعود للمنزل وسأقوم أنا بالترتيبات المناسبة للطبيب؟"

استغرق بوتر الكثير من الوقت ليرد حتى إنني اعتقدت أنه سيبدي اعتراضه، لكنه هز كتفيه بلا مبالاة وتمتم قائلًا "كما تريد، سأعود في الصباح مع الأوراق الرسمية المناسبة، وأريحك من هذه المسؤولية، أنا متأكد أن لديك ما يكفي من العمل الذي يحتاج لكامل انتباهك"

هكذا، غادر الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام، سمعته

ينادي اسم أحد زملائه، وصوت خطواته يبتعد باتجاه الممر، ثم غرق كل شيء في الصمت.

كان هولمز أول من تحدث "رجل مثير للاهتمام، نظرًا لكونه شرطيا. أتعرف قصته يا واطسون؟" هززت رأسي نافيًا، "سيصحح لي ليستراد بلا شك إن كانت معلوماتي خاطئة، لكن حسب فهمي فإن المفتش بوتر قد استمتع ـ حتى وقت قريب ـ بصعوده النيزكي بين رُتَب وظيفته المختارة. مغرم بتطبيق القواعد بحذافيرها، هذا بالطبع ليس بالشيء السيئ. إنه أصغر محقق في قوة الشرطة، أليس كذلك ليستراد؟"

هز ليستراد رأسه موافقًا بوجهه ممتعض وقال معترفًا "المحقق بوتر محبوب جدًا بين المسؤولين رفيعي المستوى، نعم"

"حتى إنه تم ذكر اسمه في دوائر الشرطة العليا كرئيس قوة الشرطة المحتمل، أو هكذا سمعت"

أمال هولمز رأسه بزاوية ثم تابع قائلًا "أن تكون على رأس مجموعة من الموظفين البيروقراطيين غير الأكفاء ليس كافيًا بالطبع. ربما على الواحد أن يهنئ الآخر لكونه رئيس قسم الجنون في المصحة"

ضحك على دعابته وفجأة شعرت بالانزعاج من إصراره على استخلاص كل فكرة مهما كانت صغيرة كما لو كانت ذهبًا مغزولًا.

"بحق السماء يا هولمز، لم هو مثير للاهتمام إذًا؟" صرخت محتجًا.

شعر هولمز بالأسف على الفور "أنا آسف يا صديقي

لابد أنك مُتعَب وبالتأكيد تشعر بالقلق وها أنا ذا أتجول في أفكاري الخاصة" اعتدل في جلسته وتابع قائلًا "إن صعوده السلم الوظيفي بهذه السرعة قد تعرض لضربة قاصمة وكاد ينهي مسيرته الوظيفية في العام قبل الفائت. لقد ألقى القبض وأصر ـ على الرغم من معارضة مرؤوسيه ـ على اتهام الأخ الأصغر لأحد القضاة إلى جانب العديد من أفراد أسر المجتمع الراقي. كانت الجرائم... لنقل أنها كانت جرائم أخلاقية ونترك الأمر عند هذا الحد، على أي حال، كان الشعور السائد أن بوتر قد أصر على هذه القضية للحصول على بعض الدعاية الشخصية، دون أي اعتبار للمصلحة العامة لقوة الشرطة أو للمملكة بشكل عام"

"كانت نتيجة القضية برمتها أنه تم ممارسة الضغط، وتم إلغاء التهم، وتركت طموحات بوتر في حالة يرثى لها"

"أو هذا ما ظهر يا سيد هولمز" تدخل ليستراد "لكنه قام بإلقاء القبض على الكثير من المجرمين في لندن للدرجة التي جعلت الصحف تسمية منقذ العاصمة. هذا النوع من الدعاية كاف ليضع مسيرة أي أحد العملية على المسار الصحيح مرة أخرى"

تذكرت الآن أين سمعت باسم بوتر من قبل. حتى صحيفة ذا تايمز كتبت بعض المقالات القصيرة عن نجاحاته المذهلة في اختراق وكشف العصابات الإجرامية التي عاثت في العاصمة فسادًا.

"لماذا تم تعيينه لتولي قضيتي إذًا؟" تساءلت "هل أنا مهم لهذه الدرجة؟"

هز ليستراد كتفيه ثم قال "من يعلم؟ إن اسمك معروف

بالفعل، كما هو الحال بالنسبة للسيد هولمز، والمفتش بوتر ذائع الصيت بين مرؤوسيه، أن لديه أنفا حساسا للقضايا الكبيرة. لن أستبعد أن يكون الرجل قد طلب تولي القضية، آملاً أن يذكر اسمه أكثر في الصحف. إذ يبدو أن هذا هو المقياس لعمل الشرطي الجيد..."

كان واضحًا أن ليستراد لا يعنيه أمر زميله، لم يكن لدي أي رغبة في الاستماع إلى المفتش وهو يتحسر على عمله مقارنة بعمل بوتر ولا إلى استطراد هولمز التثقيفي. لذا فقد قمت بتغيير دفة الحديث إلى موضوع آخر في أقرب فرصة.

"دعنا من بوتر الآن" قلت موجهًا الحديث لهم "يمكنه الانتظار حتى الصباح، الآن هناك أمر ملح أكثر وهو ماذا سنفعل الليلة؟"

أشار ليستراد إلى اتفاقه السابق "بالطبع، على الرغم من أن هناك القليل الذي يمكن عمله في هذا الوقت المتأخر من الليل. لقد تم اتهامك بجريمة قتل وفرصة عودتك إلى مسكنك في شارع بيكر تكاد تكون منعدمة، على الأقل حتى القيام ببعض التحقيقات. لكن، وابتسم "وبعد مشاورة نفسي لا يوجد ما يمنع أن تقضي ليلة مريحة هنا في هذه الغرفة، هذا كلام رسمي" فكر قليلاً فيما قاله ثم تابع قائلاً "يمكنني حتى أن آتي بفراشين لك وللسيد هولمز لتريحا رأسيكما عليها بضع ساعات"

كانت ابتسامته مقصود منها التشجيع والمؤازرة لكن ملامح وجهه الذي يشبه وجه الفئران خانته، لكنني قدرت مجهوداته وعرضه أن ننام، لقد كانت ليلة ليلاء بالفعل، إني أسمع دقات الساعة الثانية آتية من بعيد.

لكن هولمز كما هو متوقع كان يرغب في المتابعة. "سيكون هناك الكثير من الوقت للنوم" قال معلنًا وهو يقفز على قدميه "الآن علينا أن نستغل الوقت المتاح لدينا لنجهز حجة الدفاع عن واطسون"

"أشكرك يا هولمز، لكني أخشى أن أيًا منا في حالة تسمح له بمتابعة مثل هذه المهمة" قلت له متثاءبًا. كان جسدي يئن من الألم والأرهاق، لم يكن هناك ما أستطيع فعله خاصة أن الخطر قد زال، سوى أن أبقى عينيّ مفتوحتين.

حدق فيّ هولمز لوهلة طويلة وهز رأسه بخفة ثم قال "معك حق يا واطسون" قال مؤيدًا "لقد كانت ليلة طويلة بالنسبة لك، ربما الراحة هي أفضل تحضير للغد"

ارتدى معطفه وأخذ قبعته من على المنضدة، "أما بالنسبة لي، هناك بعض الأوراق التي قد أستفيد باستشارتها في الوقت الحالي. فلتستغل عرض ليسترادد اللطيف ولسوف أعود بعد بضع ساعات محرزًا، كما آمل، بعض التقدم في قضيتك المثيرة هذه"

لو لم أكن مرهقًا جدًا على الأرجح كنت لألقى مزحة ما على السرعة التي غيَّر بها سبب إلقاء القبض علي من تهمة قتل متوحشة إلى نشاط ذهني ممتع، لكن على النقيض قيدت نفسي وألقيت عليه السلام، ثم هبطت في مقعدي بمجرد خروجه من الغرفة. أظن أني كنت في حالة من الصدمة، حتى إن ليسترادد تمتم شيئًا عن تجهيزه لفراش ما، لكن عينيّ كانتا أغلقتا، وفي غضون ثوانٍ، كنت غارقًا في نومٍ عميق.

الفصل الثالث

في الصباح اليوم التالي، أفقت على صوت هولمز بجوار أذني "استيقظ يا واطسون، أن بوتر آت خلفي بسرعة ولدي سؤال يجب أن أسأله قبل أن يصل"

كنت أحاول الجلوس بصعوبة، شاعرًا بكل عضلة في جسدي تحتج بينما أفرد جسدي من تكوره في المقعد الذي قضيت عليه ليلتي. كان هولمز واقفًا أمامي، ولايزال يرتدي الملابس التي رأيته بها ليلة أمس، حاملًا حقيبة سفر مصنوعة من قماش السجاجيد، وضعها بجوار المكتب.

"ماذا هنالك، هولمز؟" تساءلت "هل اكتشفت شيئًا بالفعل؟!"

"من السابق لأوانه أن أقول" رد باقتضاب "لكن بسرعة قبل أن يصل بوتر، ماذا تعرف عن الميجور السير كامبل جون ماكلاكلان؟ إنه رجل أسكتلندي يفخر بأصوله، حاليًا عضو في البرلمان، وخدم في الجيش عدة سنوات خلال حرب أفغانستان والهند، هل تقاطعت طرقكما خلال فترة خدمتك في الجيش؟"

كان الاسم غير مألوف لي، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أجزم أنني لا أعرفه، قمت بعلاج الكثير من الضباط خلال حرب أفغانستان، لكني احتفظت بالقليل من الأسماء في ذاكرتي. أخبرت هولمز بهذا كله الذي هز رأسه

كما لو كان يتوقع هذه الإجابة.

"حسنًا إذًا" قال هولمز "بوتر سيصل في أي لحظة، على الأرجح سيكون معه أخبار أن السيدة التي أنت متهم بقتلها كانت على علاقة بالميجور ماكلاكلان. إذًا لم يكن لك أي معرفة به عليك أن تخبره، لكن تمهل وفكر في الاسم قليلًا قبل أن تجيبه لأنك إذا أنكرت معرفتك به مباشرة ستجعل موقفك ضعيفًا إن اكتشف بوتر أن لك سابق معرفة بالرجل ونسيتها أنت"

اتخذ مجلسًا في نفس اللحظة التي فتح فيها الباب ودخل المحقق بوتر إلى الغرفة.

كان مهندم الملابس مثل المرة السابقة؛ بينما سروالي مازال ملطخًا بالدماء، وأكمام سترتي أيضًا. مشى عبر الغرفة بخطىً واسعة واتخذ مقعده خلف المكتب، وبينما يرمق هولمز بنظراتٍ غاضبة فتح ملفًا كان يحمله.

لم يضيع أي وقت في التحيات المهذبة، وإنما بدأ مباشرة مما شعرت بكل تأكيد أنه كان خطابا معدا مسبقًا.

"السيد الطبيب جون واطسون، لقد تم اتهامك بقتل شخص مجهول الهوية، بناء على الأحداث التي وقعت في العقار رقم 16 الكائن في لينهوب ستريت، في ليلة الرابع من نوفمبر عام 1898. سيتم اقتيادك من هنا لمقابلة قاضي التحقيق، والذي سيقرر بعد ذلك خطورة الجريمة المزعومة وقوة الأدلة التي تورطك بها وما إذا كانت تقدم سببًا كافيًا لاحتجازك أثناء إجراء المزيد من التحقيقات" أغلق الملف ببطء ونظر لي لأول مرة وسألني "هل تفهم ما

قلته لك للتو أيها الطبيب؟"

نظرت سريعًا إلى هولمز، متسائلًا عن فشل بوتر في ذكر عضو البرلمان ماكلاكلان، ثم هززت رأسي لبوتر "أجل، أفهم" رددت متعجلًا وأنا أبلع الغصة التي صعدت لحلقي عندما قرأ التهم الموجهة إلى بصوت عالٍ. لدي إيمانٌ عميق أن نظامنا العدلي سرعان ما سيظهر براءتي، لكن أن أسمع التهم الموجهة إليّ تُقرأ بهذا الجمود كانت تجربة قاسية ولا تنسى.

"حسنًا إذًا، بما أن الأمر كذلك سأطلب منك أن تجهز نفسك ليتم نقلك إلى المحكمة. ونظرًا لوضعك الاجتماعي ومهنتك السامية، قُرر ألا يتم تصفيد يديك أثناء النقل، لكن عليّ أن أحذرك، أي سلوك غير متعاون من جانبك سيؤدي إلى التراجع في هذا القرار"

لم يبد السرور على بوتر وهو يتحدث. لم يكن لدي شك أني كنت سأُقتاد للمحكمة ببدلة كاملة من الحديد لو أن القرار عائد له. وتساءلت لمن أدين بالشكر لأني لن أفعل ذلك.

"لقد أتيت للطبيب واطسون ببذلة نظيفة وبعض أدوات النظافة ليجعل شكله مقبولًا، أفترض أن هذا في محله؟" كان هولمز فتح الحقيبة التي أتى بها بالفعل، ناولني سترة وسروال مطبقين بعناية بينما اتجه بوتر ناحية الباب.

"خمس دقائق، وليس أكثر من ذلك،" قال وهو مكفهر الوجه "بعد مرور خمس دقائق سيغادر معي، سواء كان لديه الوقت لتمشيط شعره أم لا، أيها الشرطي!" صاح مناديًا

من الباب المفتوح وانتظر حتى أتى شرطي يرتدي الزي الرسمي أتى ركضًا.

"أبق عينيك على المسجون بينما يغير ملابسه، وأخبرني بمجرد أن ينتهي أو بعد مرور خمس دقائق أيهما يحدث أولًا.. سيد هولمز" تابع قائلًا "سيتم اصطحابك خارج القسم، ربما لديك أصدقاء في مناصب عليا،" قال مستنتجًا "لكن هذا لا يعطيك الحق أن تفعل ما يحلو لك في قسمي. الآن لو تتفضل وتتبعني؟"

نصف الابتسامة المرسومة على وجه هولمز كانت كافية لتخبرني أنه راض عن رد فعل المحقق بوتر على وجوده، تبعه هولمز طواعية لخارج الغرفة، متوقفًا للحظة فقط ليطمئنني أنه سيكون موجودًا في المحكمة.

أُغلِق الباب بإحكام خلف الرجلين، وتحت رقابة الشرطي قمت بتنظيف نفسي بأسرع ما أمكنني. لن أقبل إلا أن أظهر بأفضل شكل أمام قاض التحقيق.

في الواقع كان مثولي أمام المحكمة رائعًا فقط في إيجازه.

بالرغم من أني وهولمز كنا السبب المباشر في وقوع عدد من الرجال والنساء تحت طائلة القانون، لم أكن أطيل التفكير فيما يحدث بعد ذلك عما يتعرض له المجرمون من معاملة وما يمرون به في انتظار الحكم والإدانة.

لذلك، وبينما كان لدي إحساس غامض بما سيحدث، إلا أني مازلت مندهشًا من نقلي إلى قاعة محكمة شبه مهجورة، وفي خلال دقيقتين على الأكثر، أخبروني أني سأُحتجز أثناء إجراء الشرطة المزيد من التحقيقات.

"الجريمة خطيرة بحيث لا يُتوقع من الناحية المنطقية التفكير في الكفالة" على حد تعبير قاض التحقيقات.

بدون أي فرصة للدفاع عن نفسي، تم اقتيادي من المحكمة نزولًا عبر الممرات التي دخلت منها.

من هناك، تم وضعي فيما تسمى المارياس السوداء، وهي عربات مصممة خصيصًا لنقل السجناء مع تحويل الجزء الخلفي بالكامل إلى سلسلة أقفاص محكمة، يُدْخل كل منها على حدة من الخارج. سار هولمز عبر الباب بينما بابي يغلق وهمس لي بتحذير سريع "لا تتحدث لأي من السجناء الآخرين طالما يمكنك تجنب ذلك، لكن إن كنت مجبرًا فلتُدون ملاحظاتك بالتفصيل لأن حياتك قد تعتمد على مدى معرفتك بزملائك السجناء. هناك أكثر من شخص لديه الكثير من الأسباب ليلعن اسم شيرلوك هولمز وجون واطسون، لن يُسمَح لك باستقبال زوار في اليوم الأول. لكن اطمئن أني سآتي لرؤيتك غدًا، وأنا واثق أني سآتي بأخبار إيجابية؟"

إن ترحيبي بالعزلة التي قدمتها لي المارياس دلالة على حالتي المزاجية. أخفتني بعيدًا عن الإحراج المحتمل من تدقيق العامة وتركتني وحدي لأول مرة منذ حوالي أربع وعشرين ساعة. أخذت كلمات هولمز بعين الاعتبار وأدركت

المنطق فيها. أعرف أن الناس يصدقون المثل القائل أنه لا يوجد دخان بدون نار، ومع ذلك ليس لدي شك أن هولمز سيكشف الخلل في هذه القضية وسيتم إطلاق سراحي، كلما قل عدد الناس الذين يعرفون بأمر مأزقي هذا كلما كان أفضل. من شدة الإرهاق وبسبب الحركة المستمرة الثابتة للعربة التي هدأتني وسحبتني في نومٍ عميق.

استيقظت للمرة الثانية اليوم بهزة من يدٍ لكتفي. وقف شرطي في مدخل محبسي.

"استيقظ يا هذا!" أمرني بحدة "لا تضطرني أن أجرك من عندك!!"

أستطيع أن أرى مبنى حجريا مهيبا يطل من خلف كتفه، الجزء الداخلي من سجن هولواي، والذي يتم جلب كل المتهمين الذين ينتظرون المحاكمة إليه. خطوت خارج زنزانتي أنا وباقي المحتجزين وتبعنا الشرطي إلى الممر الذي يفرض نفسه أمامنا لداخل السجن.

"الذكور؟ إلى اليسار!" صاح صوت ما بجوار أذني قبل أن أستوعب المكان المحيط بي.

امتد على الجانبين ممرين مصفوفين بما توقعت أن يكونوا زنازين. تحركت في موكب إلى اليسار، وسمحت لنفسي أن أقف في زاوية من ساحة السجناء، في مواجهة حارس يبدو عليه الضجر، والذي بدأ من فوره يتلو علينا

بعض القواعد بنبرة تملؤها الرتابة المملة. بعد أن فرغ، نادى علينا حارس آخر كُلًا باسمه وسلمنا ملاءتين رماديتين ورقم زنزانة.

تبع ذلك فترة انتظار طويلة قضيناها وقوفًا في الممر البارد بينما كان الحراس يقودون السجناء، اثنين في كل مرة، لتسجيل مقاساتهم ووزنهم. عندما أنهيت دوري، لم يتبق إلا أن أوقع على قائمة بالأغراض القليلة التي كانت في جيبي (أخذت مني لحفظها في مكانٍ آمن) ثم تم اقتيادي إلى زنزانتي، والتي ستكون منزلي على الأقل لليلة.

إحقاقًا للحق، كان الأمر أقل تقشفًا مما توقعت. إن زنزانتي عشر أقدام في اثنى عشر قدمًا، نظيفة لكن باردة، يضيئُها مصباح غازي ونافذة مستطيلة في الجدار البعيد.

احتوت الغرفة على فراش يحتل ناحية واحدة من الغرفة، يجاوره مكتب صغير للكتابة ومقعد، مع خزانة جانبية متهالكة وضع عليها إبريق ماء ووعاء. الباب نفسه مبطن من الداخل بالحديد، لا يوجد به سوى فتحة زجاجية حتى يمكن للحراس مراقبة السجناء في أي وقت.

"يبدو أن لديك بعض الأصدقاء المهمين" قال الحارس وأنا أدخل وأتخذ مقعدي "زنزانة "درجة أولى" ولم يمر على وجودك خمس دقائق."

"درجة أولى؟" تساءلت في حيرة.

"واحدة من أفضل الزنازين لدينا، تدفع أنت أو أحد أصدقائك بالخارج بعض الشلنات لتحصل على زنزانة مثلها، مساحة واسعة بعض الأثاث اللطيف، وطعام أفضل

أيضًا، تفاجأت أنك لم تلاحظ.. معظم الناس تفعل"

نظر لي من أعلى لأسفل بلا خجل "لكنك لست من النوع الذي ينتهي به الحال هنا، مما يثبت أن الأخطاء تقع في كل مكان"

وهكذا، أغلق الباب خلفه وتركني وحدي مع أفكاري المضطربة.

رغم أنه لم يمر سوى بضع دقائق حتى أتى حارس آخر.

"قف يا هذا!" قال آمرًا "آمر السجن السيد كيجان يود مقابلتك"

وقف على الجانب حتى أسبقه تجاه مجموعة محيرة من السلالم والممرات وهكذا حتى وصلنا إلى باب مكتب الآمر.

حذرني ليستراد من أن الآمر رغم أنه بديل مؤقت لسلفه الذي أصيب بمرض السُل وقد بقي في منصبه هذا لمدة تقارب العامين، قد اكتسب سمعة أنه صارم للغاية.

وحتى مع ذلك حياني بلطف كاف وقدم لي مقعدًا وسيجارة. قبلتها بسعادة المحروم من التدخين طوال اليوم، شاهدته وهو يشعل عود كبريت وحمله لي.

طوله أقل من ست أقدام بقليل، ذو جسد ممشوق حليق الذقن، شعره أسود مما ظهر من إضاءة المكتب. ملابسه شديدة النظافة، يرتدي معطفا وسروالا من نفس اللون، وقبعة من قبعات هامبورج العصرية معلقة على الرف خلفه.

"علي أن أقول يا سيد واطسون، أن الرجال مثلك لا

يعبرون أبواب مؤسستي كثيرًا" قال ضاحكًا ثم تابع "في الواقع لن تتفاجأ أن أغلب الرجال الذين تضمهم هذه الجدران غير متعلمين متبطلين عديمي النفع، حثالة المجتمع بكل ما تعنيه الكلمة، وللأسف تخطوا مرحلة الندم والخلاص" قال مستنتجًا وهو يريح ظهره على مقعده منتظرًا تعليقًا مني على ما يبدو.

"بالطبع لا" قلت مخاطرًا وأنا أشعر بإحساس حقيقي بالامتنان لأني وقعت بين يدي رجل متعاطف ومتعلم مثله.

فكرت أنه ليس من الضروري أن تمر فترة الحبس كلها دون شيئًا يواسيني.

لم أستطع أن أكون مخطئا أكثر.

على ما يبدو أن هاتين الكلمتين البسيطتين اللتين تفوهت بهما كانتا كفيلتين بتغيير في شخصيته يستحق قلم السيد روبرت لويس ستيفينسون[1].

كل الدماثة والألفة التي كانت على وجهه من قبل تحول إلى غضب جعل وجهه يتحول للون البنفسجي وعروق جبهته تنبض منذره بالخطر.

"أتشكك فيما أقوله؟! هل تظن أنك تستطيع الحكم على الشخصية الإجرامية أفضل مني؟!أم أن قربك الزائد من شيرلوك هولمز جعلك تظن أنك تستطيع تكذيب استنتاجات خبير في إدارة السجون مثلي؟!

كان تحوله صاعقًا. قام كيجان من مقعده بعصبية

---

1 ـ روائي وكاتب مقالات وشاعر ومدون سفر إسكتلندي الجنسية، من أشهر أعماله القصة العجيبة لدكتور جيكل والسيد هايد.

جعلت المقعد يسقط مصدرًا صوتًا مدويًا، ومال فوق المكتب حتى صار قاب قوسين مني رغم وجود المكتب بيني وبينه.

"قف على قدميك يا واطسون!" صاح في عصبية "وألق هذه السيجارة الآن! إنك لم تعد في شارع بيكر!"

ألقيت بالسيجارة ووقفت وأنا أشعر بالحيرة كليًا. خرج كيجان من خلف مكتبه ونغزني في صدري عدة مرات. استخدمت كل ما أملك من الثبات الانفعالي حتى لا أدفعه خاصة أني أعلم أن النتيجة ستكون كارثية. بدلًا من ذلك ركزت نظري على نقطة وهمية فوق رأسه وانتظرت انحسار غضبه.

ما إذا كان هذا سيحدث أم لا، لم أكن لأعرف.

"شابلي!!" صرخ آمر السجن. انفتح الباب ودخل نفس الحارس الذي أتى بي له مسرعًا، "خذ السجين لزنزانته، وأبق عينيك عليه، إن غطرسته وازدراءه للسلطة لا تخطئهما العين، ولن أقبل أن يقلده باقي السجناء. يتم إبلاغي مباشرة إن خالف أيًا من القواعد". بلع ريقه بصعوبة ومسح العرق من على جبهته ثم قال "والآن اخرج!"

هذا الأمر الأخير كان موجهًا لي. وكاستجابة للأمر أمسك الحارس بذراعي وشدني بعنف للخارج. ثم دُفعت بقوة في ظهري مجبرًا على طول الممر وصولًا إلى زنزانتي.

الفصل الرابع

بعد أن أمضيت الكثير من الليالي نائمًا تحت أغطية القنب، فإن غرفة باردة وفراش قاس ليسوا بالأمر الجلل بالنسبة لي. وزنزانتي بعيدة نسبيًا عن النوع السيئ من السجناء الذين سمعت صدى صرخاتهم يتردد في الممرات. وكنتيجة منطقية، استيقظت في الصباح التالي منتعشًا وأنا أشعر بنفسي مثل المعتاد. تضمن فطوري وعاء من الثريد وقطعتين من الخبز البني مبللتين ببعض الماء قدما لي في كوب صدئ من القصدير، بعد ذلك جلست أنتظر قدوم هولمز.

بطاقتان على المكتب أوضحتا قواعد السجن وبعض الامتيازات الخاصة لهؤلاء الذين لم يحكم عليهم بعد.

بلغت هذه الامتيازات ـ بقدر ما أستطعت أن أفهم ـ إعطاء الحق في أن يرتدي المرء ملابسه الخاصة، وأن يتحرك في أقسام مختلفة من السجن كما يُسمح له باستقبال عدد أكبر من الزُوار. المعلومة الأخرى التي كانت ذات نفع حقيقي أنه مسموح للسجناء أن يتريضوا لمدة ساعة في تمام العاشرة صباحًا، ويُعطوا الغداء في منتصف اليوم. فيما غير ذلك، والحضور الإجباري للصلاة في الكنيسة، يبدو أن اليوم ملكي تمامًا.

في الواقع، لم يأت أحد ليأخذني لأتريض، لذلك بقيت

وحدي مع أفكاري، عزمت على البقاء في حالة مزاجية إيجابية، المهمة التي كانت صعبة بدون أي وسيلة إلهاء غير عد الأحجار في زنزانتي.

وصول وجبة الغداء كان مرحبًا به لكسر الملل والرتابة، على الرغم من أن الطعام كان فقيرًا جدًا مثل الوجبة السابقة. لحسن الحظ، لم أضطر أن أنتظر كثيرًا بعد أن أنهيت وجبتي الشحيحة. عند تمام الثانية عشر والنصف أتى حارس ليأخذني لغرفة الزوار، غرفة فسيحة لكنها متسخة، بها العديد من الطاولات والمقاعد تم صفهم أمام بعضهم البعض بين كل واحد والآخر مسافة قدم واحدة. وقف حارس عند كل من المخرجين بين الفينة والأخرى يتبادلان الأماكن بالتمشية بين المقاعد، اتخذ هولمز مقعده بالفعل عند طاولة ما، ولفزعي جلس بجواره المحقق بوتر.

بينما أجلس قبالتهما لم يُضيِّع وقتًا في تنميق الكلام أو المجاملات. "سيد واطسون، توصلنا هذا الصباح لهوية السيدة المتهم بقتلها، اسمها...."

قاطع هولمز المحقق كأنه لم يكن يتحدث "اسمها السيدة سارة ماكلاكلان، وهي العمة الكبرى العانس الميجور سي. جي. ماكلاكلان، بطل حصار كانبور[1]، عضو مناضل من أعضاء البرلمان، رجل انجليزي نبيل يشغل الآن منصب رئيس التحقيق البرلماني بخصوص عصابات الجريمة المنظمة التي انتشرت مثل الطاعون في شوارع العاصمة."

---

1 ـ حصار كانبور بالهند كان حلقة فاصلة في ثورة عام 1857.

"سأسحب شارة المحقق ليستراد لهذا!" قال بوتر مهمهمًا، وهو يحملق في هولمز الذي رفع حاجبيه في تساؤل هزلي.

"لم قد تفعل هذا بحق الجحيم أيها المحقق؟" تساءل بدماثة خلق.

"ليس من حقه أن يُفصِح لك عن معلومات سرية! قد تظن أنك معاون للشرطة يا سيد هولمز، لكن ليس بالنسبة لي. في الواقع أنت لست سوى هاوٍ يحب تمجيد نفسه"

سمح هولمز لهذه الإهانة أن تمر رغم أنه أسرع في تصحيح باقي تصريح بوتر.

"أؤكد لك أني لم أتحدث إلى ليستراد منذ الساعات الأولى لهذا الصباح وأنه لم يفصح لي عن أي معلومات من أيِ نوع"

"إذا فلتشرح لي بالضبط كيف تمكنت من الحصول على هذه المعلومات الخاصة بالسيدة ماكلاكلان والتي لم تظهر للنور سوى منذ بضع ساعات عندما زار الميجور ماكلاكلان القسم بنفسه هذا الصباح ليبلغ عن تغيب عمته؟"

"كما تفضلت وأوضحت يا سيدي المحقق فأنا لست تابعًا لك ولست عضوًا في قوة الشرطة. وكمجرد هاوٍ لا أظن أنه من اللائق أن أخبرك كيف تدير التحقيق الخاص بك"

"قد تكون هاويا بالفعل يا سيد هولمز، لكن إن لم تمدني بتفسير منطقي عن معلوماتك المدهشة، سأضطر

للجوء إلى الاستنتاج الواضح. أن صديقك الطبيب واطسون هو من أخبرك باسم السيدة المغدورة. والآن يا سيدي، ماذا لديك لتقوله بهذا الشأن"

فكر هولمز قليلًا وهو يأخذ الكلام بعين الاعتبار، يداه تحت ذقنه في سلوك معتاد. نظر لي نظرة خاطفة، ولكن لدي خبرة في طُرقه لذلك كنت أثق تمام الثقة أن لديه الرد المناسب لبوتر، إن اختار أن يقوله. في النهاية وبتنهيدة منزعجة، نظر للمحقق بوتر موليه اهتمامه مرة أخرى.

"حسنًا إذًا، محقق بوتر، إن كنت غير قادر على أبسط عمل شرطي، سيقع على عاتقي أن أعلمك. إن تسلسل الاستنتاج بسيط للغاية بالفعل" تابع وهو يشير لي "في شهادته، أفاد الطبيب واطسون أن الغرفة احتوت على القليل من الأثاث الذي كان ذا جودة رديئة. مع ذلك، أشار أن هناك رداء نسائيا من نوعية جيدة معلقًا على باب الخزانة"

"التفسير المنطقي الوحيد هو أن هذا الرداء يعود للضحية. وبالتالي عندما غادرت القسم ليلة أمس استعنت ببعض أطفال الشارع الذين قدموا لي بعض الخدمات المشابهة فيما سبق، وأخبرتهم أن يسألوا في كل أقسام الشرطة التي يقدرون أن يذهبوا إليها عن بلاغ عن امرأة كبيرة في السن متغيبة وتكون ذات أصول نبيلة. لحسن الحظ، صادف أحد أصدقائي الصغار خادمة ذاهبة في جولة والتي أخبرته أن سيدتها قد هامت أثناء الليل. على ما يبدو أن السيدة محط الاهتمام هنا كانت غير متزنة عقليًا ومعروفًا عنها أنها تختفي في نزهات منتصف الليل

غير المخطط لها، لكنها دائمًا تعود مع بزوغ أول أنوار الصباح. لكنها لم تعد هذا الصباح. اسم السيدة هو سارة ماكلاكلان، عمة الميجور ماكلاكلان بالنسب".

أراح ظهره بدون أدنى تعبير على وجهه منتظرًا رد فعل بوتر.

تفاجأت من هدوء بوتر "جيد جدًا سيد بوتر" قال بنصف ابتسامة "لو أن بعض رجالي يتمتع بنصف ذكائك، لكنا أغلقنا التحقيق في هذه القضية بالفعل"

"لا أستطيع أن أعلق على هذا، أنت تعرف رجالك أفضل مني"

"بالفعل، لو أن أيًا من رجالي تحصل على هذه المعلومات التي تساعد التحقيق، لأتى لي على الفور، في الواقع" قال والابتسامة تختفي من على محياه "أتساءل لماذا لم تفعل؟ كما أتساءل ما هي الحقائق التي قد تكون في حوزتك لكنك أبقيتها لنفسك؟ حقائق من شأنها أن تساعد في تبرئة صديقك"

حملق بثبات في هولمز بينما يتحدث، متجاهلًا وجودي تمامًا كما لو أني غير حاضر. لكن لو أنه ينتظر رد فعل من هولمز، سيصاب بإحباط شديد.

"كما قلت سيدي المحقق، ما أنا سوى هاو. ماذا يمكنني أن أعرف ولا يكون معروفًا بالفعل للمحترفين؟ بالنسبة للسيدة ماكلاكلان، هذه أول مرة أقابلك فيها منذ أن اكتشفت هويتها، متى كان يمكنني أن أخبرك ما عرفته؟" رقصت ابتسامة باردة سريعًا على شفتيه. "كما أنك توصلت

لنفس الاستنتاج دون الحاجة لمساعدتي"

حملق بوتر لعيني هولمز للحظة طالت حتى أصبحت غير مريحة، ثم وبتنهيدة مبالغ فيها وجه اهتمامه لي.

"حسنا دكتور واطسون، كما كنت أقول قبل أن يتم مقاطعتي، تم تحديد هوية السيدة المتوفاة على أنها عمة عضو البرلمان البارز الميجور كامبيل ماكلاكلان. هل لديك أي معرفة شخصية بالميجور أو عمته؟ هل قابلت أو عالجت الميجور ماكلاكلان أو أيا من أفراد عائلته؟ إن الميجور له أخ يعيش معه على ما أظن" فتح دفتر ملاحظاته على صفحة فارغة ممسكا قلمًا رصاصا وتابع "أود أن أذكرك أننا سنطرح نفس الأسئلة على الميجور، لذا أنصحك أن تكون متأكدًا مما تتذكره"

كنت محظوظًا أن أعلمني هولمز بالاسم من قبل، وإلا كنت لأصبح غير متأكدًا من إجابتي.

كما هو الحال، جاءت إجابتي ملؤها الثقة أني لم أقابل أيًا من الميجور أو عمته المتوفاة من قبل.

"لكنك على علم بعمل الميجور فيما يخص مكافحة العصابات التي أصبحت السبب الرئيسي في زيادة معدل الجريمة في العاصمة؟"

"أعلم بأمر العصابات نعم، كما أنى ساعدت هولمز قدر استطاعتي، في تعكير صفو نشاطاتهم. مع ذلك فان اسم الميجور ماكلاكلان جديدًا بالنسبة لي سواء في هذا الشأن أو غيره"

لم ألق بالًا لتلميح بوتر أنى سأكون غير صادق، وأخشى

أن نبرة صوتي قد أفشت عن انزعاجي.

"ليس هناك حاجة لأن ترفع صوتك دكتور واطسون" قالها وفي عينيه ومضة متعة "على أن أخبرك أني عملت جنبًا إلى جنب مع الميجور ماكلاكلان في الماضي، وحققنا نجاحًا مميزًا، مع ذكر وفير في الصحف. على أن أعترف أني تفاجأت أن رجلًا بمثل اهتماماتك يدعي أنه لم يسمع باسم الميجور من قبل"

"اطلاع واطسون بمجريات الأحداث مثله مثل أي رجل سيدي المحقق، لكن إن كان به عيب فهو افتقاره لملاحظة التفاصيل" قال هولمز بصوت مصقول وهو يأخذ دفة الحوار مرة أخرى. "مع ذلك أنا أعلم الكثير عن الميجور. فهو ضابط جيش ذو سمعة حسنة، وبطل للعديد من الحملات الهندية. مشهور بغيرته الشديدة على أموره الخاصة وسمعة عائلته. كل ما هو معروف للعامة عن هذا الرجل المحب لخصوصيته أنه حريص على جمع التذكارات الحربية، وفي وقت سابق كان لاعب بولو ماهرا ومن المتوقع أن يتم ترقيته إلى لورد في المستقبل القريب. وهو مع ذلك لم يطلب أيًا من خدماتنا أنا وواطسون، كما أنى لا أتذكر أننا تشرفنا بمقابلته في أي مناسبة اجتماعية"

تساءلت "هل حازت هذه الإجابة على رضاك محقق بوتر؟"

"إنها إجابة بكل تأكيد يا دكتور، لكني لن أبالغ وأقول إنها مُرضية. لكن لنتابع مؤقتًا" راجع بعض المعلومات في دفتره ثم تابع "تواجدت في الغرفة التي تم بها القتل

وبحوزتك عدة سكاكين، الآن..“ رفع يده يستبق اعتراضي ”أدرك أنه يمكنك التذرع أن هذه الأدوات أساسية لعملك بصفتك طبيبا، لكن وصحح لي إن كنت مخطئًا أنت حاليًا لست جراحًا؟ لذلك يمكن القول إن حملك ثلاث سكاكين مفرطًا بالنظر لممارستك اليومية؟“

”بالنسبة لممارساتي اليومية، نعم. لكن مؤخرًا كنت أعالج مريضًا مسنًا عن طريق وخز عدة دمامل مؤلمة والتي احتجت لمجموعة متنوعة من السكاكين للتعامل معها، كما أن..“ قلت وقد أصبحت أكثر غضبًا من نبرة المواراة التي يستخدمها المحقق ”حتى الشرطي الخاص بك اعترف أن أيًا من السكاكين في حقيبتي عليها آثار دماء“

لدهشتي أطلق بوتر ضحكة خافتة على هذه النكتة. قلب صفحة دفتره وقرأ الكلمات القليلة التي كانت مكتوبة هناك.

”أشكرك مجددًا دكتور واطسون لأنك ذكرتني بالجزء الثاني من الأدلة التي تم اكتشافها منذ الأمس“

مد يده إلى حقيبته وأخرج قطعة قماش بنية اللون ووضعها أمامنا على الطاولة.

”وجد أحد رجالي هذه القماشة البالية ملقاة تحت الفراش، وكما سترون بأنفسكم فإن عليها علامات من الدم المجفف بشكل كبير كما لو أنه قد مُسِح بها سكين مخضب بالدم“

اتخذ مجلسه مقتنعًا أنه وجه ضربة قاتلة لدفاعي، لكن مرة آخر كان هولمز مستعدًا لهذه المهم.

"هل لي أن أُعاينها أيها المحقق؟" تساءل بهدوء. وبدون انتظار إجابة رفع القماشة من على الطاولة وأخذ يقلبها بين أصابعه الطويلة. فحصها لما لا يزيد عن خمس ثوان قبل أن يلقي بها لي "إنها عنصر أساسي في قضية المفتش ضدك يا واطسون، هلا تخبره بالخلل في استدلاله، أم أخبره أنا؟"

كان على طرف لساني أن أخبر هولمز أن هذا ليس الوقت المناسب لممارسة الألعاب، ولكن قبل حتى أن أفتح فمي رأيت بالضبط ما قصده صديقي. من الواضح أن هذه القماشة كانت رمادية اللون لأن هناك بعض اللون يظهر هنا وهناك بين اللون البني الغالب عليها من الدم الجاف. لا شيء سوى الدم جعلها ملحوظة، مما يُسهل اكتشاف الخلل في نظرية بوتر.

"بقع الدم!" صرخت بحماس وإن لم أشعر بارتياح "أنها تغطيها بالكامل!"

"أحسنت يا واطسون!!" صاح هولمز ضاحكًا بمتعة حقيقية؛ والتي أسمعها لأول مرة في هذا المكان. "لقد عرفت الخلل بالضبط! هذه القماشة قد تم غمسها تمامًا بالدماء سيدي المفتش" قال هولمز وهو يعيد انتباهه إلى بوتر المبهوت "بالكاد توجد مساحة لا تشوبها شائبة بحجم الشلن. بالتأكيد يمكنك أن ترى جوهرية الأمر؟ لا؟ إذًا دعني أبرهن لك"

وهكذا قام وأمسك بقلم المحقق في يده كأنه يحمل سكينًا وأخذ قطعة ورق من جيبه وحملها في يده الأخرى.

"انظر هنا أيها المحقق، ها أنا أحمل في يدي سلاح الجريمة، لكن بالكاد يمكنني أن أمشي به هكذا في الطرقات، يجب أن أنظفه، لكن كيف؟ أها! قطعة من القماش ملقاة بالجوار، ما أحتاجه بالضبط! أطوي القماش هكذا حول السكين ــ" كان يجاري وصفه بحركة يده، "وأحركه هكذا على طول النصل لأمحي أي أثر لفعلتي المشينة"

سحب الورقة مرة أخرى ووضعها على الطاولة وقال "أترى ما اقصده أيها المحقق؟" ما أدركه واطسون سريعًا، أن أي بقع يخلفها مسح السكين ستكون طولية الشكل وسيتخثر الدم على أحد جانبي الطية، ولن تكون ملطخة بالكامل، كما هو الحال هنا"

أعاد الخرقة إلى بوتر الذي حدق بها ولم ينبس ببنت كلمة كما لو أنها أساءت له شخصيًا.

أغلق دفتر ملاحظاته بقوة ولم يكن كتب به شيئًا ووقف من فوره. "حسنًا، لا يمكنني أن أقضي يومي كله في التحدث إليكما، لذا أرجو لكما يومًا طيبًا. أنا متأكد أنه سيكون لدي المزيد من الأسئلة لاحقًا"

وهكذا رحل تاركا هولمز وأنا وحدنا أخيرًا.

"شكرًا لك يا هولمز" قلت له "لو لم تحذرني بشأن السيد ماكلاكلان كنت لأبدو بمظهر المذنب، ورغم ذلك فقد فتشت في ذاكرتي جيدًا"

أعفاني هولمز من شكره بحركة من يده، "حتى بمعايير سكوتلاند يارد المُحزنة، فإن بوتر مثير للإعجاب بمستوًى

متوسط فقط. إنه يبدع دائمًا في تفويت ما هو واضح في سعيه للقبض على المجرم. بغض النظر عما قلته أو كيف كانت ردة فعلك سيفترض دائمًا أنك المذنب ويؤكد لنفسه أنه رأى دليلًا على ذلك. ومع ذلك، إن صدق ليستراد، فإنه عنيد ولن يتخلى بسهولة عن مسعاه"

"ومع ذلك، فقد تم دحره هذا الصباح، يجب أن نسمح لأنفسنا ببعض المتعة من ذلك، ربما ستعزي نفسك قليلا بعد أن تقرأ هذه"

لاحظت أن هولمز يقلب قطعة مربعة من جريدة بين أصابعه منذ أغلق الباب خلف بوتر وقد رفع يديه ليعطيها لي، واحتلت عينيه نظرة ندم عميق.

لاحظت أن القصاصة كانت جزءا من جريدة من تلك الجرائد سيئة السمعة التي تمول الفضائح الاجتماعية والخطابات الثورية. الورقة نفسها من نوع رديء ورخيص يميل الحبر إلى التلطخ بينما أفتحها، لكنه بقي مقروءًا لي بما يكفي لأعرف أنه خبر إلقاء القبض علي، كان النص مزيجا بين اللغة والخطوط المصممة لتصل لأقصى تأثير من نثر الكاتب الشنيع، لكن المحتوى كان أقل رداءة مما تخوفت. تحت العنوان الرئيسي لخبر إلقاء القبض علي، كان هناك فقرتان، الأولى والتي سردت فقط بعض الحقائق المجردة عن "أسري". والفقرة الثانية التي ركزت على علاقتي بهولمز.

الطبيب واطسون المعروف للعامة أنه مؤلف سلسلة من الروايات التي تروي مسيرته كمساعد لشيرلوك هولمز.

الفضولي الأشهر في لندن. قراؤنا الذين على دراية بكتاباته سيكونون على علم أن الطبيب واطسون والسيد هولمز يكتفون حصريًا بالقضايا الإجرامية الخاصة بالطبقة الحاكمة، وبالتالي وضعوا أنفسهم وبقوة على جانب الطغاة. بعض الجهات المعينة، ومن بينهم هذا المراسل نفسه، كانوا يَشُكون منذ أمد طويل أن السيد هولمز يعتقد أن القانون لا يُطَبَق سوى على الآخرون، ويبدو أن هذا المعتقد المتساهل في الأخلاق الشخصية قد انتشر ليطول سكرتيره أيضًا. من المعروف أن للسيد هولمز علاقات وطيدة داخل سكوتلاند يارد وبعض الأعضاء البارزين في السلطة لذلك لن يكون الأمر مفاجئًا لقرائنا أن يعرفوا أن بعض الخطوات تم أخذها بالفعل لإلغاء التبليغ عن جريمة الطبيب واطسون، وأنه من المتوقع أن يتم الإفراج عنه وإيداعه عهدة رفيقه في المستقبل القريب.

هززت كتفي برفق وقلت "على ما أظن أنه كان متوقعًا أن ينتشر الخبر" قلت بصوت ثابت "إن كنت تلوم نفسك أرجو ألا تفعل يا هولمز، أتوسل إليك، لا يوجد رجل بإمكانه إسكات الصحافة البريطانية كلها. ولا حتى أنت" أنهيت كلامي ببسمة ساخرة.

عبس هولمز بدوره وقال "يمكن أن نعزي أنفسنا بأنه الخبر الوحيد الذي عثرت عليه، مع ذلك فإن مايكروفت غاضبًا جدًا أن هناك مراسلا اعتقد أنه سيستفيد من معارضته. لن يتكرر ذلك."

سارعت لطمأنته أكثر من خلال التأكيد على الشيء

الإيجابي الوحيد الموجود بالقصاصة. "هون عليك يا هولمز، هل ما ذُكِر هنا حقيقي؟ إنه سيتم اخراجي قريبًا؟"

"سامحني يا صديقي العزيز!" صرخ فجأة وهو يضرب بيده على الطاولة. "هذا هو ما أردت أن أخبرك به قبل أن يأتي بوتر وأنساني الأمر مؤقتًا. إن مايكروفت على ثقة تامة أنه سيتم إطلاق سراحك بحلول نهاية الأسبوع".

الارتياح الذي غمرني بعد هذه الكلمات كان لا يُحصى. لقد أمضيت بالطبع أيامًا في ظروف أقسى بدنيًا من تلك التي عانيت منها في سجن هولواي. لكن الألم النفسي، والخوف من الإذلال العلني إن علم الجميع بهذه الواقعة، هذا هو ما يؤرق مضجعي منذ ظهوري الخاطف في المحكمة. لكن يبدو أنى سرعان ما سأنسى هذه المحنة الاستثنائية.

"هذه أخبار رائعة يا هولمز!" صرخت به "لكن كيف تمكنت من ترتيب هذا الأمر؟"

"يجب أن أعترف يا واطسون أن القليل من الفضل يعود لي. اقتصر دوري في أن أذكر أخي مايكروفت، باستثناء تواجدك في الغرفة التي حدثت بها جريمة القتل، لم يكن هناك أي دليل حقيقي ضدك. كان لديك الفرصة لترتكب الجريمة، هذا كل شيء. ما الدافع الذي يجعلك تذبح شخصًا غريبًا تمامًا عنك؟ وكيف تقوم بفعلتك وتترك خلفك سكاكين بلا بقعة دم واحدة؟ طرحت هذه الأسئلة على... بعض الأطراف المهتمة بالأمر. وتم الاتفاق على أن الإجابات التي قدمتها الشرطة لم تكن مُرضية بالشكل

الكافي." ابتسم ابتسامة عريضة ثم تابع "أتوقع أن تصل أوراق إطلاق سراحك خلال الأيام القليلة المقبلة"

رحل هولمز بعد هذه الأخبار السعيدة لأن الوقت المخصص لمقابلتنا كان قد انتهى. وعد الحرية هذا سيدعني حتى يتحقق، وهكذا تم اصطحابي إلى زنزانتي بقلب ملؤه الأمل أكثر مما توقعت وأنا أتركها منذ ساعة مضت.

الفصل الخامس

خطأٌ فادح أن تعتنق الأمل وهناك من يتحكم بكل ما يتعلق بوجودك. شيلبي، الذي يبدو أنه ألصق نفسه بي مستبعدًا الحراس الآخرون، هو من زف الخبر لي فورًا. "سيتم نقلك يا واطسون" قالها وهو ينزع الرقم الذي يشير إلى زنزانتي من على صدري "وقال: المحافظ إننا في حاجة لزنزانتك، لذلك سيتم نقلك إلى مكان أقل راحة. تُقَدَم الأمتيازات لأولئك الذين يستحقونها، وليس لقاتلي السيدات العجائز أمثالك، هيا تحرك الآن!". دفعني بقوة من الخلف وأجبرني أن أمشي للأمام وإلى الجانب حيث تعثرت وكشطت يدي بالحائط.

كنت أعرف أن لا طائل من الاحتجاج، لذلك اعتدلت وشققت طريقي متبعًا إصبعه الموجه أسفل سلم غير مألوف ثم على طول ممر مماثل وإلى داخل زنزانتي الجديدة.

في واقع الأمر، لم يكن هناك اختلاف جوهري كبير، سوى فراش إضافي جلس عليه شخص أحدب، استقبلني بإيماءة منً رأسه بينما دخلت.

"أتيت لك ببعض الرفقة يا هاردي" أعلن شيلبي. "كما أنه قاتل وحشي، فلتنتبه لنفسك، لو أني مكانك لِن تغمض لي عين" خرج وأغلق باب الزنزانة خلفه ضاحكا.

لم يخرج رفيقي في الزنزانة عن صمته إلا بعد خروج شيلبي "ماذا لدينا هنا يا ترى؟" قالها بلهجة ودية بشكل

مفاجئ، لم يكن هناك حقد في صوته بل كان يبتسم وهو يتفحصني بنظره.

ولأني لم أكن متأكدًا ما هو الرد المناسب، رددت له التحية بإيماءة رأس وجلست على حافة الفراش الخالي.

"بماذا ينادونك إذًا؟" تساءل مجددًا بعدما أنهى فحصه لي على ما يبدو.

"دكتو... جون واطسون." أجبته قائلًا بعدما تراجعت عن الإعلان عن وظيفتي، لا حاجة لذلك هنا. "وأنت؟"

ابتسم ابتسامة واسعة وقال "ألبيرت سي هاردي في خدمتك جون، لكن أصدقائي ينادونني هاردي"

توقفت قليلًا عندما ناداني جون، لكن نظرًا للوضع الحالي تمالكت نفسي وكبحت انزعاجي. لم أنوِ أن أطيل البقاء في السجن، لكن طالما أنا هنا سأحاول كسب بعض الصداقات كلما حانت الفرصة. "سأناديك بيرت إذًا" قلت ومددت يدي له. حدق لها لبرهة ثم اتخذ قراره ومد يده وتصافحنا. له قبضه يد مُحكمَة، ربما أكثر من اللازم، كما أنه لم يبعد نظره عني لوهلة بدت طويلة قبل أن يترك يدي. انتهزت فرصة تحديقه بي وتمعنت في وجهه فاحصًا. لم يزد عمره عن الرابعة عشر أو الخامسة عشر، نحيف لكن ذو جسد عَفِيّ، له وجه شاحب تغطية علامات حب الشباب ومنه أطلت عينان صغيرتان فاحصتان زرقاء اللون.

من الواضح أنه يبدى اهتمامًا بي مثلما أبدي اهتمامًا به. "هل هذا صحيح؟ هل أنت قاتل؟"

"إنه مجرد سوء تفاهم."

"استخدمت سُمًا، على ما أظن" قال وهو مستغرق في

التفكير "هذه هي الطريقة التي يميل نوعك لاستخدامها، أليس كذلك؟"

"أؤكد لك أني لست مُسَمِمًا." أجبته بعناد "كما أني لست قاتلًا أيضًا من أي نوع، هناك ــ" ترددت قليلًا، هل من الحكمة التحدث عن قضيتي مع شخص غريب تمامًا. سمعت عن الجواسيس الذين يتم زرعهم في السجون والزنازين. رجال يائسين، لتخفيف عقوبتهم وعلى استعداد للإبلاغ عن زملائهم لتحقيق هذه الغاية. مدركًا أن الفتى يحدق بي وأني أخذت الكثير من الوقت في التفكير في إجابة لذلك أعدت ما قلته من قبل "هناك سوء تفاهم" أجبته وأنا أعلم كم تبدو إجابتي غير كافية.

لكن يبدو أن الإجابة أقنعت هاردي الذي رد قائلًا: "أنا أيضًا، أسأت فهم أنه من الأفضل ألا تضيع نقودك في جُيُوب الشرطيين خارج الخدمة" ضحك ولدهشتي شاركته الضحك، "ألهذا أنت هنا؟"

"هذه المرة نعم، أصابني بعض الغرور، ولأصدقك القول، جون، كنت أجرب شيئًا ليس لعبتي حقًا، في طريقي للمنزل، رأيت هذا الرجل النبيل الذي تناول أكثر مما يستطيع تحمله من الشراب، متكئًا على الجدار مغمض العينين بينما يغني ويدندن، وهناك كتلة في معطفه الأمامي، قلت لنفسي فلتدع الأمر وحده يا بيرت، وكنت قد تناولت بعض الشراب بدوري، لكني لا أستمع للنصائح، ولا حتى من نفسي، لذلك تنحيت جانبًا، كما لو أني سأساعده وأدس يدي في معطفه. لم أدر إلا وأنا منبطح أرضًا وهو يقف فوقي ملوحًا ببطاقته مزمجرًا ومتحدثًا عن الصواب والخطأ.

وها أنا هنا، وصلت ليلة البارحة"

ابتسم مجددًا، على ما يبدو أن السجن والاعتقال ليسا إلا خطرا مهنيا غير سار لأمثاله.

"إذًا هذه ليست أول مرة لك في السجن؟"

"لست قريبًا حتى، تم القبض على ثلاث مرات، بعد أن أمعنت التفكير، أربع مرات، لكنني لم أقض الكثير من الوقت في السجن، أنا مخادع جدًا، جون، أخبر القاضي قصة حزينة، أظهر بملابس مقطوعة وقديمة قليلًا، أنقص سنه أو سنتين من عمري، وهكذا. أقصى مدة قضيتها في السجن كانت ست أسابيع.

هززت رأسي، لكن إيمانه بنفسه كان مريحًا بشكل غريب مما عزز من معنوياتي المترددة مرّة أخرى. إذا استطاع شابٌ مثل بيرت أن يواجه السجن بهذا الجَلَد، مؤكدًا أستطيع أنا أيضًا؟

"لكن هذه أول مرة لك، صحيح؟" أكمل وهو مازال مبتسمًا.

هززت رأسي مرة اخرى موافقًا "إنها بالفعل، سوء تفاهم كما ذكرت، سرعان ما سيتم إيضاحه"

تذكرت الأمل المتصاعد الذي شعرت به عند رحيل هولمز، وأخبرت نفسي أنه على الرغم من أنه يبدو أن كل ذي سلطة يفعل كل ما بوسعه لجعل وضعي الحالي أليما قدر استطاعته، فإن لدي ألمع عقل استقصائي في البلاد في صفي. سيكشف هولمز الحقيقة. أنا متأكد.

"هذا ما اعتقدته" أعلنها صديقي الجديد برضا العارفين "ابق على نفس نهجك، لا تخبر الحراس شيئًا فهذا أسرع

طريق إلى الموت في قبر من الجير، ابق رأسك عاليًا يا صديقي".

"سأبقى ما قلته في حلقة أذني بالتأكيد". حاولت قدر ما أمكنني أن أجد بعض الراحة على الفراش القاسي. الغرفة باردة والبلاط العاري يبدد الحرارة القليلة الموجودة. غطيت ساقي بغطاءٍ خفيف وسألت هاردي ماذا يمكن أن نتوقع من أحداث لبقية اليوم.

"حسنًا، هناك قداس بعد قليل، وهذا توقيت ممتاز إن كنت تريد توصيل رسالة لشخص تود التحدث معه" صمت لبرهة "ليس الكثير على كل حال. ليس قبل محاكمتك، لك ساعة من الترِيُض في الباحة لكنك فوت هذه بالفعل. من الأفضل أن تبقى هنا، وأن تبقي أمورك لنفسك"

بدت نصيحة سليمة. في الواقع أن هولمز أوصاني بنفس الشيء.

"أنوي فعل ذلك بالضبط، لكن في اللحظة الحالية لا يمكنني أن أتصور كيف سأقضي الوقت. هل متاح لنا بعض الكتب للقراءة؟"

"لا أعرف بشأن الكتب، لكن مسموح لك بجريدة أن كنت تملك ثمنها"

كان هذا شيئًا يدعو للصبر قليلًا، نحيت المعلومة لما بعد وجلست في صمت غريب لعدة دقائق بينما فترت محادثتنا حتى لم يعد هناك ما نتحدث عنه. جلس هاردي قبالتي ثانيًا ساقيه عكس بعضهما تحته ورافعًا حاجبًا في إشارة لاستمتاعه بعدم راحتي كما كان واضحًا أنه لا يبالي بانعدام أي قواسم مشتركة بيننا لنبني عليها محادثة واحدة

حتى.

خوفًا من أن أقضي باقي يومي في هذا الصمت المطبق، سألته أخيرًا عن ماهية حياته خارج السجن.

اندهشت من ردة فعله لما اعتقد أنه من آداب الحديث داخل السجن ولكنه بدا غير مبال بالمرة.

"لا اعلم أين أبي، فهو تركني لأمي وأنا رضيع، اعتادت أمي أن تقول إنه قُتِل في الحي الصيني، ولكني سمعت أنه كان على علاقة بساقية وانتقل معها لمكان ما في {هاي جيت}. لكن هذه المعلومة لم تحدث فرقًا بالنسبة لي، ليس حقًا. لكن أمي كانت تغزوها رغبة الانتقام من الرجل كل حين، لكن هذا لم يكن أحساسي، فأنا لم أعرف الرجل، صحيح؟"

كانت قصة مألوفة بطبيعة الحال، "إذًا ربتك أمك وحدها؟ لابد أن هذا كان صعبًا على هذه المرأة المسكينة."

"أظن ذلك، ليس أنها كانت فائدة كبيرة، لكن كان هناك بعض الجيران يتأكدون أن هناك طعامًا على طاولتنا طالما في إمكانهم، وإن لم يقدروا، حسنًا هناك دائمًا طريقة أو أخرى لكسب بعض المال"

"تعني بالسرقة؟"

"قليلًا من السرقة على ما أظن، لكنني نلت حصتي من نبش الوحل إلى أن بدأوا يطاردونني كما لو أنهم يملكون الطين نفسه، كنت أنا وبعض الرفاق أعضاء في عصابة لفترة قصيرة، كنا نحمي بعضنا البعض، لكن هذا أيضًا لم يدم، قبضت الشرطة على بعضهم، وقرر بعضهم أن يرحلوا شمالًا ليجربوا حظهم هناك، لذا عدت لأكون وحدي،

أليس كذلك؟ ربما كان هذا هو ما شَكَّلَ شخصيتي، فرصتي لأكون حرًا. هذا ما حدثتني به نفسي على كل حال. عدم وجود أصدقاء يعني لا يوجد أحد ليحمي ظهرك، ولن يساعدك أحد إذا تم القبض عليك"

هز رأسه رغم أن الإبتسامة لم تفارقه كما لو أنه وجد سوء حظه شيئًا مضحكا. وجدت نفسي أتعاطف مع ألبرت هاردي، طفل أدانته ظروف ميلاده أكثر من أي خطأ فطري في شخصيته، على مدار حديثنا عن لندن التي يعرفها من وجهة نظره لم أر به أي شر. أخبرته القليل عن نفسي، دون ذكر هولمز أو دوري في تحقيقاته.

عندما حل المساء وأطفأت الأنوار، غرقت الزنزانة في الظلام، كنت قد قررت أن أعمل ما بوسعي لمساعدة هذا الشاب فور خروجي.

شعرت بإيجابية مفاجئة منذ أن وجدت نفسي محاصرا في هذه الغرفة، ربما كان السبب إدراكي أن ها هو شخصٌ قد أستطيع مساعدته فور عودة عالمي إلى طبيعته، أو ربما كان الأمر ببساطة وجود شخص ودود معي.

شاركت هاردي بعضًا من هذه الأفكار وفي المقابل أشار لي في ظلمة الغرفة. "هاك بعض الشراب" قال هامسًا وهو يدس زجاجة في يدي. رفعت نفسي مستندًا على مرفقي، فتحت غطاء الزجاجة وشممت محتوياتها بحذر. غزت رائحة الكحول الخام حواسي.

تذكرني بالأيام الطويلة التي قضيتها في معامل الكلية خلال فترة التدريب الطبي.

"ربما يكون قويًا بعض الشيء" قال هاردي "لكنه

سيؤدي الغرض"

بالطبع لم يكن على أن أتفاجئ لوجود مشروبات كحولية داخل السجن، لكنني لم أدرك أنه منتشرٌ للحد الذي يجعله في متناول شخص مثل هاردي. لم يكن لدي أي نية لألوث جسمي بهذا الشراب، الله وحده يعلم مما صُنِع، لكن من الوقاحة رفض عرض حسن النية ولذلك رشفت القليل محاولاً عدم إظهار استيائي من الطعم وأعدت الزجاجة مرة أخرى لهاردي مصحوبةً بشكري.

"لا عليك" قال وهو يريح ظهره للوراء "عليك أن تعتني بأصدقائك داخل السجن، أليس كذلك؟"

كانوا ست وثلاثون ساعة طوال للغاية ومثيران للقلق، موت السيدة ماكلاكلان والليلة التي غفوتها في سكوتلاند يارد بدا كأن مر عليها عمر بأكمله. لم أدرك حجم مأزقي إلا بعد أن تمددت على الفراش في الضوء الخافت للزنزانة، نمرر فيما بيننا زجاجة الكحول، حتى إنني شعرت بحجم الأمر يسحقني.

بالطبع لدي ثقة عمياء في قدرات هولمز. لكن الدليل ضدي كان شاملا حتى وإن كان ظرفيًا بشكل أساسي، لكن المحقق بوتر لم يكن، على ما أعتقد، يميل إلى محاولة دحضها. بالإضافة إلى أن آمر السجن أصبح ضدي لسبب ما لا أعلمه، وليس هناك سبيل أن اعترض على مثل هذا السلوك.

على كُل، فإن لطف هاردي الغريب والدفء الذي بعثه مشروبه الكحولي غير الشرعي قد أمداني بقدر يسير من الأمل مما سمح لي بالنوم في النهاية.

الفصل السادس

خلال الأيام القليلة التالية، تعلمت الكثير عن إيقاع حياة السجن. نستيقظ في الصباح الباكر لتناول إفطار يتكون من شيء يشبه العصيدة وخبز قديم، من ثم نغتسل بماء بارد ونرتب فراشنا. بعد إنهاء هذه المهمات، لا يتبقى شيئًا لنفعله إلا الجلوس في زنازيننا وتسلية أنفسنا بما نستطيع إليه سبيلًا.

سرعان ما أدركت أنى أفضل ساعات الحبس الممتدة عن الأنشطة المنصوص عليها في قوانين السجن. كان هاردي اجتماعيًا جدًا، مع وفرة في قصصه عن حياته الإجرامية وعلى الرغم من أنه كان من المفترض أن أعترض عن بعض حكاياته إلا أنى لم أفعل. صوته المليء بالبهجة بطريقته الذكية جلب القليل من الأمل إلى محيطنا القاتم ورفع من معنوياتي والتي لولا ذلك لكانت انخفضت لا محالة على مدار يومنا الطويل الممل.

لكن كان هناك سببًا آخر لتفضيلي العُزلة نسبيًا. كما حذرني هولمز وأكد هاردي، سيكون من الأفضل والأسلم إذا استطعت إبقاء نفسي منفصلًا عن السجناء الآخرين. بالإضافة إلى العنف الذي ابتليت به مثل هذه المؤسسات هناك الاحتمال الواقعي جدًا في أن يجد أحد المجرمين الذين ينتظرون المحاكمة سببًا لتذكر اسم هولمز وواطسون.

على الرغم من كل هذا، كان هناك وقتان خلال اليوم لا يكون لدي اختيار إلا ترك أمان زنزانتي والاختلاط بزملائي المساجين. قداس الصباح الذي يقام يوميًا الساعة التاسعة والربع، والذي كان أقل إثارة للقلق بين الاثنين. كان يتم تجميعنا مثل القطيع في كنيسة أثارت أعجابي بحق، واسعة جدًا حتى تكاد تكفي جميع قاطني السجن، على الجانبين اصطفت المقاعد الخشبية الطويلة أمام مذبح القساوسة الذي وضع عليه نسخة ضخمة من الإنجيل وصف من المقاعد الأكثر فخامة للآمر وبعض الموظفين ذوي المستوى الرفيع من طاقم السجن. في الواقع كان جميع الحراس يحضرون القداس، أخبرني هاردي فيما بعد أنهم كانوا يدفعون شلنًا غرامة إن تخلفوا عن الحضور، جلسوا في نهاية كل صف على افتراض أن هذا يجعل مهمتهم في مراقبة المساجين أفضل، لكن الحقيقة أنهم كانوا سرعان ما يغفون أو يحدقون بهدوء في الأرض. حتى إن بعض الصلوات كانت تميل إلى انتقاد المساجين على إخفاقاتهم بدلًا من تذكير أولئك الذين سقطوا أن هناك إله لا ييأس منهم أبدًا. ومثل أغلب رفقائي السجناء سرعان ما فتر انتباهي وبدلًا من أن أبحث في ذاتي عن معنى الحياة وما سيحدث لروحي وجدت نفسي أشاهد عمليات تبادل لرسائل وبعض الرُزَم من يد ليد. أخيرًا أنهي القسيس الصلاة لنخرج ونعود من حيث أتينا ونعود لزنازيننا في صمت.

لكن دقات الساعة العاشرة كانت تأتي باستراحة أكثر خطورة في رتابة اليوم. صوت خطوات الحراس الثقيلة

على طول الممرات يتبعها صليل المفاتيح داخل الأقفال الصدئة وهم يفتحون أبواب الزنازين ليخرجونا إلى هذا المستطيل الذي كان يستخدم كباحة للسجن. كنا نُترَك هنا لمدة ساعة، على الرغم من أن هاردي أخبرني أنها قد تطول لأكثر من هذا بينما يبحث الحراس عن أي مُهَرِّبات. في أول أيامي في السجن تغيبت عن وقت التريض لسبب أو لآخر، لكن في النهاية كان على الحضور والمشاركة. بكل صدق وعلى الرغم من إحجامي عن الاختلاط، إلا أني لم أستطع أن أتقبل فكرة أن أقضي بعض الوقت في الهواء الطلق مهما كانت المساحة ضيقة أو عدم جاذبية الأشياء والأشخاص المحيطين بي.

تم بناء سجن هولواي على أساس مبدأ النظرة الشاملة، يتضمن ستة أجنحة مرتبين على شكل النصف الأعلى من عجلة عربة خشبية يُحيطون بقسم في المنتصف، وهو نقطة مراقبة تكشف كُلّيّة السجن مما يعطى الحراس الأفضلية من حيث زاوية المراقبة.

الجناحان الأولان كانا للنساء والمساجين اليافعين، أما بالنسبة للأربعة الباقين فخلال فترة إقامتي هناك كانوا يضمون نيف الأربعمائة سجين، أغلبيتهم ينتظرون محاكمتهم مثلي. وضعت في الجَناح «أ» وهو أول جَناح للرجال، يقع على الجانب الأيسر من المكاتب الإدارية، بالتالي كان يفصل بيني وبين الساحة مسافة قصيرة نزولًا للطابق السفلي مرورًا ببعض الأبنية الإدارية.

عملت بنصيحة هاردي أن أترك معطفي في الزنزانة

وأتخلص من رابطة العنق، كي لا أبدو في غير محلى بشكل واضح، لكن في مثل هذه الحال لم أكن بحاجة للقلق، لأني قد خرجت إلى الضوء الباهت من يوم غائم، مواجهًا كتلة بشرية من كافة الأحجام والأشكال، بعضهم كان يرتدي ملابس أفضل بكثير مما كنت أتخيل.

كان الفناء مساحة واسعة من الأرض المرصوفة تحيط بها وتتقاطع معها ممرات من الحصى، التي كان من المُفتَرَض أن يسير السُجناء على طولها في حركة مستمرة. في الواقع اجتمعت مجموعات من المعارف بين الممرات لتجاذب أطراف الحديث. اخترت وصديقي موقعًا مناسبًا يسهُل الوصول إليه عن طريق العودة إلى السجن وبينما كنت أتمنى أن يكون التدخين مسموحًا به في سجن هولواى كان هاردي يشير إلى مختلف الأنواع من المجرمين.

"أترى هذا الرجل في المعطف الفاخر والقبعة؟ هذا كريستوفر ستون، متهم بالنصب على رجل إسكتلندي من بين الآلاف، يُقال باع له منجم ذهب في أمريكا، ليتضح أنه لم يكن له ليبيعه، كان لينجو بفعلته لولا الطمع، فقد باعه لرجلٍ آخر، هذا الرجل الآخر كان يعرف الرجل الأول وبينما يتحدثان ذكر المنجم الذي اشتراه، أو هذا ما سمعته على أي حال"

هز كتفيه غير مكترث لافتًا انتباهي إلى مجموعة وضيعة من الشباب، نحيفين بمعاطف قذرة وقبعات مسطحة "وهذه المجموعة هناك هي كل ما تبقى من عصابة أولد نيكول. كانوا ضعف هذا العدد فيما مضى لكن أكثرهم

إما ابتعدوا عن العصابات أو هربوا قبل أن تقبض عليهم الشرطة"

هز رأسه بأسف وأكمل قائلًا "حشد بغيض بالفعل، ستسدى نفسك خدمة ببقائك بعيدًا عنهم، جون، خاصة عندما يرفعون قبعاتهم، لقد رأيتهم يقتلون رجلًا بالشفرات التي يخبئونها في حواف قبعاتهم"

لأكون صادقًا فأنا لم أكن أستمع إلى ثرثرة هاردي الحماسية. عوضًا عن ذلك، كنت أنظر إلى رجل طويل القامة عريض المنكبين يقف في منتصف الطريق عبر الفناء. كانت الساحة ممتلئة بالرجال، تدفق ساكني جناحين من المساجين إلى مساحة أصغر من ملعب رجبي، لكن وبشكل ما تمكن من إخلاء مساحة لنفسه التي لم يجرؤ أحد أن يطأها، سواءً كان حارس أم سجين. هذه العزلة هي ما جذبت عيني، من يكون يا تُرى؟

التفت لأسأل هاردي لكن قبل أن أتمكن من هذا أحسست بيد فولاذية تمسك بكتفي وتجذبني للخلف، ما كان خطًا مستقيمًا من السجناء أصبح كتلة صلبة يضيقون علينا الخناق دافعين بنا نحو الجدار، قاطعين علينا الطريق إلى داخل أمان السجن. شعرت بلكمة قوية ترتطم بجانب وجهي، تَلُف وجهي إلى الناحية الأخرى وتملأ فمي بطعم الدم. كنت قد مارست بعض الملاكمة في صِغري لكن ضغط هذا الكُتلة البشرية جعل من المستحيل أن أرفع قبضة يدي، لذلك هاجمت بقدمي، موجهًا ضربة لواحد منهم في ذقنه وتاركًا آخر على الأرض بضربة قوية في معدتِه. لمحت

هاردي بطرف عيني يختفي في بحر من الأجسام فدفعت نفسي إلى الأمام لأنقذه، مجاهدًا نحو الحرية لمدة ثوانٍ حتى شعرت بيدٍ حديدية تثبت ذراعيَّ إلى جانبي وقبضة أخرى وجهت إلى جانب وجهي جعلت رأسي يطن وتركت رؤيتي ضبابية. هززت رأسي محاولًا إعادة التركيز لأجد وجهًا غريبًا يسبح في مجال نظري، كان يردد بعض الشتائم التي فشلت في معرفة ما هي في هدير وغضب المشاجرة. حظيت بلحظة لأسجل رؤية فم مليء بأسنان سوداء وأنف مغطى بدماميل غاضبة قبل أن تُدفعني موجة من الضربات إلى الهبوط على رُكبَتَي. من فوقي أتى الرجل ذو الأسنان السوداء ساحبًا شيئًا لامعًا معدنيًا من جيبه، دنى مني ممسكًا بشعري وجاذبًا رأسي للخلف ليكشف حلقي. لم يكن هناك شيئًا آخر لأفعله، وعندما حاولت رفع نفسي مرة أخرى من على الأرض خذلتني ساقي، علمتُ أن الموت على بُعد عِدة ثوانٍ.

عند ذلك، وبنفس السرعة التي بدأ بها الشجار، انتهى كل شيء. بدأ الوقت يمر ببطء بالنسبة لحواسي المُخَدَرة. تراجع الرجل الذي يمسك برأسي بسلاسة، آخذًا معه خُصلة من شعري، واختفى من المشهد. بينما تلاشى رفاقه مختفين بين الحشد الذي بدأ يهرب مبتعدًا عن ركننا إلى الفناء. انقشع سمعي فجأة بينما صوت الصافرات والصراخ يعلن نفسه من حولي بينما تتبد الحشود مبتعدة، هرول الحراس في اتجاهي وهراواتهم تتأرجح بشكل عشوائي على أي سجين عابر. وسط هذه الجَلَبة كنت مدركًا لصوت واحد

فقط، كان الرجُل ذو المنكبين العريضين الذي رأيته قبل الهجوم مباشرةً يمد لي يده مرددًا كلماته بصوتٍ عالٍ بما يكفي ليسمعه جميع المحيطين بنا.

"هذا الرجل تحت حمايتي، إن تعرض له أحد عليه أن يواجهني"

أسندني على الحائط ثم، بنصف ابتسامة وإيماءة من رأسه التف وغاب داخل السجن عند وصول أول الحراس إلى موقعنا.

هُيأ لي أني سمعته يتمتم "دائمًا ما أفي بديوني، دكتور واطسون" لكن رأسي بدأ يدور مرة أخرى وأنا أنزلق من على الجدار، لم أكن متأكدًا من أي شيء سوى أني سأقابل هذا الرجل مرة أخرى.

عندما أفقت وجدتني مستلقٍ على فراش في مستشفى، ينسدل من حوله ستار من ثلاث جوانب بينما يشغل الجانب الأيمن من الفراش طاولة كانت هي قطعة الأثاث الوحيدة بخلاف الفراش بالطبع. كما هو متوقع عانيت من الألم وأنا أحاول الجلوس، جفلت من الألم الحاد الذي غزا صدري. ربما كنت أعاني من ضِلع مكسور، رفعت الجزء العلوي من ملابس النوم بحذر شديد ليظهر من تحتها الضمادة الملفوفة بإحكام حول الحجاب الحاجز والتي أشارت إلى إصابة من هذا القبيل. على الرغم أني كنت سعيدا لملاحظتي أن الضمادة كانت نظيفة وخالية من الدم مما يعني عدم وجود إصابة أسوأ إذن.

كان الانتقال من وضع الجلوس إلى الوقوف عملية

مؤلمة بحق، وعند التقاء قدمي بالأرض الباردة شعرت بوخز في ظهري وساقي مما يشير إلى المزيد من الإصابات التي أرجو أن تكون طفيفة. لم يكن هناك أثر لملابسي لكني لمحت طرف حذائي يطل من تحت الطاولة، ارتديتها على قدمي العارية قبل أن أزيح الستار لألقى نظرة على الغرفة التي وجدت نفسي فيها. الجناح ـ كان يبدو أن هذه هي وظيفته ـ كان مُضاءً بنور النهار الساطع المتدفق من النوافذ الكبيرة التي ليس عليها حواجز.

كان هناك ست أسرة في مواجهتي جميعها عدا واحد كان يلفها ستار مثل ذلك الذي كان يلف فراشي. الفراش الأخير غير المغلق بستار كان فارغًا، لكن بالنظر للخلف رأيت ترتيبًا مشابهًا على جانبي من الغرفة، باستثناء حقيقة أن ستائري فقط كانت مغلقة. على ما يبدو أن خمسة رجال آخرين كانوا يتمتعون حاليًا بالخدمة الطبية التي يقدمها الجناح. أملت أن يكون بيرت هاردي ـ الذي رأيته آخر مرة يحيطه مهاجمونا من كل جانب ـ بينهم. ليس هناك سوى طريقة واحدة لأكتشف بسرعة.

"هاردي" صرخت بأعلى صوت "بيرت هاردي، هل أنت هنا؟" لم تكن صرخة قوية لأني لم أرد أن يأتي أيٌ من العاملين ركضًا، لكن عالية بما يكفي ليتردد صداها بين جنبات الغرفة. ساد الصمت لبضع لحظات. ثم ومن دواعي سروري جاءني الصوت المألوف ذو النبرة الواثقة لزميل السجن ردًا على ندائي.

"جون؟ هل هذا أنت؟"

جاء الصوت من الفراش المقابل لي مباشرةً. قفزت

للأمام بأسرع ما أمكنني في حذائي غير المعقود وجذبت الستارة للخلف. جلس هاردي مدعومًا بوسادة مطوية لنصفين وذراعيه خلف رأسه. ظهرت الكدمات على وجهه أسفل عينه اليسرى وحتى ذقنه، بينما عينه اليمنى كانت مغلقة تمامًا بكدمة متورمة مصبوغة باللون البنفسجي لكن على خلاف ذلك لم يظهر بصحة أسوأ من المعتاد.

"أراهن أني أبدو بمظهر جيد" قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة. "أفضل من مظهرك على الأقل"

حتى هذه اللحظة لم أفكر أو آخذ بالاعتبار اللكمات التي وجهت لوجهي، لكن الآن مددت يدي أتحسس ذقني وجفلت من الألم الذي باغتني بلمسي لجزء متورم وأبعدت يدي بمجرد إدراكي أن العظام تحت الجزء المتورم تتحرك.

"من الأفضل ألا تلمسها" قال هاردي متعاطفًا مع ألمي "سألت الطبيب عنك عند وصولنا هنا، قال أننا بالكاد نجونا. لا أعاني سوى من بعض الكدمات، أما أنت فلديك كسر بضلع وآخر بالفك. بإمكاني أن أخبرك كم كنت سعيدًا بهذه الأخبار"

أعترف أني تأثرت أنه سأل عن أحوالي خاصة أن إصاباته كان نتيجة مباشرة لصداقته معي وبالتالي هو خطئي حتى وإن كان دون قصد.

أشار لي أن أجلس على طرف فراشه وهو ما فعلته ممتنًا ومتجاهلًا الآلام الحادة التي سببتها حركتي تلك. توقعت أننا لا نملك الكثير من الوقت لنتحدث سويًا قبل أن يأتي طبيب أو بالأحرى حارس ليعيدني إلى فراشي فور اكتشافه أني غادرته.

حدثته متسائلًا "ماذا حدث؟". لم أستطع تذكر شيئًا سوى نهاية العراك والسجين صاحب المنكبين العريضين الذي هب لمساعدتنا. "كيف وصلنا هنا؟"

"ضربة حظ أخرى،" أجاب هاردي "لو لم تكن صديقًا لماتي جالاواي أحسب أن الأمور كانت لتسوء أكثر بكثير"

"ماتي جالاواي؟"

"الرجل ضخم الجثة الذي دفع إيكي كولينز بعيدًا عنك وجعل رجاله يركضون مبتعدين" حدق في وجهي بعينه السليمة "أتقول إنك حتى لا تعرف من الذي أنقذنا؟ لا تعرف من هو ماتي جالاواي؟"

كان الاسم مألوفًا بشكل مزعج، لكن رأسي كان يلفه الألم والثقل، لم يستطع عقلي استدعاء أية تفاصيل. لمح هاردي نظرة الحيرة التي غلفت عيني وبدأ يهز رأسه مبتسمًا ويظهر عليه الاستمتاع بجهلي.

"ماتي جالاواي هو رئيس أكبر عصابة محتالين في المدينة! الرجل الأكثر خطورة في لندن مما سمعت. وتقول إنك لم تسمع بالرجل من قبل؟"

بدأ ضباب الألم ينقشع عن ذاكرتي بينما كان هاردي يتحدث وأدركت أنى أعرف شيئًا أو اثنين عن جالاواي. أي رجل متطلع على الجرائد سيكون قد سمع على الأقل بماتي جالاواي، وإن كان بدأ اسمه يُنْسَى، حسنًا هذا شيء لا يدعو للتذمر. استدعيت لذاكرتي التقارير التي قرأتها عن أفعاله. كان يُشتبه أنه أمر بقتل ما يزيد عن عشرة رجال، وقتل ما لا يقل عن خمسة بنفسه. لكن لم تم إيداع صيد ثمين مثله في مكان متواضع مثل سجن هولواي؟ ولم هب

لمساعدتي؟

شاركت هاردي بهذه الأسئلة متحدثًا في عُجالة بسبب الخطوات التي سمعتها تقترب من مكاننا.

"حسب ما سمعت فهو ينتظر محاكمته، يُقال إنه قد قُبِض عليه بالجرم المشهود، لكن هذا لن يحدث فرقًا ولو بمثقال ذرة"

"لكن هذا لا يفسر لماذا رجل مثله يساعدني- يساعدنا؟ أنا متأكد أني لم أقابله من قبل ولا يوجد مجرم في لندن يميل لأن يرفع إصبعًا لمساعدتي"

بمجرد أن أنهيت الجملة أدركت أنى قلت أكثر مما ينبغي. اختفت الابتسامة من ملامح هاردي وحلت مكانها ولأول مرة نظرة عابسة.

"ما الذي تعنيه بقولك هذا؟ انتظر لحظة! أنت لست محاميًا أليس كذلك؟"

ولأني لم أملك أية إجابات أخرى تمسكت باقتراح هاردي بحماس وقلت "شيئًا من هذا القبيل، لقد ساعدت الشرطة في بعض القضايا. دعنا نترك الأمر كما هو"

ملامح هاردي أعلنت عدم اقتناعه بهذه الإجابة، لكنه مضطر لتأجيل أي أسئلة تدور في باله، سمعت صوت الخطوات يتوقف، هببت واقفًا وأنا أتأوه بينما يدًا ما أزاحت الستائر كاشفة عن الحارس شابلي.

"ما الذي تخطط له يا واطسون؟ من قال إن من حقك التجول هكذا؟"

أمسك بي من ذراعي ودفعني بقوة باتجاه فراشي، غير مبالٍ بالأنين الذي لم أتمكن من كتمه بسبب اصطدام

كوعه بضلوعي المكسورة.

"هذه ليست واحدة من عياداتك المريحة في كينجسبيرد يا واطسون. والآن عد إلى فراشك قبل أن أخبر الطبيب أنك بخير وليس بك شيء يمنع عودتك لمحبسك" ابتسم بسرور من الفكرة كاشفًا عن أسنانه الكبيرة الصفراء. "وبمعرفتي بآمر السجن هذا ما قد يؤول له الموقف على أية حال، أنه لا يهتم على الإطلاق بالمساجين المثيرين للشغب، لو أني مكانك لأبقيت رأسي منحنيًا وأفعل بالضبط ما أؤمر به في القريب العاجل. بهذه الطريقة ربما يغض الطرف عنك، وربما لا".

وهكذا، دفعني على فراشي وانحنى ليجذب الحذاء من قدمي. وضعهم تحت ذراعه مبتسمًا ابتسامة واسعة أخيرة.

"سأحتفظ بهذه الآن، أليس كذلك؟ أعطهم للطبيب ليبقيهم تحت مراقبته في حالة ما كنت تتوهم في القيام بجولة أخرى"

تراجع للخلف وأغلق الستائر خلفه. عدت لوحدتي مرةً أخرى لكن الآن كان هناك العديد من الألغاز التي من شأنها أن تشغل عقلي. من هو إيكي كولينز، ولماذا حاول قتلي؟ ولماذا قام مجرم سيئ السمعة بإنقاذ حياتي؟ كم تمنيت وجود هولمز بجواري. أحتاج عبقريته العظيمة الآن أكثر من أي وقت مضى.

T t.me/tea_sugar

الفصل السابع

للأسف الشديد لم تطُل فترة إقامتي بالمستشفى. في غضون بضع ساعات عاد شابلي ومعه رجل يرتدي معطفا أبيض الذي افترضت أنه الطبيب، ولكن لأنه لم يوجه لي أي كلام لم أكن متأكدًا. أيًا كان من هو فقد بدا أنه اعتبر أن حالتي وهاردي تسمح بعودتنا إلى زنزانتنا. شعر شابلي بسرور كبير وهو يدفعنا للقيام من أسِرَتنا بابتسامة خبيثة لم تفارق وجهه وهو يثبت القيود بمعصمينا والحمد لله ليس لكواحلنا. بالتالي خرجنا مثقلين من مبنى المستشفى الذي كان يقف منفصلًا عن المبنى الرئيسي، وعبر طريق ملتوٍ شققنا طريق العودة إلى الزنزانة التي هي منزلنا. كنا قد فُوتنا ميعاد وجبة العشاء. تجاهل شابلي طلبي بإيجاد بعض الزاد لنا وحبسنا في الداخل ونحن مازلنا جائعين. رأيت وجهه في انعكاس الجزء الزجاجي من الباب للحظة ثم ذهب. تمتم هاردي ببعض الشتائم ثم انحنى إلى مخبئه تحت فراشه.

"لا أظن أنه معجب بك" قال هاردي.

"قد تكون محقًا" قلت له وأنا أضغط بيدي على ضلعي المكسور مبتسمًا له في ضعف. "لكنه ليس وحده في هذا الصدد"

"لا تهتم، خذ رشفة من هذا ستساعد"

قبلت عرضه بامتنان وأخذت رشفة طويلة من الشراب القوي. تخدرت مستقبلات التذوق بنجاح، فأصبح احتساؤها أسهل من المتوقع، توهج الكحول الدافئ كان كافيًا ليجعل الألم في صدري واحساس الجوع يبهتان. أعدت الزجاجة الممتلئة للنصف إلى هاردي واستلقيت على ظهري متفكرًا في الأحداث الأخيرة.

"قلت إن اسم الرجل الذي هاجمنا كولينز، صحيح؟"

"هذا هو، سمعت أنه ينتظر محاكمته بتهمة سرقة الساعات بجوار (وايتشابل)"

لم يكن اسمًا مألوفًا، أجهدت عقلي بقدر استطاعتي ولم أقدر على تذكر أي مناسبة تقاطعت بها طرقنا. كنت متأكدًا أني لن أنسى وجهًا مميزًا مثل وجهه، حتى أني لا أتذكر سماع اسمه. إذًا لماذا هاجمني؟

شاركت هاردي هذه الأفكار دون توقع إجابة، لكن مرة أخرى فاجأني الفتى.

"على الأرجح دُفِع له ليفعل" قال ووجهه تعلوه نظرة غريبة، كما لو أن جزءًا منه عابسًا والآخر متحيرًا باستمتاع، "ومع ذلك من سيدفع للتخلص منك يا جون؟ ما أنت سوى رجل بريء كنهار طويل ممل، لا تحمل ضغينة لأحد ولا أحد يحمل ضغينة ضدك؟"

ازدادت ابتسامته التي لا تفارقه اتساعًا بينما يتحدث. على أن أعترف أن هذا الأمر بدأ يثير حنقي. ما المضحك في الأمر؟! أيًا كان دافع السيد كولينز فمن الواضح أني سأكون في خطر في كل مرة أكون بخارج زنزانتي. لكن

هاردي لم يكن قد انتهى بعد.

"لكن من ناحية أخرى، الطبيب المشهور جون واطسون... حسنًا هذا رجل ربما يكون له عدو أو اثنان خلف القضبان، أليس كذلك؟ أراهن أنه وصديقه شيرلوك هولمز أسهما في وضع عدد لا بأس به من الرجال خلف جدران هذا السجن؟ وأعتقد أن بعضهم قد يكون على استعداد للدفع مقابل التخلص منه"

أخيرًا، لم يعد بإمكانه أن يحتوي نشوته أكثر من ذلك، فانطلقت منه ضحكة أعلى وأعمق مما كنت أعتقد أنه يمكن لشاب مثله أن يخرجها.

"لابد أنك تعتقد أننا جميعًا حمقى إن كنت تفكر في أنك تستطيع إخفاء هذه المعلومة لوقت طويل. عرفت بمجرد أن ذكرت إنك اعتدت العمل مع الشرطة. ألم أر صورتك في ذا ستراند كثيرًا؟"

"أتقرأ ذا ستراند؟" في ظروفٍ أخرى الشك الظاهر في صوتي كان ليكون مهينًا، لكن يبدو أن هاردي لم يشعر بالإهانة، على العكس فقد ضحك بصوت أعلى.

"أنت تظن أن غلام مثلي من الأزقة لا يستطيع القراءة، أليس كذلك؟ وحتى إن استطعت القراءة، كنت لأشتري قصصًا رخيصة وأترك الباقي لمن هم أفضل مني، أليس كذلك يا جون؟"

هززت رأسي وعدت وأومأت غير قادرًا على تحديد ماذا أقول، "لا، على الإطلاق"

في النهاية خاطرت وقلت له "على العكس فقد لاحظت

أنك متحدث لبق نظرًا لأنك..." ترددت للحظة لأني لم أرد أن أهين صديقي الوحيد في هذا المكان المظلم.

"غلام من الأزقة، كما قلت...: اختتم هاردي جملتي لي، لكني كنت مطمئن لرؤية أن الابتسامة لم تفارق وجهه المحطم.

"وأحسبني متحدثًا لبقًا، أو قادرًا أن أكون عندما أريد، وهذا جيد بنفس المقدار. ألم أخبرك أني انطلقت وحدي بعدما تركني جميع رفاقي سواء لأنهم سجنوا أو لأنهم رحلوا" ارتشف بعضًا من الشراب ثم أعطاه لي.

""أحد الجيران علمني القراءة وأنا طفل صغير، ولم يكن من الصعب تعلم كيف يتحدث من يشبهونك. كدت أن أتقن لعبة الثقة بالنفس تلك وأصبح مثل هذا المدعو ستون. ملابس أنيقة، وطعام وشراب أكثر مما تحتاج. كان هذا مُقدرًا لي، لكن" أكمل حديثه مستنتجًا بهزة لا مبالية من كتفيه "أظن وجودي خلف القضبان وضع نهاية لهذا، أليس كذلك؟"

سُررت لأني لم ألاحظ أي رثاء للنفس في صوت هاردي. والآن أكثر من أي وقت مضى صممت على فعل كل ما أستطيعه للفتى بمجرد أن تعود حياتي إلى طبيعتها. قلت له "لو أني مكانك لما ندمت كثيرًا على هذه الفرصة بالذات"

قال هاردي "ربما لا" يبدوا أن هذه المسألة ليست ذات أهمية حقيقية. "في كل الأحوال علينا أن نعرف من هنا يريد أن يرى الطبيب واطسون الشهير مقتولًا"

"من يدري؟ لا أظن أن هناك قائمة أسماء للمساجين في انتظارنا، لكني سأسأل هولمز" ـ انخفض صوتي كالهمس وأنا أذكر اسمه ـ "لأرى إن كان بمقدوره الحصول على واحدة. ولو أن الأمر كما ذكرت أنت، أنه تم دفع المال لكولينز للقيام بهذا الأمر، سيكون على أن أكون حذرًا في كل الأوقات والأماكن"

كانت الفكرة غير سارة، آثرت الصمت آخذًا في الاعتبار نعمة سهولة خروجي من هذا الموقف، ومدى ضآلة التقدير لشخصيتي الطيبة ومساعدتي للسلطات على مدى الأعوام السابقة.

قطع صوت هاردي ظلمة هذه الأفكار.

"أستطيع أن أسأل، أقوم بدورك وتقوم أنت بدور شيرلوك هولمز."

كان عرضه صادقًا، وأرفق مقارنته بابتسامة. لكنى كنت أعلم أني لا أستطيع قبول مثل هذا العرض. وجود شخص يخطط لأن يؤذيني أمر سيئ، والأسوأ هو تعريض هاردي أن يكون هدفًا بدوره. أخبرت الفتى بما أفكر فيه وقد تقبل رفضي بشكل جيد، تبرم قليلًا قبل أن يوافق أن يتبع خطاي في هذا الأمر.

"ببعض الحظ ومساعدة هولمز، أرجو أن أُحرر من هذا المكان في غضون أيام" طمأنته مجددًا "في الوقت الحالي سألتزم بهذه الزنزانة قدر استطاعتي والتأكد من أنى في مرمى بصر حارس في جميع الأوقات عندما أكون بالخارج"

تقبل الأمر رغم أني أستطيع أن أجزم. إنه غير سعيد به.

كان الليل يقترب وأصبح من الصعب أن أتحقق من أبعاد شكل زميلي، وهو لا يبعد عني سوى ستة أقدام. وهكذا بينما أجفل من الآلام المختلفة في كل أجزاء جسمي، استلقيت منتظرًا مجيء النوم.

الفصل الثامن

كانت لوائح السجن واضحة وهي أنهم سمحوا لي أن أتحدث بمثل هذه الثقة للابتعاد عن المشاكل. احتجز المساجين في زنازينهم إلا في الأوقات التي كانوا يمارسون فيها نشاطا رسميًا من أنشطة السجن، والذي كان يعني إما التواجد في منطقة التريض أو الكنيسة أو استقبال زائر. في كل مناسبة من تلك يقوم حارس باصطحاب المسجون للنشاط المعنى وأن يعيده مرةً أخرى. ألمح هاردي أنه لابد من وجود ثغرات في هذه القيود، لكنى لم أكن أنوي اختبار حدود حريتي أو انعدامها، لذا فقد أذعنت لقضاء الجزء الأكبر من يومي محبوسًا في نفس الغرفة الصغيرة.

تفاجأت قليلًا عندما فُتِح باب زنزانتنا في الصباح التالي، لكني افترضت أنه سيتم أخذي لمقابلة آمر السجن أو شيئًا من هذا القبيل. نظرت لأعلى بينما الباب يترنح ولكن بدلًا من الحارس المتوقع وقف هناك رجلان في الزي الرسمي للسجن. أصدر هاردي صرخة مكتومة ووقف على قدميه ممسكا بالزجاجة الفارغة من الليلة السابقة مثل الهُراوة. ولكن قبل حتى أن يرفعها غاضبًا، واحدًا من الرجلين ـ طويل القامة بدين بعض الشيء يلف رقبته وشمًا لتنين وصولًا لمؤخرة رأسه ـ أخذ خطوًة للداخل واختطفها من قبضته.

وقف بجوار الفتى بينما يدخل زميله ويتبعه ماتي جالاواي الذي لا تخطئه عين.

التف جالاواي وأحكم إغلاق الباب.

ابتسم لي ابتسامة جامدة وأشار لي برأسه أن أقف على قدمي. الحارسان الصامتان نفذا تعليماته بتؤدة ولكن بفاعلية، قاما بلَي ذراعي الاثنين خلفي وهما يرفعانني.

"نهارك سعيد دكتور واطسون" قال جالاواي. كان صوته هادئًا يكاد يكون متحفظًا كما لو أنه يتحدث داخل كنيسة أو مكتبة، لكن لم يكن به شيئًا مخيفًا. كان واثقًا بنفسه ثقة القائد الآمن في مكانٍ من اختياره وتحت سيطرته، بدون غطرسة لكن أيضًا بدون تواضع لا داع له. هذا السجن كان مملكته، وكنت أنا الدخيل. في هذهِ اللحظة عَرفت مدى الخطر الذي أنا فيه أكثر من أي وقت منذ بدء سَريان هذه الأحداث الكابوسية.

"صباح الخير..." رددت عليه، وبعد هنيهة "سيد جالاواي؟

"تقولها كأنها سؤال، دكتور واطسون، هل تريدني أن أصدق أنك لا تعرف من أكون؟ هل أسأت تقدير مدى شهرتي لأظن أن اسمي سيكون معروفًا على الأقل داخل جدران هذه المؤسسة؟"

انحني للأمام حتى أصبح وجهه على بعد بضع إنشات من وجهي. "هل توهمي كبير جد أيها الطبيب؟" تساءل وأنفاسه الساخنة تلامس وجهي.

لا أستطيع التفكير بأي شيء على الإطلاق لأقوله بينما

ينمو الصمت من حولنا ليصبح غير مريح أكثر وأكثر. شددت عضلات ذراعي ولوحته للخلف مثلما تعلمت مصممًا على إعطاء نفسي بعض الأفضلية على الأقل، عندما انفجر جالاواي ضاحكًا مبددًا التوتر المُحيط بنا.

اعتدل في وقفته وهو يهز رأسه مرة أخرى للرجلين الممسكين بي. شعرت بارتخاء قبضتيهما على ذراعي. هدأت قليلًا ولكني بقيت متيقظًا.

"أنت جريء، سأعترف لك بذلك" قال جالاواي باسمًا، شعرت بدفء حقيقي في كلامه حاز إعجابي. "كنت تنوي ألا تسقط دون قتال. ها؟ فلتسأل أي شخص هنا، يعجبني هذا في الرجل. أفضل الجرأة والشجاعة عن الذكاء في وجه قضاء معين في أي يوم. تعرف مكانك دائمًا وأنت تتعامل مع رجل شجاع"

أخرج علبة فضية مخصصة للفافات التبغ من جيب معطفه. أشعل لفافتين وأعطاني واحدًة منهم، مشيرًا إلى الحارسين الممسكين بي، أنهما ربما من الأفضل أن يتركا ذراعيّ كليًا.

"خذ مقعدًا دكتور واطسون. علينا التحدث سويًا أنت وأنا. الأمر وما فيه، يبدو أن على أن أشكرك لسبب ما، وبسبب ذلك وفي المقابل سيتعين علي أن أوضح لك بعض الأمور، أمورًا قد تساعدك للنجاة من هذا المكان"

للغرابة، فهو يذكرني بهولمز وهو في موقع الجريمة، عاكفًا فقط على المسألة المطروحة، وبنفس الوقت مدركا لكل ما يحيط به ـ كل نسمة هواء، كل شيء تم نبذة، كل

كائن حي- والتي قد تثبت، في هذا المكان، أهميتها. ربما لم يكن الرجلان اللذان أمسكا بي هناك على الإطلاق. في هذه اللحظة لم يكن هناك سوى أنا وماتي جالاواي.

"إن المشكلة التي تواجهك الآن هي أنك لا تعلم شيئًا عن المجرمين وطبائعهم. لقد تتبعت كل القضايا التي توليتها، كما ترى، فقد قرأت كل أعداد "ذا ستراند" كل تقرير نُشِرَ في الصُحُف، حتى إن فتياني كانوا يتقصون مني التفاصيل الشيقة التي لا تُنشَر أبدًا. ويبدو أنك والسيد هولمز لا تعترفان إلا بنوعين فقط من المجرمين، نوعين اثنين فقط. أولًا، لديك قاطع الطريق غليظ الذهن، الشهواني، آتٍ مباشرة من الأزقة المظلمة والأحياء الفقيرة، هراوة في يدٍ وسكين في أخرى. لا يملك أي ذكاء، ليس لديه سوى قوته الجسدية، في أغلب الأحيان الرجال مثلك لا يهتمون بهم، لكنك تدرك وجودهم. هذا يصنف لك اللصوص، منهم من يستهدف السُكارى، ومنهم المتنصتون، ومنهم الكسالى. النوع الثاني هو الذي يثير اهتمامك. السادة والرجال المحترمون، أو هكذا يبدون من وجهة نظري. المتعلمون، ذوو المنازل الجميلة والأخلاق الجيدة، لكنهم يفتقدون شيئًا بداخلهم، ذلك الشيء الذي يمنع الآخرين من أن يصبحوا سيئين.

هؤلاء هم المبتزون الذين يثيرون اهتمامك، دكتور واطسون، المحتالون الواثقون من أنفسهم، من النوع الذي يتغذى عليه السيد هولمز صباحًا على الإفطار، ومرة أخرى مع شاي الظهيرة.

حاولت التدخل لأسأله إلى أين يرمي بكل هذا الحديث لكنه رفع يده، وقام مرافقوه بإحكام قبضتهم المؤلمة على ذراعي مرة أخرى.

"دعني أنهي كلامي، دكتور، إن لم يكن لديك مانع. سيكون لديك الفرصة لتسأل. في الواقع، أرجو أن تفعل، لأنه كما قلت، أنا أشعر أني مدين لك، وأود أن أعطيك جميع المعلومات التي تحتاجها" أخذ نفسًا عميقًا من لفافته، ثم نقرها إلى زاوية مظلمة. "مع ذلك، لا تسئ فهمي. كل ما أقوله إنك لا تعترف إلا بوجود نوعين فقط من المجرمين لكن هناك أكثر... أنا متأكد من أن النفوس الوحيدة هناك، لابد أنها قد عبرت طريقك. ليس هؤلاء من أتحدث عنهم، لأن كل منهم يجب أن يحكم عليهم عبر مواهبهم الخاصة، كما أنه لا يوجد أحد منهم هنا، ولا يحتمل أن يكونوا. الرجال مثلهم لا يسمحوا لأنفسهم أن يسجنوا" قال متنهدًا، وبدا كما لو أنه انغمس متأملًا لفترة. ثم أكمل قائلًا "لا،إن ما يجب أن تعرفه، ما يجب أن تدركه، هو مستوى ونوع أخر من المجرمين، النوع المرجح أن تقابله في هذا المكان، في الواقع أن تقابل أحدهم في هذه اللحظة بالذات. وفيما يخص هذا الموضوع، فقد تقاطعت طرقنا قبلًا، رغم أنك لم تعرف. أنا من ذلك النوع يا دكتور واطسون. فبالنسبة لي، الجريمة ليست عرضًا بلطجيًا للقوة، ولا هي مسألة قسوة وخداع. بالنسبة لي فإن الجريمة هي مهنة. لا يوجد غضب فيما أفعله، فقط الرغبة أن أفعل الأفضل لي ولهؤلاء الذين يعملون لحسابي. لو لابد من

التصنيف، فلتفكر في كأني صاحب حانوت"

مرةً أخرى، ابتسم وغرق في الصمت، تذكرت ما أمرني به هولمز، وبذلت قصارى جهدي لسبر أغوار هذا الرجل. ملابسه بالطبع لم تخبرني عنه شيئًا، لأنه كان يرتدي زيًا مماثلًا لنا جميعًا. كان هناك علبة اللفافات الفضية، التي جادلت لميزة تفاضلية بوجود ثروة ما، لكني كنت أعرف أن هولمز كان يتوقع مني ما هو أكثر من ذلك، فوجدت نفسي أفكر في كيف تدبر من الاحتفاظ بغرض قيم مثله في مكان كهذا. بحسب البحث الذي قمت به إبان وصولي هنا، فإنه من المستحيل تهريب حتى لو دبوس شعر لداخل السجن. كما أن لفافة التبغ التي أعطاها لي كانت تركية من النوع الممتاز، لكن مجددًا هذا لا يدل سوى على أنه صاحب ثروة، وهو أمر لا شك فيه بحسب هاردي. ما الذي يمكنني أن أخبر هولمز به غير هذا؟

لم يكن لدي المزيد من الوقت لرسم استنتاجاتي لأن جالاواي بدأ يتحدث مجددًا. "ربما تتساءل لماذا أخبرك بكل هذا، دكتور واطسون، إنما لأوضح لك سبب تعرفي عليك في الفناء في المرة السابقة. لقد أديت دورًا" مرة أخرى تجاهل اعتراضي بلا اهتمام. "الآن، الآن، أنت لا تحتاج أن تقول شيئًا. بالطبع أنت لم تفعل شيئًا من هذا.

أنت رجُل بريء، لم ترتكب أي جريمة، مثل الكثير من الأرواح البريئة في هذا المكان. لكن مع هذا فإن الاعتقاد الأكبر للجميع أنك فعلت- كيف أصيغ الأمر لك، أنت أسديت لي خدمة. ولأني رجل أعمال، أعرف أن العمل

الجيد يستحق أن يكافأ، ويكافأ في العلن، ليرى الجميع ما يعود على الفرد من العمل الجيد. لذا فلتعتبر هذه المصافحة هي مكافأتك. هناك أكثر من نوع من المجرمين هنا والذين يضمرون لك سوء النية، دكتور، وربما إذا تُركت بدون رقابة يتعرضون لك بالأذى. الآن يعرفون أنك تحت حمايتي وأن الإضرار بك سيكون بمثابة الإضرار بي.

"وستكون مجازفة حمقاء أن يعترضوا طريقي، مجازفة حمقاء بالفعل"

وهكذا دار نصف دائرة على كاحله وخرج من الزنزانة. البلطجية الإثنين اللذين قيداني أطلقا قبضتهما وتبعاه بعد هنيهة، وتركاني في حالة متدهورة وقشعريرة باردة تستقر أسفل ظهري. سمعت صوت هاردي آتٍ من بعيد على الرغم منه. إنه كان بعيدًا نسبيًا ليتبين كلامً جالاواي. انصب كل انتباهي على حقيقة واحدة غير سارة.

لم أستطع أن أحدد ما إذا كان ما حدث للتو يضعني في خطر أكبر أو العكس، لكن شيئًا واحدًا كان واضحًا جدًا. بوضع نفسي تحت حماية جالاواي، حتى وإن لم يكن طوعًا، فقد تحالفت مع مجرم مشهور أمام الجميع. لم أقدر على تبين كيف يعد هذا تطورًا مرحبًا به.

بينما أصر هاردي أن زيارة جالاواي كانت شيئًا إيجابيًا.

"الأمر بديهي إن سألتني" انطلق قائلًا بعد أن انقضى تأثير المعاملة الخشنة التي تعرضنا لها. "رجل مثل جالاواي، لا يهتم أن يكون مدينًا لأحد، لذا يسدد لك هذا الدين بالحماية ويتأكد من أن الجميع يعرفون ذلك. أقول لك يا

جون، الأمر ليس أكثر من حفاظه على توازن الأمور"

"أتعني حفاظه على موازنة الحسابات" قاطعته معترضًا وأنا أتذكر جالاواي وهو يصف نفسه بصاحب حانوت.

"شيء من هذا القبيل" وافقني هاردي "لا أحب أن أكون مدينًا لأحد في مثل مجال عمله"

كان على الأقل تفسيرًا محتملًا لجالاواي وإلا فإن هذه الصداقة التي لا يمكن تفسيرها ـ كما هي ـ لكني لم أستطع التخلص من الشعور الخافت بأن الأحداث الأخيرة كانت تنطوي على أكثر مما تراه العين. لا يجب أن أنسى أن جالاواي رئيس عصابة، وسيستفيد من تقليص تحقيقات الميجور ماكلاكلان مثله مثل أي رجل. بدا الأمر بعيد المنال، لكن هل يمكن أن يكون مسؤولًا عن مقتل السيدة ماكلاكلان، ولم تكن حمايته لي سوى خدعة إلى إلقاء المزيد من الشكوك حولي؟ كان من المقرر أن يزورني هولمز لاحقًا اليوم، وسأشاركه أفكاري في إمكانية حدوث ذلك.

في الوقت الحالي، استمر اليوم على رتابته المألوفة، على الرغم من أني قد أعفيت من التمرينات اليومية على ضوء شجار الصباح السابق.

بينما رفض هاردي البقاء بالداخل، وعاد بعد انتهاء الساعة مع أخبار جديدة.

"أنت حديث الساعة اليوم في الفناء، لا يتحدث أحد سوى عن مواجهتك مع إيكي كولينز وماتي جالاواي. كولينز محجوز في زنزانة العقاب بالطبع، ولن يخرج قبل

يوم أو اثنين، لكني تدبرت أن أقترب قليلًا من بعض رجال جالاواي لأستمع لحديثهم"

أبديت اعتراضي على تلك المخاطرة، وذكرته بوعده لي الليلة السابقة، لكنه ألقى باعتراضي وقلقي عرض الحائط ملوحًا وهو يلقي بنفسه على فراشه.

"فلتهدأ يا جون! فقط كنت جالسًا بالجوار أستمتع بالهواء المنعش، أليس كذلك؟ لا يوجد سبب يستدعي أن ينتبه إلي أحد. بالإضافة إلى أنك سَتُسر بما سمعتهم يقولونه عنك"

على الرغم من موقفي، على الاعتراف أنه أصاب في تلك النقطة، كلما عرفنا معلومات أكثر، على الأرجح سنكون قادرين على تمييز الدافع وراء سخاء جالاواي غير المتوقع. ربما لن يكون لها علاقة بقضيتي، ولكن حتى وإن لم ترتبط بها بشكل مباشر، فإن اللغز الذي يدور حول ماثيو جالاواي يستحق وضعه بعين الاعتبار. هكذا وعلى مضض، استقررت أن أتراجع وأستمع لوصف هاردي لما حدث في الفناء.

"كان هناك ثلاثة، اثنان منهم لا أعرفهما، والآخر ذاك الذي لا يفارق جانب جالاواي. لا أعرف اسمه، لكنه كان هنا قبل جالاواي، ذاك الذي لديه وشم التنين على رقبته. كان أكثرهم كلامًا أيضًا، كان يقول لهم *سنكتشف قريبًا جدًا* عندما استطعت أن أقترب منهم بما يتيح لي أن أسمعهم. *أنت تعرف أن جالاواي لديه أسبابه دائمًا*

كان يقول والآخرين يهزون رؤوسهم موافقة على الرغم

من أنهم لم يبدوا مقتنعين. *لقد دعا إلى اجتماع* قال صاحب وشم التنين، *في المكان المعتاد، يقول إن لديه خبرًا لنا جميعًا* واحد من الآخرين انطلق متسائلًا عما إذا كان الأمر عن الطبيب ـ يعنيك أنت ـ أم عن الخنازير الأخرى، لكن صاحب وشم التنين قال له من أين له أن يعلم، فهو ليس حافظ أسرار جالاواي، تذمروا قليلًا ثم قاموا مبتعدين. رماني صاحب وشم التنين بنظرة، لكنه لم يقل شيئًا، لذا افترضت أنه ليس من النوع الاجتماعي"

كنت أشك في ذلك، لكن لم يكن أحد لينكر أن الفتى قد كشف عن معلومات مهمة. من الواضح أن استراقه للسمع على لقاءاتهم المستقبلية يرمي في مصلحتي، على الرغم من أني غير متأكد كيف سنتمكن من فعلها كل مرة. "كانت هوية الرجل الآخر معضلة جديدة تضاف إلى الصعوبات التي شعرت أنها تتقاطع بشكل أكبر مع بعضها البعض. استجوبت هاردي عن المكان المحتمل لاجتماع جالاواي، لكنه لم يكن يعرف على وجه اليقين ومعلوماته كانت أقل من التخمين.

"من المؤكد أن جالاواي يسيطر على بضعة حراس. فهو يذهب ويجيء وقتما شاء، ورجاله أيضًا، لذاك قد يكون اجتماعهم في أي مكان. يجب أن يكون التوقيت خلال وقت التريض أو الصلاة بالكنيسة، فحتى لو أنه اشترى الحراس، فهم لن يتجاهلوا غياب ما يقرب من اثنى عشر رجلًا من زنازينهم"

"بالكاد يستطيعون إخفاء اجتماع سري بالكنيسة،"

علقت قائلًا، ثم بعد لحظة تفكير أضفت قائلًا "لكن أحدًا لن يشك في مجموعة من الأصدقاء يتحدثون سويًا في الفناء، أليس كذلك؟"

وافقني هاردي، لكن على مضض، واستطعت أن أرى أنه يظن بنظريتي الظنون. كنت على وشك أن أستجوبه أكثر لولا أن انفتح باب الزنزانة وأعلن شابلي مزمجرًا أن لدي زائر. فكرت لوهلة، ربما هذا فخ، ومن الممكن أن يكون شابلي من الحراس الذين يقدم لهم جالاواي الرشوة، من ثم أدركت أنه في الأغلب لا يحتاج الذهاب لهذا الحد. فقد أثبت مرارًا وتكرارًا أنه يستطيع الدخول لزنزانتي دون أن يخشى لفعله عاقبة.

وهكذا، أجبرت نفسي أن أقف متحاملًا على الألم الذي يعتصر أضلعي، وتبعت شابلي لنهاية الممر.

الفصل التاسع

في كتاباتي من حين لآخر كنت مذنبًا بتصوير شيرلوك هولمز على أنه رجل بلا مشاعر ذو أعصاب باردة يهتم بالتحدي الذهني للقضية أكثر من هؤلاء المتأثرين بها. لم يكن هذا الوصف واضحا أكثر من اليوم عندما وجدت نفسي جالسًا أمامه مرةً أخرى في الغرفة المخصصة للزيارات. يا لراحتي، لم يكن المحقق بوتر حاضرًا، بدلًا منه كان يرافق ليستراد صديقي، كان وجهه يتلوى من القلق بينما أشق طريقي عبر الغرفة.

"رأيتك في حالات أفضل، دكتور" قالها كنوع من الترحيب.

"لقد شعرت بما هو أحسن بالتأكيد، محقق ليستراد" قلت له.

آثر هولمز الصمت، شابكًا يديه أمامه فوق الطاولة، عيناه تبدوان ثقيلتين غائمتين، تحدقان في تعرجات الخشب كما لو أنها أساءت له بطريقة ما. ودون أن يرفع عينيه، تحدث بهدوء قوى وحماسة لم أسمعهما في صوته من قبل.

"سيتم إطلاق سراحك بأسرع ما يمكن يا واطسون، أعدك بهذا"

رفع عينيه سريعًا بنظرة لا يمكن وصفها إلا مليئة بالذنب

الذي يكسو وجهه، ثم ثبت نظره مرة أخرى على الطاولة. عرفت ما الذي يقلقه، لذا سارعت لطمأنته.

"ما حدث ليس ذنبك، هولمز. لم يكن هناك ما تستطيع فعله لمنع ذلك، كما لا يمكن لأحد أن يلومك على عدم تقدمك بالنظر إلى مدى قصر الوقت الذي مر" ابتسمت له بقدر ما استطعت في مسعاي لتخفيف حدة الأجواء. "بالإضافة إلى أني تلقيت إصاباتٍ أسوأ من لعب الرجبي"[1]

ومع ذلك، هولمز لم يكن ليهدأ له بال. "ربما فعلت، واطسون، لكن هذا بالكاد متصل بالموضوع، كان علي أن أبذل جهدًا أكبر لإطلاق سراحك قبل الآن، لكنى اتخذت قرارًا بتتبع بعض التحقيقات الواعدة بدلاً من ذلك. والآن أنت تدفع ثمن سوء تقديري ألمًا!"

"لكن سيتم إطلاق سراحي؟" في سعيي لأطمئن هولمز، كدت أن أترك أهم كلماته تمر بي مرور الكرام. "هذا سبب إضافي ألا نعير أهمية للأحداث الأخيرة من الماضي غير المأسوف عليه! هيا يا هولمز! كفى كآبة وأخبرني كيف استطعت أن تُأمِن لي حريتي؟"

قام ليستراد بملأ فراغ الصمت القصير الذي أتبع سحبه لورقه مطوية من جيب معطفه ووضعها على الطاولة أمامه. صاح الحارس باسمي محذرًا بينما مددت يدي لآخذ الورقة، لذلك شرح المفتش ما تحتويه.

١- الرجبي هي رياضة جماعية منتشرة جدًا في العالم خاصة فرنسا ودول الجزر البريطانية وهي تشبه كرة القدم الأمريكية إلى حد كبير.

"أخشى أنك لا تزال في خطر، دكتور واطسون، لكن السيد هولمز هنا لديه أصدقاء في مناصب عليا. وصلت لنا هذه الورقة صباحًا، مباشرة من مكتب رئيس الوزراء، يأمر بأنه في ضوء الاعتداء الذي تعرضت له بالأمس، ونظرًا للخدمات التي قدمتها للتاج الملكي فيما مضى، يجب أن يطلق سراحك فورًا ووضعك في عهدة شيرلوك هولمز والسماح لك بمساعدته في تحقيقاته في جريمة القتل. لا يوجد أي اقتراح بإسقاط التهم الموجهة إليك، أو أننا ـ أي المفتش بوتر وفريقه ـ لديهم أي مشتبه به جديد في الاعتبار. طلب مني السيد هولمز أن أنظر في أمر الفتاة التي قادتك إلى الفخ، لكن ليس هناك أي معلومة تشير إليها، وقد رفض المحقق بوتر أن ينظر في الأمر على أنها فتاة من الشارع دُفِع لها شلنًا لتستدرجك للداخل، هذا إن كانت موجودة على الإطلاق، وهو أمر أوضح أنه يشك به من الأساس. أخشى أنه سيتم إطلاق سراحك بترخيص فقط، وسيظل عليك أن تواجه المُحاكمة في الموعد المنتظر".

كان الأمر أقل مما أملت، لكن أكثر مما توقعت. سأكون تحت مظلة الشبهات للوقت الحالي، لكن على الأقل سأتحرر من هولواي وأستطيع مساعدة هولمز في كشف هوية القاتل الحقيقي.

"أشكرك أيها المحقق" قلت "لن أنسى الإيمان الذي أبديته في وفي براءتي، كما لن أنسى المساعدات التي قدمتها".

سعل ليستراد محرجًا وهو يومئ برأسه بغرابة في اعتراف

بالجميل تجاهي، عامةً. "لا يوجد ما تشكرني عليه، دكتور" قال متمتمًا. "السيد هولمز هو من لديه علاقات مع هؤلاء ذوي المناصب العليا في الدولة، ليس أنا. سأتولى القيام بملأ الأوراق الرسمية"

"على الإطلاق، ليستراد" قلت معترضًا. "لكن ربما يمكنك أن تسدي إلى خدمة أخرى؟"

وصفت في عجالة زيارة جالاواي لزنزانتي. جلس هولمز ساكنًا بينما أتحدث، عكس ليستراد الذي أطلق همهمة مميزة عند ذكري اسم جالاواي، وأخرى عندما أوضحت أني الآن تحت حمايته.

"ماثيو جالاواي ليس الرجل الذي تريد أن يعرف عنك أنك تتبعه دكتور واطسون" قال محذرًا. سأرى ما المعلومات التي سأتمكن من نبشها فيما يتعلق بآخر نشاطاته، لكن الأفضل أن تتجنبه إن استطعت. البعض يلقبونه *أمير الظلام* وليس على سبيل المجاملة." أضاف وهو يقف على قدميه، "سأبدأ في هذا الأمر الآن، فلتأذنوا لي أيها السادة.."

بعد أن غادرنا ليستراد، جلسنا ندخن لفافات التبغ في صمت، كل منا واحدة. أظن أن هولمز أدرك كم أنا بحاجة إلى لحظات من الرفقة الصامتة قبل أن نبدأ في مناقشة مشكلتي الأكبر. فور أن أنهيت لفافتي بدأ في الحديث عن الاعتداء الذي تعرضت له وبطلي غير المتوقع.

"أنت على حق يا واطسون، إن جالاواي رجل ذو دهاء وطرق خفية حتى داخل أسوار السجن. علبة السجائر

الفضية، لفافات التبغ التركية، كلها نقاط تشي برجل يعرف كيف يتلاعب بالنظام ويطوعه لإرادته. هناك ثلاث طرق أعرف بهما يستطيع عن طريقها أن يهرب سجين أغراضا ذات طبيعة باهظة الثمن هكذا. التهريب عن طريق زائر ما هي أكثرهم وضوحًا، لكننا نستطيع أن نستبعد هذا فورًا، على الأقل في صورته المتعارف عليها. حتى أصغر الأغراض، مجرد أن يتم تهريبها يجب أن تبقى مخبأة وإلا صادرتها الإدارة. لكنك تقول إن جالاواي جريء ولا يبذل مجهودًا لإخفاء مهرباته. في الواقع إن إلقاءه لنصف لفافة تبغ بالكاد أنهاها يجعلنا نستنتج أنه لا يقلق من نفاذ مخزونه. إن تحدثنا بالقانون فإن لفافات التبغ ممنوعة تمامًا هنا، لكنه لا يبدى أي قلق من تنفيذ هذا القانون عليه. إذن... فهو يدعو نفسه صاحب حانوت، لكن في ظني أن تعبير تاجر جملة مناسبًا أكثر. مُستَورِد ومُصَدِر، وعلى الأقل وارداته ليست سرية. في الواقع هو بنفس جودة بضاعته، مما يشير إلى اللجوء إلى إحدى طريقين، الرشوة أو التهديد... أو كلاهما"

تراجع صوت هولمز بينما يغرق في حلم من أحلام اليقظة. رأيت البريق يغادر عينيه بينما ينغلق عقله على نفسه، آخذًا جالاواي بعين الاعتبار. أشعلت لفافة تبغ أخرى من تلك التي وضعها على الطاولة بيننا وانتظرت، قانعً قدر استطاعتي في هذا المكان الخبيث.

"أظن أن علينا أن نكتشف مدى تأثيره. ربما لا يكون متورطًا بشكل مباشر في قضيتك، لكنه يبقى أكبر مستفيد

من الجريمة التي أنت متهمٌ بها. عندما قام باختيار أن يعترف بك، فقد وضعك في أمان على المدى القصير، لكنه يعرضك للخطر على المدى الطويل. من الواضح أن شنقك يخدم مصالحه، حتى إذا كان يُرى أنه يريحك في كل خطوة إلى حبل المشنقة"

ألقيت نظرة سريعة على هولمز وقلت "لقد فكرت إذا ما كانت تصرفات جالاواي اليوم في الفناء سيكون لها أي تأثير على تصوري للذنب أو البراءة. لكن لماذا سيعرف أي أحد خارج هذه الجدران أي شيء مما حدث؟"

تصورت أني رأيت شفقة، أو ربما، على أقل تقدير، تعاطفا، في عيني هولمز وهو يرد بصوتٍ خفيض "أخبار اجتماع اليوم لن تبقى طي الكتمان طويلًا، واطسون. لا يتقاضى حراس السجون مرتبات مجزية، لذا يسهل شراءهم بثمنٍ بخس هذا إن لم يتم شراؤهم مباشرةً. سيقوم أحد بتسريب الخبر لصحافي ما مقابل شلنًا أو شلنين قبل أن يغرب اليوم. أنا متأكد أن الخبر سيكون على طبعة الصباح الباكر إن لم أستطع جعل مايكروفت أن يتدخل مرةً أخرى. وحتى إن استطاع التدخل، سنحتاج إلى استشارة بعض الرجال ذوي المناصب الهامة، وقد يتأثر تعاطفهم معك فور أن يعرفوا بحاميك الجديد. هناك حد لما يستطيع أي شخص فعله، حتى مايكروفت نفسه"

"بالطبع خبر أن يتم شكري علنًا من أكثر رجل مستفيد من تنحي ماكلاكلان، لن يساعدني كثيرًا" قلت وأنا متعب مرة أخرى.

لم يقدم هولمز أي عون زائف. "إن ماثيو جالاواي أحد الفئران الذين يعيشون فسادًا في هذه المدينة، واطسون، حتى وإن كان فأرًا أكثر نجاحًا من غيره. لقد وصفه ليسترد في نعته المبهج على أنه أمير ظلام العالم السفلي، يكاد يكون فوق القوانين والقواعد فيما يهم الشرطة. له يد في كل فعل محظور ومنهي عنه، وحصة في كل وكر قمار، ومعمل أفيون ومنزل في لندن. ومع ذلك فإن الشرطة غير قادرة على إدانته بقدر ما يخرق السلام"

"أشك بهذا كثيرًا،" رد هولمز. "إن أسعفتني ذاكرتي، فإن كل مرة سجن فيها في الماضي أسفرت عن لا شيء. يغير الشهود أقوالهم، وتظهر حُجَّج الغِياب ويجد البلاط الملكي نفسه غير قادر على المضي قدمًا"

"من الواضح أن جالاواي له تأثير على الجميع" قلت مقترحًا ولكني علمت مجرد أن نطقت بتلك الكلمات أنها حقيقة واضحة للجميع. كان من علامات اهتمام هولمز بي أنه يترك تعليقاتي تمر دون أن يعلق عليها. "يبدو أن الأمر كذلك بالفعل"

"ألا تستطيع الشرطة أن يفعل شيئًا؟"

"جالاواي رجل ثري، يدير إسطبلًا لتدريب الخيول، لديه دزينتان من الخدم، يملك خيول سباق والعديد من التحف الفنية، حتى إنه يملك عقارًا صغيرًا في الريف. يمكنه شراء أولئك الذين لا يستطيع إرهابهم ليصمتوا على الفور. ليس هناك الكثير مما يمكن للشرطة فعله لإيقافه"

"من الغريب أن طرقنا لم تتقاطع معه من قبل" أكثر

ما كان يقلقني هو اهتمام جالاواي بي، لكن الفكرة التي طرأت لي الآن هي أن وضعي كان ليصبح أكثر خطورة الآن لو كنا حققنا في أمره في السابق.

رد هولمز رافضًا وقال "على العكس تمامًا! جالاواي مثله مثل أي قاطع طرق. أؤكد لك، لا يخلو مجاله الخاص من الذكاء والموارد، لكن من غير المحتمل أن يقدم نوع اللغو الذي أجده مثيرًا للاهتمام. هذه حقيقة من شأنها أن تسيء للرجل بدلًا من أن تنصفه كما قد يتوقع المرء"

مشى حتى نهاية الغرفة وتطلع من نافذة صغيرة.

"لا" قالها بعد دقيقة من الصمت. "لا يجب أن نهتم بأفعال السيد جالاواي السابقة خارج هذا السجن، بل تلك التي يقوم بها في الداخل. لماذا هب لمساعدتك، ولماذا أعلن حمايته لك بهذا الشكل العلني؟"

الإجابة الواضحة لا تنبئ بالخير بالنسبة لفرص تبرئتي في المحكمة. حتى لو كان مجرم عتيد مثل جالاواي يعتقد أني مذنب، ما هي فرصي لأقنع هيئة المحلفين ببراءتي؟ ذكرت نظريتي أنه ربما يستخدمني كغطاء لأفعاله الخبيثة. لكن هولمز لم يكن مطمئنًا "بالطبع هذا أحد التفسيرات المحتملة، لكنه ليس الوحيد. قد يكون جالاواي صادقًا تمامًا في اعتقاده أنه مدينًا لك. في الوقت الحالي من المستحيل تحديد أيهما صحيح"

ابتعد هولمز عن النافذة ونظر إلي.

"مهما كانت دوافعه، من الأفضل أن تتجنبه إن استطعت. لا شك أن الأخبار ستنتشر بشأن تورطه معك، وبالتأكيد لن

يكون تكرار مثل هذا الشيء في مصلحتك"

كان منطق هولمز سليمًا. لم يكن بي رغبة أن أتحدث لجالاواي مرة أخرى، بالإضافة إلى أني سأتحرر من هذا السجن في غضون بضع ساعات. ذكرت هولمز بهذه الحقيقة، رغم أن من الواضح أنه لم ينسها.

"صحيح يا واطسون، لكن من الأفضل أن تلزم زنزانتك حتى يأتي أحد بأوراق إطلاق سراحك، لقد أنهيت بالفعل الأوراق المطلوبة مني، لكن إجراءات السجن بطيئة، وعلى الأرجح لن يتم إطلاق سراحك قبل هذا المساء. في الوقت الحالي" اختتم كلامه بحيوية وخفة وهو يلتقط قبعته من على الطاولة. "هناك مهمة أو اثنتان يمكنني الاستفادة من القيام بهما، كن مطمئنًا، سأعود في الوقت المناسب لأخذك وأرافقك إلى المنزل في شارع بيكر، لكن عليّ أن أرحل الآن"

دون أن يتفوه بكلمة أخرى، قرع على الباب. كان هناك صوت قعقعة في الخارج حتى وجد الحارس المفتاح المناسب في سلسلة مفاتيحه، تأرجح الباب منفتحًا وخرج هولمز، وهو يتركني أفكر في اقتراب حريتي براحة قلب صادقة.

الفصل العاشر

وافيًا بوعده، كان هولمز ينتظرني عند بوابة السجن، واقفًا بجوار عربة بأربع مقاعد حيث كان يجلس ليستراد بالفعل.

"فلتسرع يا واطسون" قال موبخًا بمحاولة نادرة منه للمزاح. "إذا تأخرت أكثر من ذلك ستعتقد السلطات أنك لا تود مفارقة حسن استضافتهم لكَ"

لم يكن هناك حاجة أن يطلب مرتين لأني أسرعت الخطى فوق الحصى وداخل العربة ملقيًا بنفسي فوق المقعد منقطع الانفاس. ابتسم ليستراد ابتسامة ملتوية لتحيتي وهو يعطيني قارورة مشروب روحي صغيرة.

"قليل من هذا سيفيدك جدًا، دكتور" قال لي وذكرني أن بيرت هاردي قال لي نفس الكلمات عندما شاركني شرابه. بعد رحيل هولمز تم نقلي لزنزانة أخرى. زنزانة لمن اقترب إطلاق سراحهم، ولم تتسنّ لي فرصة أن أودع الفتى، لكني كنت عازمًا ألا أنسى الوعد الذي قطعته على نفسي. بمجرد انتهاء هذا الكابوس وتركه ورائي، سأفعل كل ما بوسعي لمساعدته.

في هذه الأثناء، كان هناك تيار طويل من الويسكي اللائق بشكل مدهش هو بالضبط ما طلبه الطبيب، تلاه رحلة قصيرة عبر المدينة في طريقنا إلى شارع بيكر، وفي

أثناء ذلك ملأ ليسترادرحلتنا بتفاصيل أحدث تحقيقاته.

"تمكنت من معرفة المزيد عن ماتي جالاواي، ستسعد لسماع ما لدي سيد هولمز. بداية بسبب تواجده داخل هولواي من الأساس.. يبدو أنه تم القبض عليه هو ورجاله متلبسين، كانوا يحملون أكياسًا من العملات التي ليست ملكهم بالتأكيد" ابتسم ليسترادمظهرًا أسنانه الصغيرة. "كان بوتر يستشيط غضبًا لأنه لم يكن هو من ألقي القبض عليهم، أترى، أحد جواسيسه أعطاه معلومة سرية أن جالاواي يخطط لسرقة الصائغ في هاتون جاردن" ضحك ليسترادملء فمه على ذكر الأمر. "بدلًا من ذلك تم القبض عليه محاولًا اقتحام مصرف في بيكاديللي.. تلقى توبياس جريجسون كل الفضل. على الرغم من أن الشائعات تدور أن أحد منافسي جالاواي هو من أبلغ عنه. الأمر كما لو كانت هذه العصابات من حق بوتر وحده، كان هذا رأي كل من رأى ثورة غضبه. كما لو أنه كان يفضل هروب جالاواي ليتسنى له القبض عليه بنفسه فيما بعد. محض حماقة منه إن سألتني رأيي".

لم أسمع ليسترادبتحدث باستخفاف عن أحد زملائه من قبل. إن هذا خارج سياق شخصية هذا المحقق البسيط، ورأيت سؤالًا لي يجول في عيني هولمز لكنه هز رأسه هزة تكاد تكون غير ملحوظة. مشيرًا أنه من الأفضل ترك ليسترادبكمل قصته دون مقاطعة.

"أكمل يا ليسترادد" قال بهدوء.

"للأسف لم يعد هناك الكثير لأقوله، سيد هولمز. كل

ما أقوله إنني لا أستطيع مغالطة المحقق بوتر في مجال تخصصه. أظن أنى ذكرت أنه أرسل بعضا من رجاله في البحث عن تلك الفتاة التي استدرجتك لتتبعها، لكن لا يوجد لها أثر، ولا يمكن لأي شخص أن يشهد على وجودها لإنقاذك. ولكي نكون منصفين، تأتى فتيات الشوارع تلك ويذهبن دون أن يعيرهم أحد انتباهًا"

أن أسمع أن الفتاة ـ وهي أفضل متهمة بعدي أنا ـ قد اختفت كما لو أنها لم تكن موجودة من قبل كان بمثابة ضربة قاضية لحجة دفاعي.

انزلقت في مقعدي مثل الفريسة، منهزمًا مرة أخرى من التغيرات السريعة التي ابتليت بها منذ بداية أزمتي. واصل ليستراد التحدث، لكن علي أن أعترف أني كنت نصف حاضر. بدلًا من أن استمع إليه كنت أتطلع على لندن وهي تمر مثل المشاهد عبر نافذة العربة، وتساءلت، إلى متى سأستمتع بحريتي في هذه المدينة العظيمة التي أطلق عليها بيتي.

"...قد يكون. هذا كل شيء. إذًا ماذا تعتقد يا دكتور؟"

أدركت أن ليستراد وجه لي سؤالًا الآن، لكنى لا أملك أدنى فكرة عما يمكن أن يكون. نظرت إلى هولمز لكن انتباهه كان مرتحلًا في مكان آخر ولم يعط أي إشارة أنه كان يستمع إلى ليستراد أيضًا. طلبت من المحقق أن يعيد ما قاله وأنا خجل من الإحراج.

"هممم، حسنًا يا دكتور، ان كان ولا بد" رد بنزق "كنت أقول إن النقطة الأخرى المهمة وفقًا للمحقق بوتر هي أن

الشاب الذي كان يقف عبر الشارع يعتقد أنه رأى شخصًا ما في نافذة الغرفة، ملوحًا بمحرمة/منديل أبيض. رغم أنه غير متأكد من التوقيت"

"إشارة إلى شريك ما، ربما؟" قلت مشاركًا.

"يعتقد بوتر ذلك، لكني أخشى أنه يعتقد أيضًا أنك الشخص الذي تعطي الإشارة" أجاب ليستراد بحزن.

"لكن هذا سخيف!" قلت معترضًا "لم يكن هناك ما يشير إلى وجود شريك قبل الآن. هل بوتر عازم على إدانتي بهذه الجريمة ليثني كل الحقائق لتخدم تحيزه؟!"

"أنا آسف، دكتور. لكنه الآن يعمل على نظرية تقول إنك رأيت الشرطي هاوي وأدركت أنك لن تستطيع الهرب دون أن يكتشف أحد، وهكذا نبهت مراقبًا مجهول ليهرب، ولفقت أنت قصة كونك محبوسًا في الغرفة من قبل فتاة وهمية"

توقفنا أما العقار 221 ب قبل أن أتمكن من الرد، بقي ليستراد بالعربة متعذرًا بضغط العمل في اسكوتلاند يارد. في الواقع كنت سعيدًا بتركي وحيدًا مع هولمز في ألفة بيتنا. امتلأت بشعور متعة العودة إلى الروتين العادي اليومي وأنا أدفع الباب لتستقبلني السيدة هدسون.

بينما أنا واقفًا هناك كان من الصعب أن أتخيل أنه مر أقل من أسبوع منذ تبعت تلك الفتاة لأقع في الشرك الذي نصبته لي، ولكني شعرت كأنه مرت شهور منذ أن جلست في منزلي بسلام.

أنا متأكد أن السيدة هدسون كانت لتهتم بي، وهولمز

كان ليخرجها مجرد أن تقدم لنا عشاءً خفيفًا، ومجددًا لم أكن غير سعيد. أكلت قليلًا، ملأت غليوني واستقرت على مقعد بجوار المدفأة.

"حسنًا يا هولمز" مجرد أن أشعلت غليوني قلت له. "الآن بما أني حر، حان الوقت لتخبرني كيف تسير الأمور بالضبط".

أومأ هولمز برأسه من بين سحابة من دخان الغليون. قال: "هناك بعض الأخبار الجيدة وبعض الأخبار السيئة، كما لك أن تتوقع؟ الأخبار الجيدة هي أن الشرطة لم تستطع التوصل إلى أي دافع يجعلك تقتل السيدة ماكلاكلان. استطاع مايكروفت أن يعيق بعض التقارير من النشر، لكن واحدًا من الداعرين نشر مقالًا يبدو غير ذي صلة يقترح أنك مدين بمبالغ كبيرة وعندك مشاكل متعلقة بالمقامرة"

"ماذا! كيف يجرؤون؟!" اختفى كل الارتياح بينما قفزت على قدمي في غضب. "عملي ليس بالازدهار الذي أتمناه، لكن أستطيع أن أطمأنك أن ليس لدي أي ديون من أي نوع، ومراهناتي في سباق الخيول بالكاد يعد مشكلة مقامرة"

"فلتهدأ يا صديقي العزيز" قال هولمز محاولًا تهدئتي. "لا أحد يعطي هذا الاتهام مصداقية، ماعدا هذا الأبله بوتر، الذي يندفع وراء كل دليل مثل كلب يعض حشرات العته. تم التحدث إلى محرر الجريدة المعنية وتذكيره بمسؤولياته المدنية"

كنت مدركًا أن الدم قد شاع في وجهي وأن قبضتي

مضمومتين بقوة ـ لابد أن مظهري كان سخيفًا للغاية. لكن خبر أن بوتر كان يسعى لإدانتي وسقوطي بهذا الإيثار كان مثيرًا للغضب بدرجة كافية مما أثر على مزاجي تأثيرا مزعجا. لأنه إن كان مقتنعًا أني مذنب، فلن يهدأ له بال حتى يثبت التهمة عليّ.

"إن بوتر مقتنع تمام الاقتناع أني القاتل" قلت بنبرة يلفها الاكتئاب.

"كما قلت لك، إنه أبله، حتى إن طبقنا أدنى قواعد سكوتلاند يارد. بعد رؤية طريقة عمل بوتر، الشيء الوحيد الذي يفاجئني هو كيف لم يصل ليستراد إلى منصب رئيس الشرطة. فهو المحقق المثالي مقارنة ببوتر"

كان هذا الثناء غير المتوقع على ليستراد كافيًا لتبديد غضبي تمامًا. ضحكت، ثم ضحكت ثانية على تعبير صديقي المشوش.مكتبة سُر مَن قرأ

"حسك الفكاهي يدهشني في بعض الأوقات يا واطسون" قال ضاحكا، "إن سلوك بوتر ليس مادة للفكاهة والضحك. لقد رفض إعطائي الإذن أن أعاين مسرح الجريمة. بل والأسوأ، فقد أفرج عن جثة السيدة ماكلاكلان وأعطاها للعائلة، وبالتالي منعني من فحصها"

هذه نكسة خطيرة، صُمّمت لخفض معنوياتي. لاحظت أن هولمز لم يشاركني تلك الأخبار بينما كنت ما أزال في السجن.

"هذا مستحيل!" صرخت مندهشًا "ألا يستطيع ليستراد التدخل، في أمر معاينة الغرفة على الأقل؟".

"إنه يحاول أن يفعل في هذه اللحظة بالذات" رد هولمز بهدوء. "هذا هو ضغط العمل في سكوتلاند يارد الذي كان يتحدث عنه. وهناك احتمال وليس أكثر من احتمال أن عدة صور قد أخذت لجثة المتوفاة، والتي من الممكن أن تساعدنا. لقد أكدت عليه أهمية معاينة كلتيهما، الغرفة مسرح الجريمة والصور الفوتوغرافية للضحية"

كان هذا شيئًا ما على ما أظن، لكنى لم أستطع أن أنكر أن مزاجي قد طرأ عليه تغيير قوي. جزء كبير من أعمال هولمز يعتمد على قدرته التدقيق في فتات الجريمة. وأن تأخذ منه هذه الفرصة فهذا يعوق تحقيقه.

تحول مزاجي إلى الكآبة بشكل مفاجئ، جعلت أنظر إلى الغرفة من حولي، أستوعب تركيباتها المألوفة، وأتساءل لمتى سأكون رجلًا حرًا. تم إطلاق سراحي الآن ولكن فقط اتباعًا لتعليمات مايكروفت هولمز، واحتمالات أن أبقى في هذا الوضع السعيد تتضاءل بمرور اللحظات. نظرت إلى صديقي، لكنه كان مغمض العينين، مستغرقًا في التفكير، وبدا من الحكمة السماح له بالبقاء هكذا.

الفصل الحادي عشر

جاء الصباح بعد ليلة من مؤرقة. قبل الخلود للنوم، أعرب هولمز عن ثقته أن ضغط ليستراد سيؤتي ثماره وسيكون في استطاعته أن يتطلع على الغرفة مسرح الجريمة، كما ادعى أنه مفتون بجودة الصور الفوتوغرافية التي أخذت للغرفة. تساءلت عما إذا كان يحاول ببساطة أن يهدئ مخاوفي، لكنه أكد لي أنه كان غير متفائل في البداية، وأن ليستراد سيتوصل لطريقة ما ليراوغ تدخلات بوتر. لم يكن بوسعي إلا أن آمل أن يكون ظنه في محله.

تناولنا طعام الإفطار بينما ننتظر الأخبار. قلما كان طعم البيض واللحم المقدد بهذا الكمال، أو أن تكون جريدة "ذا تايمز" أخاذة بهذا الشكل. أمسكت بعيني هولمز مرة أو اثنتين تنظران إلي بتفكر، لكنه لم ينبس ببنت كلمة، لذا كنت أتساءل إذا كان لديه ما يسألني عنه، لكني لم أستطع أن أجبر نفسي باختراق الصمت المحبب بطرح مثل هذا السؤال. في الخارج، كان الطقس يتحول من سيئ لأسوأ، وتناثر المطر مصدرًا صوتًا قويًا على الألواح الزجاجية للنوافذ، ولكني رحبت حتى بهذا الصوت ـ والغيوم الرمادية الثقيلة التي التفت حول المباني والأسطح على الجهة المقابلة. كل لمحة من الحياة الطبيعية كانت شيئًا يستحق التذوق والتلذذ به.

T t.me/tea_sugar

بينما مرت هذه الخاطرة بعقلي المتكاسل، طرقت السيدة هدسون الباب وسلمت هولمز برقية والتي ألقاها كما هي غير مقروءة على الأرض.

"ممتاز" قال وهو يفرك يديه بعضهما ببعض "الآن وقد حصلنا على تأكيد من ليستراد، نستطيع معاينة الغرفة التي لقيت السيدة ماكلاكلان فيها حتفها. إن لم أستطع اكتشاف أي شيء غفلت عنه الشرطة، إذا سأفكر جديًا في التقاعد!"

امتلأ بحيوية مفاجأة وكان من الواضح أنه يتوق لينطلق في طريقه، لكن عيني لم تفارقا البرقية الملقاة. "أليس من الأفضل أن تطلع إذا ما استطاع ليستراد أن يأخذ الموافقة؟" تساءلت وأنا أنحني لالتقاط البرقية من على الأرض.

"ليس هناك حاجة لذلك، واطسون. إن البرقية مرسلة من سكوتلاند يارد، لذا فإن من أرسلها إما بوتر أو ليستراد، الأول يراني منافسًا له وقد اعترض طريقي في كل الفرص المتاحة له. إن كان عنده أي أخبار جيدة فسيؤجل إرسالها لنا، وإن كانت أخبار سيئة، كان سيأتي لإخبارنا بنفسه حتى لا يضيع فرصة التلذذ بالانتصار"

"وهكذا استنتجت أن البرقية من ليستراد. والذي سيسلك الطريق الآخر، لو أن الأخبار كانت سيئة كان سيأتي لإخبارنا بها بنفسه ليخفف من وطأة الخبر. مما يعني أن ما تحمله البرقية هي أخبار جيدة. الآن فلتأتِ بقبعتك ومعطفك لننطلق في طريقنا. كلما تأخرنا كلما زادت فرصة تدخل بوتر وتغيير هذا القرار"

لم أكن محتاجًا لمزيد من التشجيع، كلما نطق هولمز بكلمة كانت تمتد أوتار من الأمل في صدري. لقد سمحت لمتاعب الأيام السابقة أن تشوش على حكمي وتنسيني العبقرية التي يتمتع بها صديقي. الآن فقط، تذكرت.

لو أن هناك شيئًا، خير من يجده هو هولمز.

وجدنا ليستراد ينتظرنا عند مدخل شارع لينهوب، وقد لجأ إلى الجزء البارز من الباب ليقيه من الأمطار. عدل من وضع قبعته وسحب معطفه بإحكام وهو يخرج تحت المطر لتحيتنا.

"أخيرًا!" قال في سخط "ظننت أني سألقى حتفي تحت هذه الأمطار الغزيرة.

دون أن ينتظر ردًا، بدأ يمشي متجهًا لنهاية الشارع. وأنا وهولمز في أعقابه.

وقف الشرطي هاوي منتظرًا في مدخل المنزل رقم 16. عدل من وقفته عند اقتراب ليستراد، ثم فتح لنا الباب لنتمكن من الدخول. تبعت ليستراد وهولمز للطابق العلوي، ترددت قليلًا ونحن ندخل من المنعطف على السلالم عندما ظهرت الغرفة التي أتينا لرؤيتها في الأفق.

كان الباب مواربًا. دفعه ليستراد لينفتح. لاحظت أن القفل لم يتم تغييره منذ أن تم كسره بناءً على طلبي. توقفت قليلًا عند عتبة الباب ثم نظرت للداخل.

كان داخل الغرفة كما تذكرته، باستثناء أن رائحة الموت العنيف تم تغطيتها برائحة الخزامي، وتم تجريد الفراش والتخلص من الحشية. يمكن رؤية بعض خطوط من الدم الجاف على الأرض، غير ذلك، لم يكن هناك أثر للأحداث التي تعرضت لها الغرفة في الأيام القليلة السابقة. ورغم هذا، تمنيت أن أكون في مكان آخر.

وقف هولمز بجانبي مواجهًا النافذة. التفت إلى ليستراد وهو عابس الوجه.

"أن يمنعني بوتر من معاينة هذه الغرفة هو أمرٌ غير محتمل، كم قدم دخلت ولوثت الأدلة، من يعلم حجم الدمار الذي طال الأدلة، وأيًا كان ما بقي سيكون مشوباً"

كان من كياسة المحقق أن يظهر إحراجه، مع ذلك فقد حاول الدفاع عن زميله "هذا من حقه، سيد هولمز، كما تم إخبارك في أكثر من مناسبة. المحقق بوتر لا يؤمن بالمحققين الهواة، وقد أوضح هذا بشكل كاف عندما تحدثت له بالنيابة عنك"

بإمكاني تخيل كيف تم استقبال ليستراد من قبل بوتر الشرس، وفكرت أنها بادرة طيبة منه أن بذل هذا المجهود. لابد أن نفس الفكرة راودت هولمز، لأنه ترك المسألة برمتها رغم أنه ابتسم بانزعاج، حتى إنه سلط الضوء على جانب إيجابي لتصرفات بوتر.

"على الأقل عند وصول بوتر سأتمكن من معاينة الصور الفوتوغرافية التي أخذت ليلة الجريمة. نجح بريتيلون في باريس في مثل تلك العملية، لكن بالنسبة لي ستكون هذه

أول مرة أحاول الاستفادة من مثل تلك الصور الفوتوغرافية. من حُسن حظنا أن الميجور ماكلاكلان له تأثير كاف للإصرار أن يتم أخذهم قبل أن يتم تلويث مسرح الجريمة بهذا الشكل المضطرب"

خشيت أن يضع هولمز الكثير من الأمل على هذه الصور الفوتوغرافية. بالطبع كان قد سبق لي رؤية الصور التي غالبًا ما تؤخذ لوجوه المجرمين لتسهيل التعرف عليهم فيما بعد لكن هذا الابتكار الجديد ـ التقاط صور لآثار الجريمة كما هي ـ بدا لي غير قادر على إثبات جدارته. حتى الصور الفوتوغرافية التي تؤخذ في ظروف مثالية تميل لأن تكون مبهمة وغير دقيقة بطبيعتها، وفيما يخص التحقيق الخاص بي فإن الدقة والإتقان كانا ذي أهمية قصوى.

لم يكن لدي المزيد من الوقت للتفكير في هذا الأمر، نفذ صبر ليستراد ودعانا للدخول.

على الرغم من ذلك، لم يكن هولمز في عجلة من أمره. فقد انحنى على القفل المكسور وبدأ يعاين الخشب المتناثر بعدسة مُكبِرة. بعد ذلك دخل الغرفة بخطى واسعة، وهو يعد خطواته، ثم هبط على ركبتيه على أرض الغرفة وهو يمعن النظر أسفل الفراش وخزانة الملابس. التقط عدة شظايا من مصادر مجهولة من على الألواح الخشبية التي تغطي الأرض ووضعها في حقيبة صغير احتفظ بها في يده.

لم يخاطب أحدا سوى مرتين وجه كلامه إما لي أو إلى ليستراد.

"هل هناك إمدادات بالغاز في المبنى؟" كان هذا سؤاله الأول بينما كان يعبث بعقب شمعة من الشمع العديد الذي أضاء الغرفة في آخر مرة كنت هنا. أكد ليستراد أن المبنى به إمدادات غاز، لكن هولمز كان قد طرح الشمعة من يده وقد بدا عليه أنه فقد كل الاهتمام بسؤاله.

مرت دقيقة في صمت، ثم، قال "وملاءات الفراش التي تم إزالتها هل كانت ذات نوعية جيدة؟"

عاد ليستراد إلى الدفتر ليستشير ملاحظاته "كانت كذلك بالفعل،" قال موافقًا "ملاءات قطنية من نوعية جيدة، غطاء وسادة وفراش أيضًا"

"أكان هناك أي علامات على الغطاء؟ تطريز ما على سبيل المثال؟"

"" ليس بحسب هذه الملاحظات. من نوعية جيدة لكن سادة، هل هذا أمر هام؟"

أومأ هولمز بحدة "بالطبع،" غمغم قائلًا. دار هولمز مرة أخيرة في أرجاء الغرفة، وعاد ليقف أمام النافذة مرة ثم مرةً أخرى أمام طباعة رخيصة للوحة ما كانت معلقة على الحائط.

وأخيرًا، صب اهتمامه على المحقق وعليّ. "أيها السادة، لقد أحرزنا تقدمًا واضحًا. قد يكون لهذه الغرفة المزيد من الأسرار تكشف عنها، لكنها كما أخشى ستحتاج الصور الفوتوغرافية التي وعد المحقق بوتر بإحضارها معه. ولكن الآن علينا أن نكتفي بمعرفة كيف تم اقناع الضحية أن تبقى في هذه الغرفة، التي تقل كثيرًا عن مكانتها المعتادة"

"أتدعي أنك توصلت لاكتشاف ما، سيد هولمز؟" تساءل

ليسترادد بنبرة ملؤها الشك "أن بوتر ورجاله بحثوا في كل شبر من هذه الغرفة ولم يجدوا شيئًا على الإطلاق"

"أنا لا أدعي شيئًا أيها المحقق" رد هولمز بانفعال. "كنت أعتقد أن أي أحمق يمكن أن يستخلص نفس الاستنتاج من فحص هذه الغرفة بشكل موجز، ولكن مما أخبرتني به للتو يبدو أن شخصًا واحدًا على الأقل قد فشل بالفعل في القيام بذلك"

بعد أن قال هذا، فتح الحقيبة التي كان ممسكًا بها وأفرغ محتوياتها الهزيلة في يده. التصقت عدة شظايا بيضاء بجلد راحة يده.

"إن لم أكن مخطئًا، فهذا فتات من حلوى المارينج. نوع فاخر من الحلوى أن نعثر عليه في غرفة قذرة مثل تلك، ألا تتفق معي؟"

"ربما أحضرته السيدة معها؟" عرض ليسترادد فكرته.

"المارينج حلوى رقيقة سريعة الكسر أيها المحقق. إنها بالكاد نجت في المرور من اليد للفم، كيف لك أن تتخيل أن امرأة عجوز تستطيع نقلها عبر لندن ليلًا؟ لا، إنما هي جزء من خطة أكبر، عناصر واضحة وضوح النهار لمن يهتم حقًا بالملاحظة"

انتظر لأقل من ثانية متوقعًا ردًا مني أو من ليسترادد، وعندما لم يتلقَ أي شيء أكمل شرحه.

"واطسون؟ أنت أكثر من تعرض لطرقي. أرفض تصديق أنك لم تلتقط أيًا من عاداتي الجيدة. تعال، انظر بنفسك، ماذا ترى؟"

درت ببطء في دائرة كامل، دارسًا كل الجوانب المحيطة بي. الفراش هو كما وصفته، يتألف من معدن صدأ وملطخ، تعتليه وسادتان رفيعتان. خزانة الملابس، الطاولة وإبريق مياه كما رأيتهم في نفس المكان سابقًا. مشيت حتى اللوحة على الحائط. كانت نسخة رديئة مما اعتقدت أنه ربما كان نسخة أصلية مبتذلة، كانت تصور شابًا يربط حقيبة قرني أيل، مع بوابة قلعة في الخلفية. لم أستطع أن أرى شيئًا في الصورة قد يساعدنا في تحقيقنا، وبالنظر إلى ليستراد من زاوية عيني، أستطيع أن أقول إنه كان في حيرة مماثلة.

ومع ذلك، شيئًا واحدًا قاله هولمز كان يلح على تفكيري، ولم أدرك ما هو حتى استدرت ناظرًا إلى الفراش.

"ليستراد قال إن ملاءات الفراش كانت من نوع جيد، جيد جدًا لأن ينتمي لهذه الغرفة، بناءً عليه فقد أتى بها القاتل معه!" "جيد جداً حتى الآن سنجعل منك محققًا. لكن لماذا؟ ملاءات عالية الجودة شيء غريب على هذا المكان، بنفس غرابة حلوى المارينج، رغم ذلك كلاهما هنا، أو كانا هنا، على أي حال. ولكن لماذا؟"

هنا توقفت متلعثمًا وأجبرت على الاعتراف أنى تائه تمامًا.

"لا تعلم؟" قال هولمز، "خيبت ظني يا واطسون، لكن جيد للغاية، إن كان على شرح كل تفصيلة صغيرة.." فرك يديه ببعضهما البعض، سامحًا لفتات المارينج، يسقط على الأرض. "المارينج والملاءات تخدم الغاية نفسها، كما هو

الحال مع اللوحة الرديئة على الحائط والشموع التي تم تفضيلها عن الانارة بالغاز. أحدهم جهز هذه الغرفة مسبقًا للسيدة ماكلاكلان، تمامًا مثل إعداد خشبة المسرح قبل العرض"

"فكر في هذه الغرفة كما ظهرت للسيدة تعيسة الحظ. عجوز وواهنة وغير مستقرة تعاني من ضعف البصر ـ أتذكر النظارات اليدوية؟ـ والعقل الشارد يتشبث بالمألوف تشبث رجل يغرق بسترة النجاة، وينزعج من أي شيء يخالف ذلك. ومع ذلك، مع إزالة نظارتها، وفي ضوء الشموع المرتعش، متدثرة تحت ملاءات نظيفة عالية الجودة، ستشعر بالراحة، كما لو أنها في بيتها حتى. بالمناسبة يا ليستراد، أظن أنك ستجد أن المارينج كان الحلوى المفضلة للراحلة السيدة ماكلاكلان. وبالطبع هناك اللوحة المطبوعة..."

"ماذا عنها سيد هولمز؟ ربما يكون كلامك منطقيًا للدكتور واطسون، لكن على الاعتراف أنك أضعتني"

نظر هولمز إلى ليستراد غاضبًا لأنه قاطعه مجددًا.

"من الواضح،" رد بجفاء "لكنها قطعة جوهرية من الأحجية التي تم إعدادها للسيدة ماكلاكلان. هناك أسطورة قديمة ـ وعلى أن أقول بعيدة الاحتمال ـ تقول إنه عندما اعتلى العرش الملك ألكسندر الثالث عام 1249، أمر كل رؤساء العشائر أن يرسلوا له الجزية مع أسرع رسول ممكن. لاكلان مور، رئيس عائلة ماكلاكلان، غاضبًا من هذا الأمر الدكتاتوري، قام بربط مال جزيته في قرني أيل، حرفيًا أسرع رسول على أرضه. وحتى يومنا هذا بقيت خوذة

عشيرة ماكلاكلان، زوجين من الأيائل يحملان شعار نبالة العشيرة. الميجور ماكلاكلان معروف بأنه يفخر بتاريخ عشيرته، ولا يوجد أي سبب يجعلنا نظن أن عمته أقل فخرًا منه. وجود مثل هذه اللوحة المطبوعة تساعد في طمأنتها بأن كل شيء على ما يرام وأنا بين الأصدقاء"

تعجبت مرة أخرى من قدرة صديقي على الاحتفاظ بأكثر المعلومات المبهمة عديمة الأهمية، لكن ليستراد كان أقل إعجابًا.

"كل هذا جيد وجميل سيد هولمز، لكن كيف لهذا أن يفيد التحقيق، أو أن يقرب بين الدكتور واطسون من تبرئة اسمه؟"

"فلتحاول استخدام عقلك يا ليستراد، فقط كما هو! نحن نعلم ـ والأهم أننا نستطيع أن نثبت ـ أن واطسون كان مع مريض آخر على مسافة نصف ساعة قبل أن يعرف الضابط هاوي بوجوده في عنوان على مسافة خمسة عشر دقيقة مشى من شارع لينهوب، هذا بالكاد يترك له الوقت الكافي لارتكاب جريمة القتل"

"لكنه يترك وقتًا كافيًا رغم ذلك سيد هولمز" صحح له ليستراد. خمسة عشر دقيقة بالإضافة إلى السبع دقائق التي احتاجهم هاوى لكسر باب الغرفة. هذا ما يزال يترك ثمان دقائق لقتل الضحية"

"لقد قلت (*بالكاد*) أيها المحقق،" قال هولمز منفعلًا. "البديل هو أن واطسون قد أتى بالسيدة ماكلاكلان هنا، رتب الغرفة مسبقًا ومن ثم قتلها. من المرجح أكثر أن

أيًا من أعد هذا الترتيب فعل هذا ليجعل السيدة هادئة ومذعنة لفترة من الوقت قبل مقتلها. بينما ينتظرون الطبيب واطسون ليمر ويتم استدراجه إلى فخهم، هذا على سبيل المثال"

لم يصدر عن ليستراد سوى صوت نعير حيث أنه لم يملك إلا أن يعترف بصوت المنطق في كلمات هولمز لكنه عازف عن إعطائها أي وزن أو أهمية. "نظرية مثيرة للاهتمام سيد هولمز، لكن في سكوتلاند يارد نحن نفضل الأدلة الدامغة"

"وهذا ما ستحصل عليه" رد هولمز بثقة. "لكن حتى أستطيع أن أقدم لك دليلًا يجب أن يكون لدي وقائع أبني عليها استنتاجاتي، وفي هذه اللحظة.." توقف فجأة وأمال رأسه لناحية واحدة. "لكن ها هو المحقق بوتر إن لم أكن مخطئًا، ربما اللفافة التي يحملها ستمهد الطريق من التكهن إلى اليقين"

الفصل الثاني عشر

لا يحتاج الأمر مهارات تحليلية جبارة ليلاحظ المرء كم كان بوتر مستاء من وجود هولمز فيما اعتبره "مسرح الجريمة الخاص به". اقتحم الباب المفتوح يتبعه ضابط شرطة يبدو عليه الانزعاج، ووقف في منتصف الغرفة حيث وقف صامتًا ومحدقًا في ثلاثتنا.

اخترق ليستراد الصمت الذي اتبع ذلك بسؤال بوتر إذا ما كان أحضر الصور الفوتوغرافية.

"لقد فعلت" رد المحقق موجهًا كلامه إلى هولمز بدلًا من زميله الشرطي. "رغم أنني لا أعلم ما النفع الذي قد يأتي من ورائهم. تمكنت أنا ورجالي من الدخول لهذه الغرفة عندما كانت غارقة في الدم المتخثر المتناثر، ولم نتمكن من اكتشاف أي شيء ذي طبيعة محددة. ما الذي ترجو أن تكتشفه أنت من ثلاث صور غير واضحات ليساعدك؟ سيشل،" نبح كالكلب في الشرطي الذي وقف منتظرًا. "أعطه إياها يا رجل".

حتى وإن شعر هولمز بالضيق من موقف بوتر، فهو لم يظهر هذا على الإطلاق. مد يده مستقبلًا الملف المقدم من قبل الضابط الشاب، ثم فرش محتوياته على الطاولة البالية. هرع ليستراد للأمام ليلقي نظرة، بينما ترددت أنا، عازفًا عن العودة إلى الرعب الذي اختبرته من قبل. على

الرغم من أني كنت أعلم أني لا أملك الاختيار، وهكذا وبعد لحظات من التردد، تقدمت أنا أيضًا بجوار هولمز محدقًا للأسفل في الصور التي وضعت تحتنا.

كما قال بوتر، كان هناك ثلاث صور فوتوغرافية في المجمل. تم التقاط الأولى من ناحية الباب كما أظن، وقد شملت كامل الغرفة. سواء كان هذا بسبب المنطقة الواسعة الملتقط لها الصورة أو بسبب بعض العيوب في عملية التصوير نفسها التي لا أعلم عنها شيء، كانت الصورة رديئة لدرجة الغموض. يمكن تبين الجزء الأكبر من الفراش كمستطيل داكن إلى الجانب الأيمن من الإطار، وتظهر النافذة كمربع أصغر حجمًا وأرق في اللون في مواجهة الكاميرا مباشرة، لكن وخلاف ذلك كل ما استطعت تمييزه كانت كتلا من الرمادي الأسود والتي يمكن أن تكون من عيوب التصوير كذلك أكثر من كونها من محتويات الغرفة.

غرق قلبي في صدري من الإحباط، لو أن باقي الصور بنفس الجودة الفقيرة لهذه الصورة، ما هي فرصتنا في الكشف عن الأدلة الجديدة التي تطلبها سكوتلاند يارد؟

من الواضح أن هولمز وافقني الرأي. "بلا جدوى" تمتم وهو يدفع الصورة بغضب من على الطاولة.

لحسن الحظ أن الصورة التالية كانت أوضح بكثير، على الرغم من أن هذا الوضوح جعل موضوع الصورة أكثر إزعاجًا.

أخذت الصورة عن قرب لتوضح إصابات السيدة ماكلاكلان. شعرت بالامتنان أن الفني الذي التقط الصورة

أخذ بعض الوقت ليغطي الكثير من السيدة المسكينة، بما فيه وجهها، لكن الجروح والطعنات كانت واضحة بشكل مفاجئ. كانت واضحة لدرجة لم أستطع استساغتها.

بطريقة ما، إن الاستمرارية التي قدمتها الصور منحت المشهد تأثيرًا منفرًا أكثر مما كان في الحقيقة. قبح فاحش كانت هي الكلمة التي تبادرت إلى ذهني.

لم يكن تأثر هولمز مماثلًا، أطلق نخير يدل على الرضا الواضح، "هذا رائع" تمتم قائلًا وهو ينحني ليفحص تفاصيل الجراح بعدسته المكبرة.

هذه ليست المرة الأولى التي تبهرني فيها قدرة صديقي في ضبط أي استجابة عاطفية وتحييد مشاعره. لم يكن هناك شك أن هذه القدرة جعلت منه محققًا أفضل، لكن يصعب تقديرها في مثل تلك الظروف.

"رائع كيف؟" خرج تساؤلي بحدة أكثر مما أردت.

"شكل الجراح يا واطسون!" أشار إلى عدة شقوق. "إن سكين المطبخ المعتاد يترك نمطًا مميزًا عند نقطة الدخول، مع حافة مدببة بشكل ملحوظ على جانب واحد حيث تكون الشفرة حادة، وحافة مربعة من الجانب الآخر من الشفرة. لكن هذه الجروح لها حواف مدببة على الجانبين مما يعني أنها صنعت بسكين ثنائي الشفرة... أو ربما حربة. المؤكد أنها ليست بشفرة يستطيع المرء إيجادها في البيوت العادية"

"حربة؟" تمتم ليستراد متفكرًا. "أنصحك بالاحتفاظ بتلك المعلومة لنفسك سيد هولمز، بما أن الطبيب واطسون

رجل جيش سابق"

"كان طبيبًا عسكريًا يا ليستراد،" رد هولمز بحزم. "من المستبعد أن يكون قد أتى بحربة كتذكار. بالإضافة إلى.." أكمل بشكل أكثر اتزانًا، "واطسون ليس الرجل العسكري الوحيد المتورط بشكل وثيق في هذه القضية".

هز ليستراد رأسه في حيرة، لكن بوتر كان أسرع منه في فهم هذه الإشارة. "أنت لا تقصد الميجور ماكلاكلان؟" صاح متسائلًا. "هل أنت بالفعل على وشك اقتراح أن السير كامبيل ماكلاكلان قام بقتل عمته؟ ولأي سبب قد يقدم على ذلك؟ وكيف؟ إن كان هذا أفضل ما لديك لتنقذ صديقك يا هولمز، قد يكون من الأفضل له الاستغناء عن خدماتك تمامًا؟"

تجاهل هولمز، بوتر كليًة وقام بتوجيه كلامه إلى ليستراد. "بالطبع أنا لا أقول أن الميجور ماكلاكلان هو القاتل. إن هذا غير معقول. والاقتراح نفسه أحمق للغاية. ولكن، من المعروف أن الميجور يهوى جمع التذكارات العسكرية. سأكون مهتمًا جدًا أن أعرف إن كان لديه سلاح في مجموعته يشابه ذلك الذي استخدم لإحداث تلك الجروح. على الرغم من أنه ربما لم يقتل عمته، إلا أن السكين المستخدم للقيام بذلك قد يكون أتى من منزله"

"أتعني أن القاتل قد أتى بها معه؟"

"هو كذلك تمامًا، من الواضح أن القاتل أحضر السيدة ماكلاكلان إلى هذه الغرفة بطريقة أو بأخرى. لماذا نستبعد أن يكون سلاح الجريمة أتى من نفس المكان؟"

استمع بوتر بصبر لهذه المحادثة، لكنه قاطعهم الآن ليوضح أن الشرطة لم تجد شاهدًا واحدًا على خطف السيدة ماكلاكلان، أو على رحلتها المقترحة عبر لندن وصولًا إلى شارع لينهوب.

لوح هولمز يده رافضًا باتجاه بوتر. "لا توبخ نفسك بهذه القسوة أيها المحقق. إن الخوض في تلك الإخفاقات ليس مفيدًا. وفي هذا الصدد قد يكون السبب ببساطة أنه لا يوجد شهود لتعثر عليهم. ومع ذلك، سأكون ممتنًا جدًا لو أنك أرسلت أحد رجالك للتحدث إلى الميجور، لتحديد ما إذا كان قد فقد حربة أو سكينا بحجم مناسب مؤخرًا" لم ينتظر الرد، بل سرعان ما حول انتباهه إلى الطاولة أمامه. "في الوقت الحالي علينا أن نركز اهتمامنا على الصورة الأخيرة"

الصورة الثالثة كانت تظهر المساحة الفاصلة بين الصورتين الأخريين. تم التقاط الصورة من عند قدم الفراش لتوضح طول الجثة، مستعرضةً الوضع التي تم اكتشافها عليه. سقط قلبي بين أضلعي بينما انحنى هولمز على الصورة، كانت غير واضحة مثل الصورة الأولى، بالكاد استطعت تخيل أن حتى هولمز قادر على كشف بعض الأدلة الجوهرية منها. هُيء لي أنى رأيت ابتسامة على وجه بوتر بينما التقط هولمز الصورة ورفعها تحت الضوء.

أصدر هولمز صرخة مفاجأة وتوجه إلى الفراش ممسكًا بالصورة في يده.

"حشية الفراش يا ليستراد!" صاح هولمز. "القائمة التي معك، فلتتلطف وتقرأها مرّة أخرى."

حدق المحققان الاثنان فيه كما لو أنه فقد عقله، لكنني شعرت بموجة من الأمل من إثارة هولمز الواضحة. من الواضح أنه اكتشف شيئًا ما.

لم يرد هولمز بل توجه إلى النافذة ونظر عن كثب من خلال الزجاج، ثم فتحها ومد رأسه إلى الهواء المليء برذاذ الأمطار. لم تمر سوى لحظة قبل أن يسحب رأسه ويواجه بوتر.

تساءل هولمز، ""أظن أن شاهدًا رأى رجلًا يرسل إشارة من هذه النافذة قبل وصول الشرطة بخمسة عشر دقيقة؟"

"بالفعل"

"مما يقلص الوقت المتاح لواطسون ليرتكب الجريمة!، لكن لندع هذا جانبًا الآن. هل كان اتجاه رؤية هذا الرجل من نافذة مباشرة، أم من زاوية؟"

"يقع منزله على بعد ست أبواب بنهاية الطريق"

"زاوية مائلة إذاً؟"

"هكذا أظن" يمكنني القول أن استياء بوتر يتزايد مع كل سؤال، حتى وإن كان هولمز ساهيًا عن ذلك.

"أترغب في التحدث إلى الشاهد سيد هولمز؟" تساءل ليستراد ومن الواضح أنه شَعُرَ بالتوتر الذي يسود الغرفة آملًا أن يلطفه بعض الشيء.

"هممممم" كان هولمز شارد الذهن، تائها في أفكاره وأخذ لحظة ليفكر في عرض المحقق. "لا، أشكرك. من

الواضح أن الرجل لا يعتمد عليه، والأهم من ذلك أن نستعيد سلاح الجريمة بدلًا من إضاعة الوقت على سوء فهمه"

"بالفعل سيد هولمز،" قال بوتر ساخرًا "سيكون ذلك مفيدًا للغاية. لكن للأسف نحن لا نملك أي فكرة عن أين يمكن أن يكون" ثم قال مستنتجًا بخبث. "هذا إن لم تكن واحدة من السكاكين التي يحملها دكتور واطسون في حقيبته"

هز هولمز رأسه في امتعاض كما لو أنه مدرس يؤنب تلميذًا لأنه يعلم أن بإمكانه فعل ما هو أفضل من ذلك. "لو أنك تتفضل وتتبعني، محقق بوتر. سأثبت لك أن الضحية لم تقتل بأي من الأدوات التي يستخدمها واطسون"

"وكيف ستثبت ذلك؟"

"كيف؟ بتقديم سلاح الجريمة الحقيقي بالطبع!" دار نصف دائرة على كعبه وتوجه إلى الدرج. مرت لحظة حتى عاد إلينا رشدنا نحن الثلاثة وهرعنا خلفه.

وصل هولمز بالفعل للشارع عندما لحقنا به. تحولت الأمطار إلى ضباب من قطرات رطبة صغيرة، بدا كأنها معلقة في الهواء مثل خيوط العنكبوت، تبلل وجهي حتى عندما توقف هولمز فجأة عند الباب المجاور، ذلك المغطى بسقالات. بالنظر إليه لم يظهر الكثير من المبنى. فقط لمحات عابرة تظهر من خلال الأقمشة الثقيلة التي

تغطي الأعمدة والحبال والألواح والسلالم التي حجبت الطوب بطريقة أو بأخرى. حديقة مهملة على جانب، وركام من زجاج وأخشاب متعفنة على الآخر، ربما كانت سقيفة أواني ذات يوم. أضافت للإحساس العام بالإهمال.

"هذا المبنى يقف فارغًا لعقد من الزمان على أقل تقدير" قال ليستراد مجيبًا على التساؤل الذي يدور برأسي. "اشتراه مقاول ما من ست أشهر مضت، ولم يبدأ العمل به إلا من أسبوعين، لكننا أخلينا المبنى من جميع العمال منذ... حسنًا منذ الحادثة"

أخذت خطوة باتجاه هولمز الذي توقف عند قاعدة السقالات. أدت السلالم المتباعدة عن الأرض في مسافات متساوية إلى داخل هذه الغياهب المغطاة في ثلاث نقاط، وعندما وضعت يدي على كتفه تحرك هو في اتجاه أبعد سلم وبدأ الصعود.

"تعال إلى هنا" صرخ بوتر. "إلى أين تظن أنك ذاهب؟ هذا المنزل ملكية خاصة وليس لك حق دخوله!"

"أنا لا أدخله،" صرخ هولمز ردًا عليه من فوق كتفه. "بكل بساطة أنا أتفقد المساحة التي أمامه مباشرة"

اختفى تحت أول غطاء وكان بمقدورنا سماع حركته فوقنا. مرت دقيقة كاملة كان كل ما استطعت تبينه هو صوت أصابعه الهامسة، ثم نزل من على السلم مرةً أخرى وعلى وجهه نظرة رضا.

"كما توقعت" تمتم لنفسه ثم، ودون أن يوجه كلمه لأي منا، صعد السلم الأوسط.

مرةً أخرى، مرت دقيقة ثم أخرى. للحظة ما شعرت أن هولمز كان يقفز وظهر شكل ضخم من خلف الأغطية وهو يستند عليها، ولكن بعد فترة وجيزة سمعناه جميعًا يطلق صرخة انتصار، وبعد ثوان قليلة عاد إلى الأرض ممسكا بحقيبة رمادية، قذرة ومبللة في يديه.

يداه ووجهه كانوا متسخين، سرواله مبتل حتى ركبتيه، وكان لديه جرح صغير فوق حاجبه الأيمن، لكن مع كل هذا، توقف ليفتح الحقيبة ليكشف عن الخنجر المعقوف ذو المظهر المخيف المخبأ في طياتها، قبل أن يمشي عائدًا للمبنى رقم ستة عشر.

قلب هولمز السكين على الطاولة، وألقى بالحقيبة التي كانت تخبئه على الفراش. وضع الصورة الفوتوغرافية الثالثة بجوار السكين وأشار بأصابعه الطويلة على الوسادات في أعلى الصورة.

هناك اثنان منهما، جسمان رفيعان، أحدهما أغمق من الأخرى بسبب انغماسها في الدم. نظرت إلى الفراش حيث استلقت الوسادتين ذاتهما، وأيضًا واحدة ملطخة ببقع غامقة والأخرى بالكاد طالها شيء. أما ماذا رأى فيهما هولمز مكنه من اكتشاف مكان سلاح الجريمة، هذا ما لم أفهمه، وعبرت عن عدم فهمي هذا.

"كل جزء من الحشية كان من نوعية جيدة يا واطسون"

أوضح بصبر مبالغ فيه. "ملاءات قطنية، وأغطية وسائد قطنية كذلك. غطاء فراش ثمين. تم الحرص على جعل مضطجع السيدة ماكلاكلان وثيرا ومريحا قدر الإمكان. لماذا إذا لم يكن هناك سوى غطاء وسادة واحد؟"

سمعت صوت شخير بوتر من خلفي، لكني كنت أعرف أن هولمز لم يكن ليسأل أسئلة جوفاء. وأيضًا ليسترد كان يعرف هذا ليأخذ هولمز على محمل الجد.

"ربما لم يعرف القاتل أن هناك وسادة ثانية تتطلب أن يأتي لها بغطاء؟" قال بوتر.

"لا، أنا أعرف أن هذا ليس السبب" رد هولمز وهو عاقد حاجبيه. "أيًا من قام بالقتل فقد كان كثير التدقيق في ترتيب وضع الغرفة. لو اكتشف أنه ينقصه غطاء وسادة كان سيرتب الفراش بواحدة فقط.

انحنى فوق الفراش وبدأ يتفحص كل وسادة على حدة بعناية. "الغطاء الأقل تلطخًا تم إزالته. لاحظ في الصورة الفوتوغرافية كيف أن الطرف الأيمن من الناحية السفلية للوسادة غامق بسبب الدماء، ثم هناك فجوة بيضاء غير ملطخة بالدماء قبل أن تتداخل معها الوسادة العلوية. في البداية كانت الوسادة الواقعة بالأسفل بمحاذاة العلوية بشكل أكبر، بمعنى أن الدماء كانت لتلطخ الجزء الصغير المكشوف. ومع ذلك لم يستبدلها القاتل بعد إزالة الغطاء، تاركًا جزءا غير ملطخ مكشوفًا"

حتى بوتر لم يستطع ألا يلقي نظرة على الصورة ثم ينظر إلى الفراش القابع أمامنا. كان الأمر كما وصفه هولمز

بالضبط، رغم أن توصله لاكتشافه ما زال يستعصي علي.

"وماذا في ذلك؟" دمدم بوتر. "أنا مازلت أنتظر توضيحًا لاكتشافك المريب لهذا الخنجر. عليّ أن أحذرك أنه إذا كان غرضك أن تصرف نظرنا بهذا الإلهاء الذي لا طائل منه فسوف يخيب ظنك"

ردًا على ذلك، التقط الحقيبة التي ألقاها منذ قليل على الفراش وبحذر مهده فوق الوسادة الأقل تلطخًا. عند وضعها مسطحًة كان من الواضح جدًا أنهما متطابقتان. تم كسر حدة أي شك باق أن هذه القماشة المتسخة كانت هي نفسها غطاء الوسادة المفقود من خلال الخط الداكن المائل في أحد طرفيها والذي يتطابق تمامًا مع بقعة الدم على الوسادة.

رفع ليسترادد طرف الغطاء وتركه يسقط مرّة أخرى، وعلى وجهه قناع رقيق من الارتباك. "إذا، القاتل خبأ سلاح الجريمة في غطاء الوسادة؟" طرح سؤاله ببطء.

"بطريقة ما يمكننا القول أن القاتل أخفى السكين في غطاء الوسادة بنية حملها معه لكنه، بطريقة ما أدرك أن سكينًا حادًا سيحدث ثقبًا في قماش من هذه النوعية الجيدة" رد هولمز واستدار ليوجه حديثه لي. "أظن أن الفتاة التي قادتك إلى هنا لم تكن تحمل أي غرض من هذه الشاكلة يا واطسون؟"

هززت رأسي نافيًا. كنت قد بدأت أنسى الفتاة، لكن من الواضح أن هولمز لم يفعل.

"بالطبع لا" قال بنبرةٍ ملؤها الحيوية. "ومع ذلك فإن

السكين بداخل غطاء الوسادة" قام بتمثيل صامت كأنه يلتقط شيئًا من على الفراش. "ترقد السيدة مقتولة وقاتلها يقف بجوارها ما يزال ممسكا السكين الغارق بالدماء في يده. إنه سلاح أساسي، لن يستطيع وضعها في حزام أو إسقاطها في جيب معطف أو سترة. والفتاة قد غادرت منذ وقت طويل أو ربما لم تكن في الغرفة من الأساس، والآن هو وحده. يذهب للنافذة وينحني للأسفل، مخافة أن يراه أحدهم في ضوء الشموع. يضغط بيده على الزجاج ـ تستطيع رؤية طبعة كاملة من بصمات الأيدي على ارتفاع الصدر هنا وهنا ـ ويحدق قدر الاستطاعة في الشارع. لو لم يكن هناك أحد لاستطاع إخفاء السكين في طيات ملابسه وإلقاءه في بالوعة ما في مكان قريب. لكن هناك أناس في الطريق. من الممكن أن يروه! الفتاة ستقابل واطسون عما قريب، والقاتل يعرف أن عليه الذهاب قبل وصول واطسون، لكنه لا يستطيع ترك السكين وراءه، ليس إن كان يريد أن يقع اللوم على واطسون. يقرب وجهه أكثر إلى الزجاج ويتذكر السقالات الموجودة في المنزل المجاور. إنها تخبئه مؤقتًا لكن عليه أن يتحرك بسرعة. يجذب غطاء الوسادة الأقل تلطخًا بالدماء ويلقي السكين بداخله. يضع قطرات صغيرة من الدم تهرب من السكين وهو يفعل ذلك لتسقط هنا" ـ أشار إلى بقعة على بُعد قدم من الفراش ـ "وهنا" مشيرًا إلى بقعة أخرى أقرب للنافذة. "يقوم بفتح النافذة بعناية ويميل قدر ما يجرؤ. مؤرجحًا غطاء الوسادة الذي تم تثقيله الآن في حركة دائرية.." انحنى من النافذة

وهو يطابق كلامه بأفعاله ".. يتركها لتسقط، يشاهدها تهبط بين مخلفات البنائين في المنزل المجاور. يغلق النافذة ويذهب في طريقه، لم يره أحد سوى جار ظن أنه رأى أحدهم يلوح بمنديل قماشي"

"قصة رائعة سيد هولمز، كما لو أن الدكتور واطسون بنفسه هو من يرويها. ولكن لا يوجد دليل واحد على وجود أي شخص آخر غير الدكتور واطسون في الغرفة تلك الليلة. وكان بإمكانه أن يفعل ما اقترحته أنت بكل سهولة"

الأمل المتنامي الذي شعرت به داخلي خلال رواية هولمز سُحق على الفور بسبب إصرار بوتر أنى كنت الطرف المذنب. كان محقًا فيما قاله بالطبع، لا شيء مما قاله هولمز كان يبرئني بأي حال.

"كان يمكنه ذلك" اعترف هولمز مقاطعًا أفكاري الموحشة. "لكن واطسون لم يملك مثل هذا السكين وأراهن بالمال حتى إن هناك كوركي مفقودًا من مجموعة التذكارات الخاصة بالميجور ماكلاكلان"

"كوركي، سيد هولمز؟" مد ليسترد الكلمة الأجنبية في فمه ونطقها بعناية مبالغ فيها من رجل لم يتحدث سوى الإنجليزية.

"نوع من الخناجر المنحنية الهيئة، شائع في نيبال، لكنه موجود في جميع أنحاء جنوب آسيا" كنت قد رأيت العديد منهم في أفغانستان حيث كانوا هدايا تذكارية رائجة بين جنودنا. "هولمز على حق. أنا لم أملك واحدًا منها أبدًا، لكن الميجور ماكلاكلان سيكون جامع تذكارات غريب لو

أنه لم يملك على الأقل واحدًا منهم في مجموعته".

"بالضبط هكذا يا واطسون" أضاف هولمز. "ستلاحظ الشق الصغير في الحافة، ومع ذلك جامع تذكارات شهير مثل الميجور لن يحتفظ بهذا الغرض المعيب في المجموعة المعروضة، لذلك ربما لم يتم افتقاده حتى الآن"

رمق بوتر بنظرة جانبية مقيمًا شيئًا ما قبل أن يتكلم. "ربما يمكنك أن تجري بعض التحقيقات في منزل الميجور أيها المفتش، والتأكد مما إذا كان يفتقد كوركي؟"

"ليس هناك حاجة لتذكيري بأساسيات وظيفتي سيد هولمز" رد بوتر بعصبية. «سأقوم بإجراء مثل هذه التحقيقات ، بل وأكثر من ذلك، سأتحقق من أي حلي زهيد القيمة قد يكون الطبيب هنا عاد بها من وقت خدمته بالجيش"

أكمل هولمز بلا خجل. "يمكنك أيضًا أن تقوم ببعض الاستفسارات المفيدة إذا ما قد سمعت صاحبة المنزل أي شيء. أعلم أنها تدعي لأنها لم تعرف شيئًا عن جريمة القتل، لكن سقوط سكين بين السقالات المجاورة من شأنه أن يحدث ضجة كبيرة"

"هنا لابد أن أخيب ظنك يا سيد هولمز" ابتسم بوتر. "لقد ذهبت السيدة للبقاء مع عائلتها في البلاد بينما نعزل منزلها. يبدو أنها قد لا تعود أبدًا"

"أنت لا تعرف أين ذهبت؟!" الغضب في صوت هولمز كان واضحًا بينما بوتر هز كتفيه. "تمامًا كما لا يمكنك العثور على الفتاة"

"ليس لدينا أي دليل على وجودها سوى كلمة الدكتور

واطسون" أجاب بوتر، وكل ما أمكنني فعله هو كبح جماح نفسي من أن أخرج بعضًا من قلة ذوقه بضربه. لكنني كنت في ورطة كافية دون إضافة الاعتداء على شرطي إلى قائمة التهم الموجهة لي.

آثر هولمز الصمت أيضًا، لكن تحدث ليستراد فجأة. "هناك الرجال الذين ساعدوا الشرطي هاوي على كسر الباب" قال مقترحًا. "ربما سمعوا شيئًا أو رأوا السكين يتم إلقاؤه؟"

"فكرة ممتازة، ليستراد! أنت تتحسن بكل تأكيد! كنت قد نسيت هؤلاء السادة تقريبًا بينما أركز على مسارات أخرى، لكنك على حق تمامًا. يجب على التحدث إليهم على الفور"

"بما أنهم لم يرتكبوا أي جريمة فهم ليسوا رهن الاحتجاز، لذلك قد يكون التواصل معهم صعبًا،" أجاب بوتر بالنيابة عن ليستراد وهو يحملق في وجهه بغضب صارخ. "أم أنك ستلوم على الشرطة فشلها في احتجازهم أيضًا؟"

"لا على الإطلاق، لكن من المحتمل العثور عليهم؟"

"هاوي في وقت خدمته في هذه المنطقة" عرض ليستراد عابرًا إلى الباب. "هل أرسل الشرطي سشيل ليعثر عليه؟" ربما يمكنه أن يسلط بعض الضوء على هؤلاء الرجال الثلاثة"

أرسل الشرطي يعدو أسفل الدرج قبل أن يستطيع أيًا منا أن يرد، وفي غضون دقيقة واحدة دخل الشرطي هاوي وهو يلهث من أثر الجري.

الفصل الثالث عشر

عندما تقابلنا المرة السابقة، فشلت في الانتباه كثيرًا للشرطي هاوي ولسببٍ مفهوم على ما أعتقد، لكن الآن وهو يقف أمامنا ممسكا بخوذته تحت ذراعه، من الواضح أنه كان رجلًا عاقلًا وموثوقًا به. طوله يزيد قليلًا عن ستة أقدام، يبلغ من العمر حوالي ثلاثين عامًا، نحيفًا وعريض المنكبين، وتظهر بالفعل عليه علامات بدايات الصلع.

تكلم ببطء لكن دون ملل، ومن الواضح أنه دقيق في عمله وحريص على عدم ارتكاب أي أخطاء أمام اثنين من كبار مفتشي سكوتلاند يارد. "الشارع والمناطق المحيطة به كانت مهجورة في تلك الليلة يا سيدي." قال ردًا على استفسار هولمز. "كما أوضحت سابقًا، الأشخاص الوحيدون الذين رأيتهم قبل الجريمة كانوا هم الثلاث أشخاص الذين ساعدوني في كسر الباب"

"إذن فقد رأيتهم من قبل؟" تساءل هولمز باهتمام.

"قبل بضع دقائق، نعم سيدي. كانوا يقفون عند ناصية الشارع يشربون، كنت لأطلب منهم الرحيل لكنهم لم يسببوا ضررا حقيقيا. وبدلًا من ذلك تأكدت من أنهم رأوني أراقبهم، وأعطيتهم الفرصة ليرحلوا قبل أن أعود من هذا الطريق مرّة أخرى.

"ممتاز أيها الشرطي!" علق هولمز موافقًا. ذهب إلى

الطاولة وبدأ يصب البقية الباقية من الماء في الإبريق على يده المتسخة، ثم جفف يده في منديله القماشي.

"سأكون ممتنًا لك إن استطعت أخباري بكل ما تستطيع تذكره عن الرجلين بينما نأخذ جولة قصيرة حتى ناصية الشارع"

نظر هاوي نحو ليستراد وبوتر. استطعت بكل وضوح رؤية فم بوتر وهو في بداية أن يشكل اعتراضا ما، لكن لحسن الحظ سبقه ليستراد وقال صارخًا "فلتذهب إذًا" قبل أن يستطيع رفيقه أن ينطق ببنت كلمة.

ينتهي شارع لينهوب حين يقابل ايفوري بلاس. نما خطر رفيع من العشب في الأرض الموحلة التي التفت حول جدار آخر منزل في الطريق حيث قادنا الشرطي هاوي.

"كانوا يقفون هنا يا سيدي" مشيرًا إلى الجزء المليء بالعشب. "الاثنان الأكثر طولًا كانا يستندان إلى الجدار، بينما الأصغر حجمًا يقف في مواجهتهم، كما كانوا يتناوبون الشرب من الزجاجة فيما بينهم، لكنهم كانوا يتحدثون في هدوء ويضحكون بألفة"

"أحدهم كان أقل حجمًا بشكل ملحوظ؟" تساءل هولمز. "هل استطعت أن تراه بوضوح؟ الرجل الذي كان يقف في مواجهتهم؟"

فعلت يا سيدي. وقفت عند الطرف الأخير من الشارع

لحوالي دقيقة لأتأكد من أنهم يستطيعون رؤيتي وأعلمهم أني أراهم أيضًا. الرجلان اللذان كانا في مواجهتي توقفا عن الكلام، والرجل القصير التفت ليرى سبب توقفهم. ورغم أنه أدار وجهه بسرعة إلا أني أستطيع التعرف على ثلاثتهم حتى وإن لم يساعدونني في كسر الباب"

صفق هولمز بيديه "رائع! أتنبأ لك بمسيرة عمل ناجحة في سلك الشرطة يا هاوي إن كان هذا مستوى تأديتك لعملك في المعتاد، لكن" تابع قائلًا وهو يضيق عينيه مستمدًا التركيز "ربما تستطيع وصف الرجل القصير لي؟ بأكبر قدر ممكن من التفاصيل التي تذكرها من فضلك"

كنت في حيرة من تركيز هولمز على هذا الرجل بالتحديد، وشككت ما إذا كان وصف هاوي سيأتي بأي نفع على هذه القضية. خمس أقدام ونصف حليق الوجه وشعره بني اللون، يرتدي بدلة بنية اللون وقبعة. يمكن أن يكون أي رجل من الشوارع المحيطة من المئات أو الآلاف في لندن.

"أترغب في وصف للرجلين الآخرين سيد هولمز؟" تساءل هاوي لكن هولمز هز رأسه في حزم وهو ينحني على الشريط العشبي.

"أنت متأكد أنه لم يكن هناك شخص آخر في المنطقة لا ينبغي له أن يكون هنا؟" تساءل بعد برهة. "لم ترى أحدًا يتصرف بشكل مريب أو بدا في غير مكانه؟"

"لا أحد يا سيدي، كانت الطرقات صامتة كالقبور"

جفلت من اختيار هاوي غير الموفق للكلمات، لكن

هولمز بدا راضيًا.

"وهل رأيت أيًا من هؤلاء الرجال من قبل؟"

"الاثنان الأكبر حجمًا نعم سيدي، لا أستطيع القول إني أعرف أسماءهم لكنهم يسكنون هذه المنطقة. أحدهما يعمل صائد فئران من وقت لآخر. والآخر اعتاد أن يكون بحارًا إن كنت أتذكر جيدًا. لكنه لا يفعل الكثير الآن. لكن القصير جديد على المنطقة رغم ذلك. لم أره مسبقًا"

وقف هولمز على قدميه وهو ينفض بعض التراب الذي علق بيديه. "أشكرك أيها الشرطي، لقد قدمت معلومات مفيدة جدًا"

"أظن أننا رأينا ما يكفي هنا" قال مخاطبًا المحققين. إن استطعت أن تجعل العثور على هؤلاء الرجال الثلاثة من أولوياتك، خاصة الرجل القصير، أعتقد أنه من الممكن تمامًا إثبات براءة واطسون بالشكل الذي يرضي سكوتلاند يارد"

بالطبع كلمات هولمز كانت مثل الطرب لأذني، لكني كنت أعلم من التجارب السابقة أنه لم يكن ليوضح نفسه قبل الأوان. على الاكتفاء بنظرة جانبية أو أقل تلميح بابتسامة.

مع ذلك، بوتر لم يكن واثقًا جدًا. "هل لنا أن نسأل لماذا من المهم العثور على هؤلاء الرجال الثلاثة من الحثالة؟ هل تزعم الآن أن أحدهم قتل السيدة ماكلاكلان، ثم انتظر في الجوار ليكون حاضرًا عند اكتشاف الجثة؟" ضحك ببرود "هل تنكر أحدهم أيضًا كفتاة شابة واستدرج

واطسون بنفاقه؟"

تجاهل هولمز بوتر ببساطة والتفت إلى ليستراد، وأعاد اعتقاده أنه قد يقدم حلًا للقضية إن تم العثور على الرجال الثلاثة.

تلون وتلوى وجه المحقق عند سماعه طلب هولمز. "إنها ليست قضيتي سيد هولمز" بدأ كلامه معتذرًا. "أنا هنا فقط بصفة غير رسمية، أتذكر. لكن.." تابع قائلًا وهو ينظر مباشرة إلى بوتر. "أنا متأكد أن المحقق بوتر لن يسمح بتفويت أي دليل محتمل، أليس كذلك محقق؟"

نظر بوتر لثلاثتنا وقال "لست بحاجة أن تخبرني بعملي أكثر مما أحتاجه أيضًا!" نقر يديه في اتجاه هولمز وقال "إن استطعت الاستغناء عن رجل ما سأوليه هذه المهمة، لا تقلق"

"سنسعى جاهدين ألا نفعل ذلك" قال هولمز بعدم اهتمام. "ربما هاوي هنا يمكنه أن يكون الرجل لهذه المهمة؟ يبدو رجلًا واعٍ ومهتمًا بالتفاصيل، كما أنه يعرف اثنين من الرجال بالفعل"

ضاقت أعين بوتر من الانزعاج، لكن في النهاية أومأ برأسه في إشارة لموافقته. "لك ما أردته. أيها الشرطي هاوي، غدًا مهمتك أن تعثر على الصعاليك الثلاثة. أكره أن يشعر الدكتور واطسون أنه لم يحصل على كل المساعدة الممكنة في محاولاته الهروب من حبل المشنقة"

لم يبد سعيدًا لقيامه بهذا التنازل، لكنه تمكن من تحويل التجهم على وجهه إلى ابتسامة مقتضبة قبل أن

يودعنا متمنيًا لنا جميعا يومًا مثمرًا. شاهدته يمشي مبتعدًا عنا عائدًا إلى عربته. سار بظهر مستقيمًا وبرأس مرفوع على الرغم من الأمطار التي اشتدت قوتها منذ الصباح، يمكنني تخيل قطرات المطر وهي تتساقط من طرف قبعته على وجهه، وأتخيل رفضه أن يؤثر عليه شيء غير ذي أهمية مثل الطقس.

تأملت بحزن، أن إقناع رجل مثله أن يغير رأيه لن يكون مهمة بسيطة. حتى بعد اكتشاف سلاح الجريمة، واقتناع هولمز الواضح أن الحل يكمن مع الصعاليك الثلاثة المفقودين، أجاهد لأقنع نفسي أن كل شيء سيكون على ما يُرام في النهاية. ليس مع تعنت المحقق بوتر الذي يقف بيني وبين هذا الاستنتاج السعيد.

انعكست أفكاري على الأمطار التي حولت لندن إلى اللون الرمادي. شاهدت بوتر يختفي وسط الغيوم الكئيبة. وتمنيت بلا جدوى أنني لم أدخل شارع لينهوب على الإطلاق.

الفصل الرابع عشر

فحص هولمز كل ما يريد في مسرح الجريمة، لذا تركنا ليستراد وهاوي ليغلقوا الغرفة بينما سرنا سويًا تحت الأمطار نحو شارع بيكر، كل منا تائه داخل أفكاره.

كنا قد قطعنا نصف المسافة عندما توقف هولمز فجأة. ظننت انه لمح عربة ما لنستأجرها، لكن بصراحة كان الطريق خال من العربات، بل في تلك اللحظة بالذات استدارت عربة عند زاوية الطريق. مذهولًا من قدرة صديقي على توقع متى سيظهر فرسًا في الأفق، أشرت للسائق أن يتوقف وصعدت بينما هولمز في أعقابي.

"شارع بيكر أولًا ثم قصر شيشام من فضلك" تحدث هولمز قبل أن أستطيع أن أنطق ببنت شفة. نظرات إليه وقام هو بالشرح.

"قصر شيشام هو عنوان الميجور سير روجر ماكلاكلان. بعد أن أرسلت الكلاب البوليسية التابعة لسكوتلاند يارد بحثًا عن ثلاثة من الصعاليك، فكرت أن نذهب سويًا لنقابل واحدًا من علية القوم"

ابتسم وهو يدق بأصابعه على ساقه اليسرى ثم انحنى إلى الأمام وشرح خطته.

عندما وصلنا إلى منزل ماكلاكلان كان هولمز قد أنهى شرحه. كان ينوي التظاهر أنه المحقق أليكساندر الذي تم إحضاره من خارج البلاد لمساعدة بوتر في هذه القضية ذات الأهمية القصوى الحيوية. وبطبيعة الحال كنت ألعب دور الرقيب المخلص.

"الإطراء يا واطسون، إنه مثل اللحم والشراب للسياسي" قال مستنتجًا بابتسامة. "لكن تذكر دائمًا أن ماكلاكلان مشهور بشيئين. أولًا أنه شديد الغيرة على اسم عائلته، ويشاع أنه قتل زميلًا له في مبارزة بعد أن سمعه يستخف بالقدرات العسكرية لابن عمومة له من بعيد من آل ماكلاكلان. ثانيًا، وعلى الرغم من أنها تبدو مرتبطة بأولًا، إلا أنه من المعروف عنه عدم تسامحه مع الزوار غير المدعوين. يقال عنه أنه ينافس أي رجل أثناء وجوده في البرلمان ـ حيث يتم الإشادة به كنائب كادح وودود ـ ولا يوجد من يضاهيه. يجب أن نتعامل معه بحذر.

كان منزل ماكلاكلان متميزًا، يتكون من عدة طوابق وعصري بشكل مدهش. توقفت عربتنا خلف عربة أخرى والتي تزينت بقرون آيل. قام هولمز بمسح الجزء العلوي من القبعة التي أخذها من منزلنا في شارع بيكر، راسمًا تعبيرًا بائسًا على وجهه قبل أن يطرق الباب بخجل.

مر بعض الوقت الذي كان كافيًا ليجعلني أتساءل إذا ما

كان هناك أحد في المنزل من الأساس قبل أن يفتح الباب رئيس خدم مسن متسائلًا في صوت ضعيف لكن رخيم عما نريده. شرح هولمز المهمة الوهمية الشُرَطية التي أتينا من أجلها، وتبعنا رئيس الخدم إلى الداخل.

وقف الميجور سير كيمبل ج. ماكلاكلان موليًا ظهره إلى نيران بدأت تخمد ألسنتها بينما أُدخلنا إلى غرفة استقبال مزينة بشكل غير اعتيادي. كل شبر من الجدران كان مزينًا برأس حيوان محنط، أو مجموعة مختارة من السيوف والخناجر والمسدسات. كان اختلاط العيون الميتة بالنُصُل والأسلحة غير مريح ويشي بذوق محل تساؤل في رأيي.

ويمكن قول المثل عن الميجور بكل صراحة. هو رجل طوله ست أقدام ونصف، مع شعر متسم بالترف وبقايا ما كان يومًا رأسًا مليئًا بالشعر الأحمر المجعد الذي لم يبق منه الآن سوى بعض النقاط هنا وهناك على رأس أصلع مثل أكوام القش في حقل قمح مُمَنجل. ارتدى الزي الكامل لميجور هايلاند منذ خمسين عامًا ماضية، مع سروال من الترتان ومعطف أحمر اللون مزين ببروكاد ذهبي. كما وضع عدسة أحادية على عينه، نظر إلينا منها بازدراء لم يخفه، كان الأمر كما لو أن كاريكاتيرًا من "بنش" قد انبثقت فيه الحياة.

"حسنًا إذا؟" قال نابحًا قبل أن يتسنى لأحدنا الفرصة ليتكلم. "يأتي أبناء الريف السُذج إلى المدينة ليحظوا ببعض المرح؟ هل الأمر هكذا؟ هاه؟"

ودون أن ينتظر ردًا حول اهتمامه برئيس الخدم الذي وقف خلفنا بخطوات، يقدم قدم ويؤخر الأخرى راغبًا بلا شك أن يكون في مكانٍ آخر.

"وأنت يا موراي.!! ماذا تفعل باستقبال هؤلاء القرويين الكادحين إلى منزلي! اغرب عن وجهي قبل ان أضربك بالسوط!"

ويا لدهشتي، فقد التقط محبرة من على رف المدفأة وقذف رئيس الخدم بها، الذي التف على كاحله بخفة واختفى بنهاية الرواق بينما تهشمت المحبرة على إطار الباب بجواري. كان أداءً مميزًا بالفعل.

ولكن هولمز كان رابط الجأش. نظر سريعًا إلى إطار الباب والمحبرة المنبعجة ثم جمع يديه معًا في تصفيق بطيء صاخب.

"بالضبط سير كامبل!" صرخ بقوة. "إنها الطريقة المثلى لمعاملتهم. إذا أعطيت الخادم إنشًا سينتهي بهم الأمر وهم يأخذوا فضيات العائلة!"

عبس ماكلاكلان، بينما عدوانيته تشي بعدم يقينه. "أتظن ذلك، أتظن أيها المحقق؟ هل لديك خبرة مع خدم هناك في «شيبينج» الصغيرة بجوار المارش، أو أيا ما كانت القرية الصغيرة التي تدعوها بيتك؟ ها؟ ها؟"

"خبرة كافية لنعرف أن المشهد الذي شهدنا عليه أنا والرقيب تم تأديته عدة مرات من قبل، وأنه لم يكن لديك أي نية لتؤذي رئيس خدمك، وهو يعرف هذه الحقيقة تمامًا. ولن أتفاجأ إن عرفت أنه على مرمى السمع، أليس

كذلك"

كانت عادة ماكلاكلان في إنهاء كل جملة بزوج من الأنفاس من أنفه مشتتة للانتباه، ولكن على الرغم من التكبر في كلماته، أتت نبرة صوته بالكثير من الاحترام.

"تظن هذا، أليس كذلك؟ وتظن أيضًا أنني سأتأثر بتحليلك؟ لقد رأيت رجالًا في الهند يدخلون السيوف بأجسادهم وشاهدتهم يأكلون العشاء فيما بعد، ورجال دين ينامون على فحم مشتعل بنفس الراحة التي سنشعر بها أنا أو أنت على فراش من ريش النعام. ماذا تكون ألعابك الطفولية مقارنة بهذا؟ ها؟ ها؟"

"لا حيل ولا ألعاب، أؤكد لك سيدي. إنما هي القدرة على ملاحظة كل ما يحيط بنا واستنتاج الحقائق منها. على سبيل المثال، هناك ما لا يقل عن سبعة عشر انبعاجا في مسافة قدم واحدة من إطار الباب هذا وليس في أي مكانٍ آخر. تأكد موراي أين يقف تمامًا بيننا وبين إطار البابِ عندما دخلنا إلى الغرفة، ووقف مستعدًا ليلتف فورٍ إلقائك المحبرة. والذي.." قال مستنتجًا بينما ينحني ملتقطًا المحبرة وهو يحملها أمام عينيه. ".. يشير إلى إشارات لا يمكن تجاهلها عن عدد المرات التي تم استخدامها فيها فيما سبق. أداء صمم لإزعاج الزوار غير المرغوب بهم بعبارات أخرى"

نظر ماكلاكلان إلى هولمز للحظة طويلة، ثم ابتسم وقال بصوت عادي، "موراي،" جاء رئيس الخدم من خلفنا واتخذ مكانه داخل الغرفة. "نعم يا سيدي." قال

متسائلًا. لم يكن هناك أثر للرجل ذي الصوت الرفيع منحني الظهر الذي استقبلنا وأدخلنا هذه الغرفة. حل مكانه رجل نحيف متوسط الطول، له شعر قصير ناعم، أصابه الشيب عند أطراف، وظهره في نفس استقامة ظهري. بالنظر سريعًا إلى وجهه، يمكنك أن ترى أنه لنفس الرجل لكن من المستحيل أن توفق هذا مع الآخر.

"ويسكي يا (ناداه برتبه عريف)، واحد لي والآخر للمحقق، وهل تناسبك البيرة أيها الرقيب؟"

"أخشى أننا لا نستطيع شرب الكحول في أوقات العمل الرسمية، لكن أظن الرقيب هنا قد يرغب في كأس أو اثنتين"

ولأن لم يكن هناك ما أقوله، لم أقل شيئًا، وبدلًا عن ذلك ذكرت نفسي أنه أمر جوهري أن يكتسب هولمز ثقة ماكلاكلان من أجل العثور على إجابات لأسئلته. ويبدو أنه كان يحرز تقدمًا لأن الميجور كان اجتماعيًا وأليفًا الآن بقدر ما كان عدوانيا منذ قليل.

"هذا ما ظننته،" قال ماكلاكلان بينما أعيد انتباهي وتركيزي إليه. "لديه تلك النظرة. رأيتها كثيرًا في الجيش، بالطبع. في هذه الحالة ويسكي لي فقط، موراي" أشار لرئيس الخدم بالانصراف، ثم قال "إذًا أنت هنا لتساعد بوتر، أليس كذلك؟ رجل صالح، لكن يبدو أنه لا يستطيع حل هذا الأمر المتعلق بعمتي سارة. هذا وهو يعرف كل شيء عن العصابات الذين يحومون في تلك الطرقات أكثر من أي رجل آخر، ربما أكثر مني"

"العريف موراي خدم تحت إمرتك لفترة من الوقت؟" تساءل هولمز بوضوح.

"موراي؟ بكل تأكيد، اثنان وعشرون عامًا في الفوج، وثمان سنوات كوصيفٍ لي. أنقذ حياتي قرب بيشاور، وعندما تم تسريحنا من الجيش، طلبت منه أن يبقى معي، شجاع مثل أسد ووفي مثل كلب صيد، وأظن أن الوفاء طريق يفضل أن نسلكه في الاتجاهين. أنا ائتمن موراي على حياتي، أو حياة أي شخص من أفراد عائلتي" قال ملخصًا وتركنا بلا أي شك أنه قد فهم الغرض من سؤال هولمز.

"فيما يخص عائلتك، ميجور" أكمل هولمز بلا خجل. "الفرد الأخير الذي يعيش معك هنا في المنزل هو أخوك، أليستر؟ أليس كذلك؟"

إذا كان ماكلاكلان سريعًا وواثقًا عند وصف العريف موراي، فقد كان على العكس تمامًا عندما فكر في أخيه. حتى تأكيده أنه يعيش معه كان مجهودًا واضحًا، تكاد الكلمات تحتاج من يسحبها منه سحب.

"نعم،" قال أخيرًا، ثم صمت قليلًا بينما أتى موراي بكأس الويسكي، أضاف الصودا وقدمها له على صينيه مصقولة من الفضة. مجرد أن رحل العريف رفع كأسه ليشرب قبل أن يسأل هولمز إن كان متأكدًا من أنى لا أريد كوب من الجعة. "في المطبخ على ما أظن؟ لقد خسرنا خادمة أو اثنتين لأن... لسبب أو لآخر، لكن الطاهية مازالت تستطيع أن تحضر شيئًا لإرضاء شهية رجل مثلك أيها

الرقيب، أنا واثق"

لو لم يضحك هولمز، كنت سأخرج فورًا أيًا ما كانت العواقب، لكن بدلًا عن هذا هز رأسه بقوة. "أحتاج الرقيب ليذكرني بمحادثتنا معًا، وهذا أفضل بكثير من كتابة بعض الملاحظات في مفكرة ما"

كان ماكلاكلان أبعد ما يكون عن الهدوء، لكن لأن لم يكن أمامه خيار آخر، فقد أذعن بشكل جيد.

"حسنًا أيها المحقق. لطالما اعتقدت أنه لابد من إعطاء الخبير كل ما يطلبه" أشار إلى زوجين من الأرائك المتشابهتين في ركن الغرفة. "أقترح أن نتخذ مجلسًا إن كان أخي هو محور الحديث"

مجرد أن جلسنا ـ وأنا معهم إرضاء لغروري ـ بدأ ماكلاكلان في الحديث بصوت خفيض لكن ثابت.

"ضل أليستر طريقه بينما كان شابًا، أيها المحقق، ولم يتمكن من إيجاد نفسه مرة أخرى" رفع يده ليتلافى اعتراض لم يأت. "أنا لا أحاول أن أكون شاعريًا، صدقني أنا لست رجلًا شاعريًا بطبعي. عندما أقول أن أليستر ضل طريقه، فأنا أعني ذلك حرفيًا"

"أترى، أن أليستر كان ابن المشيب، ولد بعد ان توقف والدينا عن توقع أي إضافة لعائلتنا. حينها كنت ملازم أول ومنطقة تمركزي بجوار كابول، وعندما بلغ أليستر مرحلة النضوج، كنت قد صنعت لنفسي مستقبلا من عملي في الجيش وعلى أن أعترف لم يكن لدي أي وقت ولا استعداد أن أعود لإنجلترا، حتى عندما توفى أبي.

"كان أليستر في السادسة من عمره في تلك المرحلة، وبعد وفاة والدي أصبح هو محط تركيز والدتي. دللته بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أيها المحقق، منغمسة دون علمها في كل نزواته وكل رذائله، مخبرة إياه في جميع الأوقات أن قدره هو أن يكون له شأن خاص. ربما لو أنني عدت إلى المنزل كانت الأمور للتغير؟ ربما أليستر كان سيصبح شخصًا مختلفًا؟ لكن لا فائدة من طرح أسئلة لا إجابات لها، وحقيقة أن أليستر انحدر لهذا الوضع السيئ بسرعة. في سن الثامنة عشر كان يصادق رجالاً من طبقة أقل منه بكثير، من المجرمين والأشرار، وعندما أصبح في العشرين من عمره رحل وترك البلد بأكمله، وفي أعقابه اثنين على الأقل من الآباء الغاضبين. لم أعرف أيًا من هذا إلا بعد عودتي من الجيش بعد عدة سنوات إلى منزل العائلة. كما أني لم أسمع عن المدة التي قضاها في أوروبا، وهي مجموعة معروفة بالانغماس في الملذات، حتى ملاهي الترف سيئة السمعة وأوكار المخدرات في إيطاليا وفرنسا. أنكرت والدتي أي أفعال خاطئة من ابنها الصغير المحبب، وماتت وهي تظن أنه رجل أعمال ناجح"

تداعى صوت ماكلاكلان بينما بدت نظرته تتعداني وهولمز، كما لو أنه يركز نظره على فترة حزينة من ماضيه. لم أكن لأتطفل على هذا الحزن الخاص جدًا، لكن هولمز لم يشعر بوخز الضمير هذا.

"عاد أخوك للمنزل بعد وفاة والدتك؟" تساءل هولمز.

رمش ماكلاكلان عيونه بقوة وأومأ برأسه. "قبل ذلك

بقليل في الواقع. يبدو أن حتى القارة أصبحت *ساخنة جدًا* بالنسبة له. لكن بعد وفاة والدتي لم يكن أمامه خيار آخر سوى أن يأتي إلي طالبًا الخدمات في تواضع. لم يكن له أي مصدر دخل آخر سوى المعاش السخي الذي ترسله له. لأني الأبن الأكبر فقد ورثت كل شيء بعد وفاة والدي، ورغم اكتفائي بمعاشي من الجيش وترك كل رأس المال لوالدتي طوال حياتها، لم يكن لدي نية لتقديم هذه المجاملة لأخي، الذي وصلتني أخبار انحلاله بمجرد أن وصلت أرض إنجلترا. كما أبلغته أن انغماسه في الملذات أتى لنهاية"

"وبقي تحت سيطرتك منذ حينها؟"

"لم أكن لأستخدم كلمة سيطرة، أيها المحقق، ربما (تأثير) تكون كلمة أفضل"

"الوصف غير هام، هل تحسن سلوكه؟"

لاحظت أن ظهر ماكلاكلان تشنج قليلًا من سلوك هولمز الرافض، وتعجبت أن هولمز نفسه لم يلاحظ. وحتى إن لم ينتبه، فإن رد ماكلاكلان كان من شأنه أن يحذره ليأخذ حذره في طرحه لأسئلته.

"لا أدري ما هي علاقة سلوك أخي في المنزل بمقتل عمتي" تسائل الميجور بنبرة باردة. "أليس هذا ما يجب عليك التحقيق بشأنه؟"

"لكنه أجبر خادمة أو اثنين لتقديم استقالاتهم، أليس كذلك؟"

احمر وجه ماكلاكلان بغضب حقيقي وصرخ متسائلًا،

"كيف لك أن تعرف ذلك؟"

"لم أعرف حتى الآن. لكنك ذكرت مشكله حديثة العهد في إبقاء الخادمات، العلاقة بين هذا وبين وجود شاب سيء السمعة في المنزل هي علاقة واضحة"

ترهلت أكتاف ماكلكلان ووضع كأسه الفارغ على الطاولة بيننا. "كان هناك حادثة أو اثنتين" اعترف في هدوء "أجبرت أن أجعل موراي يطرد خادمة"

"هل تم استخدام العنف؟"

الإحجام في صوت ماكلاكلان كان صريحا "كانت الادعاءات أن أليستر عرض عرضًا غير مناسب على إحدى الخادمات الشابات،" تمتم بصوت خفيض بالكاد يُسمَع. «أنا على يقين أن المسألة كلها اقتراحات وادعاءات، لا شيء أكثر من ذلك. ومنذ ذلك الحين تم اتخاذ إجراءات لمنع تكرار هذا الأمر. أستطيع أن أؤكد لك أن أخي تغير أيها المحقق"

"هممممم" كان هذا كل ما لدى هولمز ليرد به على ماكلاكلان، واضعًا يده على ساقيه المعقودتان فوق بعضهما وهو ينقر بإصبعه على ركبته، من الواضح أنه تائه في أفكاره.

"هل كان للسيدة ماكلاكلان لوحة مفضلة؟" جاء سؤاله بشكل مفاجئ.

عبس ماكلاكلان في ارتباك، لكنه رد بسرعه. "لماذا، نعم سيادة المحقق كانت تحب لوحة معينة. أهداها لها أبي. رسمها بنفسه، وكانت عزيزة جدًا عليها. مرسومة

بألوان مائية جيدة إلى حد ما، حتى إنها مشهورة إلى حد ما هنا لدرجة أنها متاحة كنسخ مطبوعة. في الواقع، هناك العديد من هذه النسخ في هذا المنزل"

"وهل كان أخوك على علم بهذه اللوحة؟"

"نعم، هو وآخرون"

"بالطبع" همهم هولمز لنفسه، "لقد قلت إن أخاك لم يكن له مصدر دخل عند وفاة والدتك. ومن المفترض أن ثروته قد تحسنت مؤخرًا؟"

بدا أن ارتباك ماكلاكلان يتزايد بسبب التغيرات السريعة التي يسلكها هولمز، والتي من الواضح أنها نية صديقي.

"هو... هذا ما... حسنًا، نعم، لقد تحسنت بالفعل. أليستر هو المستفيد الوحيد من وصية عمتي سارة وقد ورث ثروة جيدة عند وفاتها. كما كنت أقول، فهي لم يكن لها أولاد، ولم يكن الأمر سرًا أنه سيرثها عند وفاتها. لقد انتقلت لهذا المنزل عندما بدأت ذاكرتها في التدهور مع الأسف، وأجبرت على إبقائها في المنزل في جميع الأوقات. مع ذلك، فهي الأخت الكبرى، وعندما تكون في عقلها الصحيح فهي امرأة ذات موارد قيمة. انتقلت هذه الموارد الآن إلى أليستر، الذي أخبرني أنه سينتقل بعد أسبوع. لكن لماذا أنت مأخوذ بهذا الشكل بأخي أيها المحقق؟ سبق وأخبرتك أنه قد تغير كثيرًا. أليس من الأولى أن تصب اهتمامك بهذا المخلوق البشع، واطسون؟ أخبرني بوتر أنه القاتل بلا شك. من النوع المقامر كما يبدو، قتل عمتي كسداد لديونه لإحدى العصابات التي لا

يشغلها إلا أن أوقف تحقيقي في نشاطاتها"

لم أحتمل هذا الوصف حتى إن جسدي تشنج، لكن لحسن الحظ أن الميجور ماكلاكلان قد نسي وجودي منذ وقت طويل. ولم يعر أي شيء خاطئ انتباهاً. على أي حال، بالكاد سمح له هولمز أن يكمل كلامه قبل أن يُكمِل التحقيق.

"يبدو أنك تضع قدرا كبيرا من الثقة في المحقق بوتر"

"بالفعل. لقد أثبت كونه رجل ذو مبدأ"

"المبادئ مهمة لك بالطبع"

"كما يجب أن تكون لكل رجل!"

"بالطبع، والمحقق بوتر رجل ذو مبدأ في رأيك؟"

"ألم أقل هذا توًا؟ وهذا ليس مجرد رأي، يمكنني أن أضيف أن حسن نواياه لا يمكن دحضه"

فكر هولمز في هذا التعليق الأخير للحظة قبل أن يكمل تحقيقه لكن في مسار مختلف تمامًا.

"فيما يتعلق بعملك مع المحقق بوتر سير كامبل، لقد كنت مسؤولًا عن تمرير العديد من القوانين في مجلس العموم فيما يتعلق بأنشطة العصابات"

"لقد فعلت"

"أخشى أني لم أكن متابعًا جيدًا للأخبار من العاصمة كما يجب علي. هل أنا محق عندما أقول إنكم ركزتم جهودكم في المقام الأول على العصابات الآسيوية؟"

"هذا هو الحال بالفعل. بالحديث مع رجال الشرطة القدامى، وضح لي أنه يجب علينا القضاء على الأخوة

الإجرامية التي تأتي إلينا من خارج شواطئنا قبل الانتقال إلى ما يمكن تسميته مثيري الشغب المحليين"

"لأن الأساليب التي يجلبونها معهم غريبة علينا وأكثر صعوبة للشرطة من الحد منها؟"

"هكذا بالضبط" هذا النوع من الأسئلة كان مما يروق أكثر لماكلاكلان حتى أنه بدأ يهدأ ويعود مرة أخرى لدماثته الأولى، بالضبط كما قصد هولمز.

"وهل أثبت هذا النهج نجاحه؟"

"أتعجب من سؤالك أيها المحقق، من المؤكد أن أخبار نجاحاتنا قد وصلت حتى أبريشية بلدتك"

"هكذا تمامًا، سير كامبل، هكذا تمامًا. لا أطلب سوى التوضيح. لكن الآن، إذا كان بإمكاننا العودة إلى مسألة الخادمات المعتدى عليهن، أتساءل ....."

"هولمز! ماذا تفعل هنا بحق السماء؟"

تردد صوت بوتر في أرجاء الغرفة. وقف في المدخل محمر الوجه مطبقًا قبضتيه في غضب، يقف بجواره شرطي.

"هولمز...؟" تردد نظر الميجور ماكلاكلان بين بوتر وبيننا، والارتباك بادٍ على وجهه. "ما معنى هذا يا بوتر؟ هذا المحقق أليكسندر ومساعده.. أو هذا ما قادني لأعتقده!"

وقفت بسرعة وأنا أشعر بالشر في كل شبر من جسمي وأنا يغمرني الشعور بالاختناق والإحراج. من الغرابة أن أقول إني قد نسيت كليًا أننا ضيوف في هذا المنزل تحت هويات مزيفة. وبدأت أصدق أني المساعد الموثوق به

للمحقق أليكساندر. لم يتبادر إلى ذهني أي عُذر. أظن أني كنت سأظل واقفًا بعاري في صمتٍ لولا أن وقف هولمز وانحنى انحناءة سريعة لماكلاكلان.

"أعتذر عن هذا التَضلِيل، سير كامبل، لكن فرصة أن أتحدث لك كانت مهمة للغاية. كما قلت بنفسك للتو، المحقق بوتر قد أغلق عقله لأي احتمال آخر لنظريته القاصرة. وبفعله هذا، أخشى أنه سيدع القاتل الحقيقي لعمتك بالفرار، ويرسل رجلًا بريئًا ومحترمًا إلى حبل المشنقة"

"رجلٌ بريء....." قد يحب ماكلاكلان أن يقدم نفسه كرجلٍ مريب السلوك لزائريه، لكنه لم يصل إلى رتبة رائد في الجَيش البريطاني، ونجا كبرلماني في الجو العدائي لمجلس العموم دون درجة عالية من الذكاء والفطنة. انتفض وتحرك تجاهي قائلًا. "أنت! أنت واطسون! كيف تجرؤ يا سيد!! موراي! مورااااي!"

لم تكد الكلمات تغادر فاهه حتى ظهر وصيفه السابق بجوار بوتر. "نعم سيدي!" تساءل في هدوء.

"رافق هؤلاء المنافقين إلى الخارج على الفور ولا تكلف نفسك أن تكون لطيفًا جدًا. لا يُسمَح لهما بدخول هذه الجدران مرةً أخرى! وأنت!" صاح في هولمز. "فلتعتبر نفسك محظوظًا أني لم أسحب أحد هذه الأسلحة من على الجدار وأطلق النار عليك!"

شاهد بوتر المشهد بابتسامة، لكنه تقدم ليضيف وجهة نظره. "كنت سأقبض عليك بتهمة انتحال شخصية ضابط

شرطة، لولا أنك تسرع لاستدعاء أناس من ذوي النفوذ عند أول علامة من المتاعب. رجال الشرطة الحقيقيون ليس لديهم الوقت لإضاعته في التمثيل الأحمق يا سيد هولمز مهما بدا لك الأمر كيديا"

اقترب موراي منا، ولكن قبل أن يستطيع أن يضع يده على أي منا، تساءل هولمز بسرعة. "هل لديك سكين كوركي في مجموعتك، سير كامبل؟"

متفاجئًا بالسؤال على ما أظن، رد ماكلاكلان بآلية. "لدي العديد منها، على الرغم من أن واحدًا فقط في حالة ممتازة"

تراجع موراي خطوة للوراء، بينما عبس ماكلاكلان من فرط الاستفزاز، وأصبح من الواضح أنه وجب علينا الانصراف فورًا. تبعتنا ابتسامة بوتر المعتدة بنفسها ونحن نشق طريقنا خارج الغرفة بما تبقى لنا من كرامة. كان المتبقي منها قليلًا كفاية.

امتلأت بحماسة متوترة ونحن في طريق عودتنا لشارع بيكر.

"أخيرًا لدينا مشتبه به، هولمز! أليستر ماكلاكلان كان لديه الوسائل والدافع لقتل عمته، يستطيع الوصول إلى السكين المستخدم لقتلها... ألاحظت أن الميجور قال إن واحدًا فقط من النماذج في مجموعته كان لا تشوبه شائبة. ثم هناك المال الوفير الذي سيرثه عند وفاتها"

"هذا صحيح وسنقوم بتقديم هذه النظرية للمحقق بوتر في الوقت المناسب،" رد هولمز بإيجاز وبحماس أقل مما

توقعت. "لكن ألا يفاجئك أن السيد ماكلاكلان اختار أن يجر عمته العجوز عبر البلدة ليقتلها، بدلًا من القيام بذلك في غرفة نومها الخاصة، حتى لو كان يائسًا للغاية للهروب من قبضة أخيه الأكبر عليه لدرجة أنه لم ينتظر عاما أو اثنين لتأخذ الطبيعة مجراها الحتمي؟ وما الدافع وراء توريطك أنت في هذه الجريمة؟ أم هو ساخط للغاية بشكل مريض؟"

كانت أسئلة جيدة. الأول كان أقل أهمية، لم نجد أنا وهولمز أن خطط القتلة غير منطقية في العديد من المرات؟ لكنني لم أستطع تصور السبب الذي قد يجعل أي فرد من آل ماكلاكلان يتمنى لي الأذى، ناهيك عن عاري وموتي. لقد فكرت في الأمر قليلًا بينما كنت في السجن، لكن لم أستطع الوصول إلى مناسبة واحدة تقاطعت فيها طُرُقنا.

"ومع ذلك، هذا لا يعني أنه سيتم استبعاده كليًا" قال هولمز بعد أن لاحظ إحباطي، وكان تواقًا ليبعث لي ببعض الطمأنينة. "حتى وإن لم يكن القاتل، عمل على الأقل بصرف انتباه بوتر قليلًا عن انتقامه منك"

ومرة أخرى، ما بدا لي أنه إنجازًا في التحقيق، لم يكن سوى محاولة إلهاء، لكني لم أسمح لنفسي بالاعتقاد أن هذا لم يعن شيئًا مطلقًا، وعلى أن أكون راضيًا في الوقت الحالي، وأملت أن تأتي الأيام المقبلة بتقدم ملموس.

الفصل الخامس عشر

في الواقع، كان اليومان التاليان يفتقران تمامًا للأحداث. أطلق هولمز حشده من الأطفال المساعدين في أثر الفتاة المفقودة. وعاد بي مرارًا وتكرارًا لأحداث تلك الليلة، آملًا في الكشف عن جزء ولو صغير جدًا من عقلي المرهق، لكن دون أي نجاح. خلاف ذلك، أكلنا وشربنا ودخنّا وقرأنا وتحدثنا. تمامًا كما كنا دائمًا. كان الأمر يدعو للاسترخاء بشكل رائع، حتى وإن لم أستطع منع نفسي من القلق أن التحقيق قد توقف.

ولكن في اليوم الثالث، ظهرت السيدة هادسون في مدخل الباب ويختبئ وراءها ظلٌ ما.

"لديك زائر، سيد هولمز" أعلنت باستنكار، وهي تسحب صبيا من طوق ياقته وتضعه أمامنا.

"ادخل يا ويجينز" قال هولمز وهو يحث الفتى على التقدم مبعدًا ساقيه الطويلتين إلى جانب واحد سامحًا للحرارة المنبعثة من المدفأة بتدفئة الصبي. "ألديك أخبار لي؟" تساءل بنفاد صبر.

"لدي بالفعل يا سيدي المدير" أقر العربي الصغير وهو يشب ليظهر طوله كاملًا، أربعة أقدام وعشرة إذا عاملناه بإشفاق. "الرجل الذي تبحث عنه؟ سيكون حاضرًا مصارعة الفئران الليلة، خلف حانة أوروورك"

"ممتاز!" صاح هولمز، مصفقًا يديه سويًا في سعادة. أخرج شلنًا من جيبه، ونقره نحو ويجينز الذي انتزعه بمهارة من الهواء.

"أستطيع أن أخبرك أين هو الآن إذا كان هذا سيساعدك أكثر؟" قال الفتى وهو يلمح جيب معطف هولمز بنظرة أمل.

"أتوقع أنه في مكان من أسوأ بقاع لندن" رد هولمز. "هذا ليس نوع الوقائع التي أحرص على التحقيق بها دون أن تكون نصف شرطة المدينة ورائي. لا يا ويجينز، معلومتك المتعلقة بنشاطه الليلة لا يقدر بثمن بالفعل"

صرف الصبي، بعد ان ذكره أن يبقى "الأمر الآخر" في باله، ثم التقط غليونه وجلس بشكل مريح على مقعده.

"قد نأخذ راحتنا في الوقت الحالي، واطسون، لأننا لن نفعل شيئًا حتى هذا المساء. مع ذلك، إن أمكنك أن ترسل برقية إلى ليستراد تطلب منه أن يقابلنا في حانة الأوروك في العاشرة مساءً، سأصبح ممتنا لك. أوه، واطلب منه أن يحضر هاوي معه. قد نحتاج إلى قوته البدنية."

كنت بحاجة لشراء التبغ على أية حال ـ كنت أدخن أكثر من المعتاد منذ إطلاق سراحي، ربما كردة فعل على نقص النيكوتين في السجن ـ لذا ارتديت سترتي واتجهت نحو الشارع المشرق البارد.

في تلك الليلة، اقتربت أنا وهولمز من حانة أورورك متنكرين في هيئة عُمال. أعترف أنى لم أكن مرتاحًا تمامًا من فاعلية حيلتنا. لأنه على الرغم من أن هولمز بدا مثل بائع خضار متجول، كنت متأكدًا من أنه سيتم كشف أمري فور وقوفي أمام أحد المتفرجين الحقيقين.

لم يكن على أن أقلق. لم يلق أحد علينا نظرة ثانية، بينما تبعنا صف نحيف من الناس بجوار جانب المبنى، أسفل ممر محاط بالجانب الآخر بسور خشبي عالٍ. مجرد أن أخلينا حوائط المنزل العام، انفتحت فرجة من مساحة النفايات الكبيرة. تجمع مجموعة كبيرة من الناس في المنتصف.

نُظِم الحشد حول بئر ضحل، يلتف حوله مجموعة متنوعة من الألواح الخَشبية المائلة. تم تكديس أقفاص الخوص ـ صغيرة للغاية بالنسبة للكلاب ـ على ارتفاعين على جانب واحد، تحركوا قليلًا وأنا أشاهدهم، على الرغم من أن الليل كان ساكنًا. أثير فضولي، وشققت طريقي لأنظر إلى الداخل. بينما شيئًا يتحرك في الظلال. فجأة، برز جزء من السلك الأمامي للقفص عندما اصطدم به فأر ضخم. تعثرت للوراء وخطوت على حجر متحرك. التوى كاحلي على الحجر وسقطت على الأرض الملوثة، ممتن كوني متخف وغير مُلاحظ.

"بربك، إن كنت لن تتحمل الشرب بيل، لا تأخذ واحدًا في المقام الأول!"

امتدت يد ما لي وسحبتني من مقدمة معطفي، وأوقفتني

على قدمي. "من الأفضل يا واطسون أن تتجنب جذب الانتباه لك" همس هولمز في أذني، ثم أرشدني وهو يحركني من مرفقي نحو البئر المتسخة.

من الواضح أن الحدث كان على وشك البدء، لأن الحشد ضغط بشدة من حولنا، مما أجبرنا أن نصل لحافة البئر. بينما ننتظر، فحصت الناس من حولي. ولدهشتي، لم يكونوا مجموعة الغوغاء المجرمين المتجانسين التي توقعتها، بدلًا من ذلك مثلوا طيفا من أطياف الحياة في لندن. بائع الخضروات المتجول ذو السروال المهلهل كان يفرك كتفيه بفظاظة مع السادة ذوي القبعات العالية، أطفال حفاة يتجولون بين مجموعة صغيرة من الرجال المحترفين، يغمسون منديلًا حريرًا حيثما استطاعوا، في حين أن أسوأ نوع من المخمورين تلألأت عيونهم بمزيج من الحقد والحسد على سيدة المجتمع المؤقتة التي تدلت من ذراع مُرافقها وهي تهنئ نفسها على جرأتها الرهيبة.

تذكرت المعارض والسيرك في شبابي، وإن كان ذلك بشكل فاسد، وهو تشابه لا يعززه سوى صوت يذكرنا بسيد الحلقة، الذي رن عبر الباحة من مكان ما خلفنا. التفت لأرى من أمر بهذا الصمت، لكن لم يكن على أن أكلف نفسي لأن الحشد افترق مفسحًا الطريق أمام شخصًا أسمر البشرة مرتديًا معطفًا ممتلأً ببقع دهنية وقميص أرمد بلا ياقة. وطأ فوق السور الخشبي الذي طوق البئر وانتقل إلى وسطها.

"سيداتي وسادتي، أهلًا ومرحبًا بكم في برنامج الليلة

الترفيهي" صرخ وهو يلوح يده نحو اثنين من المتفرجين ذوي السمعة السيئة على وجه الخصوص. أبعدوا أنفسهم عن السور الذي كانوا يميلون عليه، واختفوا خلف مبنى خارجي، وعندما ظهروا مرة أخرى كان كل منهما يقود كلبًا على طول حبل.

الكلب الأول كان كلبا قصير الشعر لونه رمادي، صغيرا ونحيف البنية، لكن فضولي الطبع والسلوك الذي ظهر في تشمم كل شخص مر بجواره وسحبه للحبل بفراغ صبر. والآخر كان نوعًا مختلفًا تمامًا من الحيوانات، أسود فاحما، مع عين واحدة سوداء تتوهج بالحقد، كان من نوع البول دوج، ممتلئ الجسم والأرداف، وله فك قوي.

هلل الحشد وهم يقتربون من الحفرة، واستغللت الفرصة لأبلغ هولمز باحتجاجي.

"علي أن أقول، هولمز، لم أتوقع أن يطلق سراحي من السجن لأقضي أمسياتي في مشاهدة تلك الحيوانات الغبية تقاتل حتى الموت، أليس علينا ان نتحرك حول الحشد لنجد الصعلوك المفقود هذا، لنتحدث إليه مباشرةً؟"

امتعض هولمز وهز رأس. "صبرًا يا واطسون،" وبخني وتابع «لقد حددت من هو رجلنا بالفعل. إنه أحد هؤلاء المتشابهين في تعاستهم، يتلذذ مع العديد من النساء المشكوك في أخلاقهن على الجانب الآخر من الحفرة»

نظرت للجانب الآخر، لكن مجموعة من الرجال السكارى كانت متطابقة مع مجموعة أخرى، لذا قبلت ببساطة أن هولمز كان على حق. في تلك الحالة، كانت

خطوتنا التالية واضحة.

"ألا يمكننا التحدث إليه الآن؟"

"من شأن ذلك أن يكون صعبًا. كما ترى، نحن محاطون بحشد من هذا الجانب، ومحتجزون بشكل مماثل من الجهة الأخرى. علينا أن ننتظر فجوة بين المباريات قبل أن ندخل في أي مواجهة"

كان لديه حق. بالكاد أستطيع التحرك بسبب سحق الأجساد من حولنا، وعندما تم دفع الكلب الرمادي النحيف إلى الحفرة، دفع المشاهدون الذين خلفنا أنفسهم للأمام لرؤية أكثر وضوحًا، لم تكن هناك طريقة في الوقت الحالي لنقترب من الصعلوك.

على الأقل كان لدينا رؤية ممتازة "للرياضة" المعروضة، رغم أن هذا في رأيي كان منحة مختلطة. تم إسقاط الكلب في الساحة الغارقة واتخذ موقعًا في المكان المحدد، حيث يقف الآن، ورأسه يتلفت للأمام وللخلف في انتظار إطلاق سراح فريسته.

لم ينتظر الحيوان الصغير كثيرًا. بزهو مد سيد الحلقة يده إلى أحد الأقفاص التي فحصتها في وقت سابق وأخرج فأرًا ضخمًا بني اللون، والذي ألقاه بسرعة داخل الحفرة بجوار الكلب. للحظات، تابع كل حيوان الآخر بعينيه، ثم قام الفأر (الذي كان في حجم الكلب تقريبًا) بالتقدم للأمام بسرعة. قفز الكلب بذكاء إلى أحد الجوانب أغلب الوقت مما جعل الفأر يصطدم بأحد الحواجز الخشبية. كرر الكلب هذه المناورة مرة تلو الأخرى، حتى بدأ الفأر

في التباطؤ تحت وطأة الإرهاق والضربات المتكررة. فجأة اندفع الكلب إلى الأمام وقبل أن يتمكن الفأر من المقاومة أمسك به الكلب من حلقه وانفك ينهشه وهو يحركه للأمام وللخلف. لم يمض أكثر من خمس ثوانٍ قبل أن يطلق الكلب الصغير فريسته التي كانت ميتة تمامًا الآن.

تم تكرار نفس تسلسل الأحداث نصف دزينة من المرات، مع لحن من الانتصار والهزيمة على حد سواء من الأخوة المقامرين حولنا، قبل إزالة الكلب من الحلبة واستبداله بالكلب البولدوج الأسود.

في خضم الضجة التي صاحبت هذا التغيير، سحبني هولمز من معطفي واندفعنا في طريقنا عبر الحشد، هولمز متقمصًا شخصيته وهو يسب أي شخص يقف في طريقه بينما كنت في أعقابه.

كنا قد قطعنا ثلث المسافة باتجاه هدفنا عندما دعا سيد الحلبة إلى الصمت مرةً أخرى وأطلق الفأر الأول. غير قادرين على التقدم أكثر، وقفنا نشاهد البولدوج قوي البنية، ممتنعًا عن المناورة مثل الكلب الآخر، انتظر ببساطة أن يهاجمه الفأر وما إن أصبح في نطاقه التقط القارض بين فكيه وهشم رأسه مثل بيضه.

"سهلٌ جدًا؟" صرخ سيد الحلبة. "دعونا نجعل الأمر أكثر إثارة، أليس كذلك؟" مع ذلك، ألقى فأرًا ثم تبعه بحفنة أخرى من الفئران في الحلبة. ارتفع هدير الحشد الذين اندفعوا مرة أخرى للأمام ضاغطين معًا عن كثب في دفعة حماسهم لدرجة أنهم تركوا فجوات صغيرة وراءهم،

والتي انزلقنا منها أنا وهولمز.

كنا قد اقتربنا من الصعلوك مسافة عشرة أقدام قبل أن تتلاقى أعيننا وتنبهه حاسته السادسة ليختفي وسط أقرب مجموعة.

"إنه يهرب!" صرخت في هولمز، لكنه كان قد توقع حركته بالفعل. باندفاع قوي، قام بدفع كل من وقفوا بجوارنا جانبًا وخرجوا من مؤخرة الحشد على بعد أمتار قليلة من طريدتنا. اقتلعت نفسي في الوقت المناسب لأرى هولمز يخطئ في إمساك ياقة الصعلوك.

تسبب خطأه في أن يفقد التوازن ويسقط على ركبة واحدة في الأرض الموحلة. قام على الفور لكن التأخير سمح للصعلوك أن يوسع الفجوة بينهما إلى خمسة عشر قدم عندما بدأ هولمز في مطاردته مرّة أخرى، لم يكن أمامه سوى مسافة قصيرة قبل أن يبتعد عن الأنظار عند الزاوية ويصبح بمقدوره الاختفاء بين المحيطين بنا.

سرعت من وتيرتي، لكن مجموعة صغيرة من المتفرجين الذين فقدوا اهتمامهم بالرياضة المعروضة قطعوا طريقي في أكثر اللحظات غير المناسبة، وظل مخفيًا عن نظري حتى مروا. عندما تفرق الحشد من أمامي، استطعت أن أرى أن هولمز سيفلح في الإمساك به وكنت ألعن حظنا التعيس في قرارة نفسي قبل أن يظهر الشرطي هاوي في طريق الصعلوك، وبضربة واحدة سريعة أرسله مترامياً الأطراف على ظهره. في أعقابه مباشرة أتى المحقق ليستراد راكضًا، توقف وهو يلهث قليلًا فوق الشخص المستلقي في ألم

على الأرض.

"قم يا هذا!" قال عندما وصلت إلى المكان متأخرًا بخطوة عن هولمز. أمسك هاوي بالصعلوك من ياقته ورفعه على قدمه، كان غير مستقر بعض الشيء والذي كان متوقعًا، لكنني تساءلت ما إذا كانت حواسه فسدت بسبب الضربة لأنه كان يتمايل من جنب إلى آخر وهو يبتسم فينا مثل الأحمق.

"مارتن شيلتون سميث في خدمتكم، يا حضرات" قال وهو يقدم انحناءة احترام، بعد أن ألقى نظرة غير مستقرة على كلٍ منا. "كنت ذات يوم من الطبقة الراقية، وانحدرت حالتي بسبب الشرب والحياة المتدنية، وعلى الرغم من ذلك أنا الآن لديك في وضع غير موات، سيد...؟"

"*المحقق* ليستراد. وهذا الرجل النبيل هو شيرلوك هولمز"

تأثره بالكلام كان مذهلا. فيما سبق كان المتشرد الصغير يقف متململًا من قدم للأخرى ويبتسم في حالة سُكر، لكن بمجرد أن تم نطق اسم هولمز، توقف عن ألاعيبه ومد يده بوعي.

"سيكون لي الشرف أن أقدم أي خدمة ممكنة لشيرلوك هولمز الشهير" قال بتودد، لكن أستطيع أن أرى أنه لم يخدع هولمز.

حدق في الصعلوك إلى أن أسقط يده دون أن يرد سلامه. "لقد كنت بالفعل سبب ضرر كبير بالنسبة لي، شيلتون سميث" قال ببرود. «إن الأذى الذي يؤدي بأي

ضرر يصيب صديقي، سيثبت أنه أسوأ عمل قمت به في حياتك البائسة".

لم يشرح هولمز بأى تفصيل سبب اهتمامه بالشخص سيء السمعة الواقف أمامنا، لكن أصبح من الواضح الآن أنه يعتقد بتورطه بطريقة ما في المؤامرة التي قادتني إلى هذا الوضع الحالي غير المستقر. غير أن الدور المحدد الذي لعبه كان مفاجأة.

"أنت الصحافي الذي كتب تلك الأكاذيب الغريبة عن صديقي، أليس كذلك؟" قال هولمز وبهُت وجه شيلتون سميث حتى من خلف كل القاذورات المتأصلة على وجهه.

"ماذا...؟" قال بكل حماقة. "ماذا؟!" قال مرة ثانية. ثم بصوت أكثر ثقافة قال "كيف بحق الشيطان عرفت أني صحفي؟"

بدلًا من أن يرد مباشرة، جذب هولمز الصعلوك من قميصه وجعله يلتف مكانه. بينما كافح الرجل الضئيل قبضة هولمز، مد يده إلى الأسفل وسحب بنطاله من على كعبه الأيمن، كاشفًا عن نعل حذائه النظيف.

"من واقع خبرتي، قد يغطي الرجل وجهه بالقاذورات ويمزق ملابسه ويتحمل أكثر الروائح الكريهة رعبًا إن شعر أن التنكر ضروري. ولكن دائمًا ما يرفض نفس الرجل ارتداء الأحذية التي تسمح بدخول الماء. في وقت سابق تمكنت من فحص الأرض التي تسكعت فيها أنت ورفيقاك في الليلة التي اتهم فيها واطسون زروًا بالقتل. اثنان من طبعة الأحذية كما توقعت، مثقوبة وممزقة وتسرب قطع من ورق

الكارتون حيث لم يأت الترقيع ذو الجودة الرديئة بشيء.
لكن مكان الحذاء الأصغر أظهر نعالاً بدون عيوب. لا يمكن لأي متشرد حقيقي أن يتحمل تكلفة هكذا حذاء"
"بالإضافة إلى ذلك، في حين أن سترتك متسخة في الظاهر لكن شراب (الجين) الذي سكبته بعناية على الكم والياقة، من نوع باهظ الثمن"
"أخيرًا، كنت أعرف أن الصحفي يجب أن يكون في المنطقة المجاورة في ذلك الوقت. تمكنت من إيقاف جميع التقارير عن اعتقال واطسون، ومع ذلك ظهر تقرير واحد، مكتمل بالتفاصيل التي لم يكن من الممكن معرفتها إلا لشخص لديه معرفة مباشرة بالأحداث. لم يكن المقال منسوبًا، لكنني كنت أراهن بسعادة إن كان هناك، الاسم مارتن شيلتون سميث كان سيظهر بجوار النص"
"كفى، كفى" قال الرجل الضئيل ملوحًا بيد واحدة لهولمز، "ماذا إذا كتبت مقالا عن إلقاء القبض عن قاتل صادف أن رأيته. هل هذه جريمة؟"
"ليس جريمة بالتحديد، لكن أود أن أقول إنه بالطبع تصرف غير حكيم" قال: ليستراد، "أنه يضعك بالقرب من جريمة قتل وحشية"
"لا، فلتنتظر لحظة..." اعترض شيلتون سميث. "لا يمكن أن تقترح بجدية أن يكون لي يد في هذا الأمر. كنت هناك فقط ورأيت ما حدث، لم تطأ قدماي هذا المنزل قبل أن يطلب الشرطي مساعدتي"
"هل رأيت ما حدث؟" لم يش صوت هولمز بأي

تَوق، لكنني استطعت أن أخمن من الطريقة التي مال بها للأمام قليلًا أثناء حديثه أنه يعتقد أن المراسل لديه بعض المعلومات التي من شأنها أن تكون مفيدة. "صف لنا ما رأيته، من فضلك"

"حسنًا، ليس هناك الكثير لأقوله. كنت أتحرى هذه المنطقة منذ شهر أو أكثر، كخلفيه لسلسلة مقالات عن فشل الحكومة في وضع أي خطط لإنقاذ الأحياء الفقيرة في لندن. لقد مر عقد من الزمان منذ أن وضع (بوث) خرائطهن لكن لا يزال اللوردات والسيدات اللواتي يديرون البلد يقضون وقتًا أطول في إطلاق كلابهم البوليسية على الرجل العامل بدلًا من..."

"ادخل في الموضوع!" قاطعه ليستراد بغضب. "لا نهتم بهرائك الاشتراكي، فقط لتخبرنا بما رأيت"

عبس شيلتون سميث وبدا أنه على وشك أن يحتج، لكن نظرة سريعة على وجه هولمز الخالي من التعبير جعله يعيد التفكير في هذا الاحتجاج. سعل مهيئًا صوته لنبرة أهدأ.

"حسنًا كنت واقفًا عند الناصية، أثرثر مع اثنين من الرجال العاطلين الذين تعرفت عليهما، عندما رأيت الشرطي هنا يركض ويختفي داخل إحدى البنايات في الشارع، ذلك الذي بجوار السقالات..."

هذه المرة قاطعه هولمز. "أبكر من ذلك، إن كنت تتفضل وتخبرنا، سيد شيلتون-سميث. أخبرنا بما رأيت منذ أن اتخذت موقعك عند نهاية الشارع"

«أبكر من ذلك؟» ردد الصحفي والارتباك باد على وجهه. "حسنًا، رأيت الشرطي، هذا شيء ما. أبطأ مشيته ليتأكد من أننا نراه وهو يمر بجوارنا على الجانب الآخر من الطريق. هذا ما أعنيه عندما أتكلم عن مضايقات الشرطة، ولكن دعنا من ذلك،" ابتعد عن الموضوع عند ابتسامة ليسترداد المحذرة. "كما كنت أقول، مر الشرطي على الجهة الأخرى وبدأ السير نحو نهاية الطريق. كاد يصل لمنتصف المسافة، عندما لفت انتباهه شيء ما وفتئ يجري نحو المنزل، اعتقدت أن شيئًا ما يحدث وقد أكون مهتمًا به. لذا تبعناه أنا وصديقيّ، لأننا أردنا أن نرى ما يحدث، ان كنت تفهم ما أعنيه"

"أبكر من ذلك." صمم هولمز. "قبل أن يصل ضابط الشرطة"

"قبل وصول ضابط الشرطة؟ حسنًا، لعبنا لعبة قمار وتشاركنا شرابًا كريهًا إلى حدٍ ما، لا يمكنني التفكير بشيء آخر"

"ألم تر هذا الرجل؟"

أشار هولمز عليّ، والرجل الضئيل أمعن النظر في اتجاهي، كأنما يراني لأول مرة.

"حسنًا، من الممكن أن أكون رأيته. لا أستطيع أن أجزم، بسبب ضعف الإضاءة، لكن شخصًا يشبه صديقك مر بالفعل على الجانب الآخر قبل حوالي خمس دقائق من مرور الشرطي. كان في عجلة من أمره يتبع فتاة شابة مما ظهر من الأمر. افترضت أنهما أب وابنته عائدين إلى

منزلهما لذا لم أعرهما الكثير من الاهتمام"

لم يكن أمرًا كبيرًا، لكنني شعرت أن قلبي تخطى نبضه عندما صمت وأخذ خطوة ليقترب مني، محدقًا في وجهي.

"نعم، من الممكن أن يكون الرجل" قال أخيرًا. "لا أستطيع أن أقول على وجه اليقين، لكن نعم يمكن أن يكون هو. على الرغم من ذلك، انتظر لحظة" تابع قائلًا، "أليس هذا هو الدكتور واطسون بنفسه؟" هز رأسه بأسف، وعلى محياه بداية ابتسامة. "كان على أن ألاحظ على الفور، أينما يذهب شيرلوك هولمز، يتبعه الدكتور واطسون، ها؟" مع نظرة ماكرة سريعة على وجهه أعادت له بعض الثقة. "لكنك لم تكن هناك تلك الليلة، أليس كذلك؟" تابع مخاطبًا هولمز، "ليس عندما اقتيد الدكتور واطسون بعيدًا بتهمة القتل"

"لا، مع الأسف لم أكن موجودًا. لكن ما ستخبرنا به قد يساعدنا جدًا في تبرئة اسمه. مثلًا إن كانت الفترة بين دخول واطسون الشارع وسماع الشرطي الصراخ قد تقلصت من ثلاثين دقيقة إلى خمس دقائق، كيف تسنى له الوقت ليقتل سارة ماكلاكلان، بل ويعد المشهد؟"

اختفت جميع علامات الاختلاف الآن، قام الصحفي بتعديل معطفه القذر وتحدث بصوت واثق أكثر من نفسه. "لا أستطيع أن أقول ماذا يعني بإعداد المشهد، لكن من الممكن أن أستطيع المساعدة، أو ربما لا. ربما تحسنت ذاكرتي، الآن بعدما أمعنت النظر في وجه صديقك. ربما لم أره على الإطلاق، إلا عندما خرج من المنزل مغطى بدم

تلك المرأة المسكينة"

كانٍ التلميح واضحًا. رافعًا حاجب واحد وهو ينظر إلينا ضاحكا، تابع شيلتون-سميث، "من الممكن أن تتحسن ذاكرتي أكثر بكثير -وبالطريقة التي تحوز إعجابك- إن وافق شيرلوك هولمز أن أجري معه مقابلة، إن قرائي سيسعدهم ان يتعرفوا على رؤية المحقق العظيم بالنسبة للفقر المدقع الذي يضطر زملاؤه اللندنيين العيش فيه.."

"لماذا..!" اندفع ليستراد نحو الصحفي، لكن هولمز أمسك بذراعه وأوقفه قبل الأوان.

"فلتتحكم بنفسك، ليستراد." قال آمرًا، ثم أعاد انتباهه إلى شيلتون-سميث. "قد يبدو أنك تضعني وأصدقائي في موقف استغلالي. إن فهمتك بشكل صحيح، أنت مستعد أن تعطي شهادة حقيقية عن الأحداث إن وافقت على إجراء مقابلة معك بغرض النشر، أليس كذلك؟"

"هذا بالضبط موضع القوة في الأمر. صحيحٌ أنك تستخدم كلمات عملية أكثر مما كنت لأصف الأمر به، لكنه صحيح في الأساسيات"

"وأنت مستعد أن توقع باسمك على أي شهادة تعطيها؟"

"بالطبع. لن يستحق الأمر وقتك إن لم أفعل، أليس كذلك؟"

تألمت أن تكون آفاق حريتي في يد هذا الرجل الضئيل البغيض، لكنني في الوقت نفسه ابتهجت أن هناك شخصًا ما يمكنه أخيرًا تأكيد روايتي للأحداث، حتى وإن كان هذا غير كاف لإقرار براءتي كليًا. كنت آمل بأنانية أن يوافق

هولمز على شروطه، لكنني لم أقل شيئًا، لأني كنت أعرف مدى غيرة صديقي وحرصه على خصوصيته.

في الواقع، بدا هولمز رابط الجأش بل ومشتت الفكر تقريبًا.

بشكل عادي، مد يده إلى جيبه وأخرج عملة معدنية وقال، "حسنًا إذًا، دعونا نبرم الصفقة بشكل صحيح، بالفضة" نقر العملة باتجاه شيلتون-سميث، لكن هدفه كان مائلًا فسقطت العملة على الأرض عند قدمي الصحفي الذي انحنى ليلتقطها. عندما قام بذلك همهم هولمز، "أنت رجلٌ متزوج كما أرى، سيد شيلتون-سميث؟"

"بالفعل" رد الصحفي في حيرة، "على الرغم من أن هذا لا يمت بصلة لما نقوم به هنا"

"متزوج حديثًا أيضًا"

عند هذه الكلمة، تصلب شيلتون-سميث وأصبح أكثر حذرًا لأنه أدرك أن شيئًا ما تغير في سلوك هولمز. "منذ ستة أشهر،" قال مؤكدًا. "ولكن كيف يمكنك أن تعرف ذلك"

"استدلال بسيط بما يكفي،" أجاب هولمز. "هيئ لي أن رأيت قلادة فضية حول عنقك في وقت سابق، وعندما انحنيت الآن تمكنت من تأكيد هذه الحقيقة. في الدور الذي تلعبه الآن لبيعت هذه القلادة للحصول على كأسي شراب، أو أسوا. لمحة واحدة عليها وسيتم اكتشاف أنك مزيف"

"لماذا تجازف بكشف أمرك بهذا الشكل، إلا إذا كانت

القلادة ـ أو شيء ما معلق بها ـ ذا قيمه معينة لديك؟ خاتم زفاف كان هو الإجابة الأقرب للواقع. هناك أيضًا الفراغ البسيط على البنصر الأيسر، علامة خاتم لم يتم ارتداؤه لفترة طويلة. الرجال المتزوجون لفترة طويلة لديهم علامة أعمق من تلك بكثير، وإلى جانب ذلك، أي رجل تزوج منذ عشرين عامً سيكون عاطفيًا بما فيه الكفاية ليرتدي خاتم زفافه بالقرب من قلبه، بغض النظر عن المخاطرة؟"

استاء شيلتون ـ سميث بشكل مريب من هولمز. "إذًا، أنا حديث الزواج، ماذا في ذلك؟"

"فقط هذا." قال هولمز بندية. "أتساءل كيف سيكون ردة فعل زوجتك إذا قام المحقق ليستراد بزيارتها، وذكر الرفقة سيئة السمعة التي كنت معها مؤخرًا؟ رفقة أنثى سيئة السمعة تحديدًا"

اندلع غضب شيلتون ـ سميث واحتج صارخًا. "ماذا تقترح بحق الجحيم؟" تساءل مطالبًا بإجابة. ضم يديه وحولهما إلى قبضتين، اتخذت خطوة أقرب إلى هولمز في حال أصبحت الأمور عنيفة، لكن بدا أن الرجل الضئيل راضيًا بمجرد التبجح. "الوقوف مع أي عدد من النساء ليس جريمة، تعلم ذلك، صحيح؟" قال مصممًا، مما دفع ليستراد إلى الرد بابتسامة ماكرة على وجهه الشبيه بوجه الفئران.

"معك حق مرة أخرى، سيدي. يبدو أنك على معرفة جيدة بالقانون. من الواضح أنه لن يكون لدي سبب لأزور منزلك بحثًا عنك. لكن كيف سيكون الحال إذا كنت سأزور

زوجتك الطيبة، لا لأبحث عنك، إنما لأسألها عن عاهرة معروفة لدي أسباب للاعتقاد بأنكما صديقان مقربان؟"

حدق شيلتون-سميث في المحقق لفترة طويلة بشكل غير مريح، ثم هز كتفيه في هزيمة والتفت إلى هولمز.

"لا مقابلة بكل تأكيد إذا؟" ابتسم، وكان لدي شعور أنه مرن نوعًا ما، سريع التعافي من أي انتكاسة. ربما كان عليه أن يكون هكذا، بسبب عمله. من الواضح أنه أدرك أنه ليس لديه أي نفوذ في الموقف الحالي وقرر تحقيق أقصى استفادة منه.

"في تلك الحالة، إليك ما رأيته بالضبط تلك الليلة. لا أستطيع أن أكون متأكدًا بما لا يدع مجالًا للشك، لكني أكاد أكون متأكدًا أن الرجل الذي رأيته يسير على طول شارع لينهوب بصحبة فتاة صغيرة كان هو نفس الرجل الذي رأيته لاحقًا محبوسًا في الغرفة في المنزل رقم ستة عشر بنفس الشارع. ذلك الرجل هو الطبيب جون واطسون الذي يقف بيننا الآن. رأيت الدكتور واطسون لأول مرة قبل حوالي خمس دقائق من دخول الشرطي إلى الشارع. الآن، هل هذا كاف بالنسبة لك؟"

"ليس بالضبط،" قال هولمز. "لدي بضعة أسئلة أخرى. هل رأيت الفتاة تغادر المنزل أو الشارع؟"

"لا." صَرَح الصحفي. "لكن حتى ركض الشرطي إلى المنزل لم أكن أعير الكثير من الانتباه. الشارع مفتوح من كلا الطرفين أيضًا. بإمكانها الخروج مباشرة ولن أتمكن من ملاحظتها".

"أنت لم تر قطعة قماش بيضاء على أي من نوافذ المنزل؟"

"قماش أبيض؟ لا، لم أر شيئًا من هذا النوع"

"ولم يغادر الشارع أو المنزل رجالًا آخرين بخلاف واطسون، الشرطي وأنت ورفاقك، على حد علمك؟"

"حسنًا، كما قلت لا أستطيع أن أكون متأكدًا بما لا يدع مجالًا للشك، لكن لا أظن ذلك. هل هذا كافٍ لك؟"

أومأ هولمز برأسه. "إنها بداية، بكل تأكيد. لكن لدي لك مهمة أخرى، والتي ستسدد ديونك بشكل كامل. اكتب مقالًا لجريدتك، تابعًا للمقال الأول، تذكر فيه أنه تم الكشف عن أدلة ـ أدلة قوية ـ والتي ستؤدي إلى تبرئة واطسون"

ارتد شيلتون ـ سميث كما لو أنه تعرض لضربة قوية. "هذا اقتراحٌ مشين!" صرخ قائلًا. "الصحافة في هذا البلد لها دورٌ..."

قاطعه ليسترادد قبل أن يتمكن من إنهاء جملته.

"هاوى، فلتذهب إلى سكوتلاند يارد، وتأكد من عنوان منزل السيد شيلتون سميث، يبدو أننا نحتاجه على كل حال"

لا يمكن إغفال التلميح. بهُت شيلتون ـ سميث وتلعثم في احتجاجه، ثم فكر في الأمر بشكل أفضل، وهدأ إلى الاتفاق غير راغب. "حسنًا جدًا" غمغم بصوت خفيض. "لكن على أن أحذرك، من غير المرجح أن يطبع محرري أي مقال من هذا القبيل"

"هـذا شـأنك" رد هولمـز بفتـور. "لكـن لـو أننـي فـي مكانـك، لبذلـت كل مـا فـي وسـعي لأقنعـه بـأن النشـر يصـب فـي مصلحـة الجميـع. الآن.." قـال بحميميـة أكثـر موليًـا ظهـره إلـى الصحفـي. "أعتقـد اننـا انتهينـا هنـا، حمامًـا دافئًـا ثـم تدخيـن الغليـون همـا الترتيـب المناسـب لليـوم، يـا واطسـون، أليـس كذلـك؟"

أومـأت رأسـي، مسـرورًا بالتقـدم الـذي أحرزنـاه، تمنينـا ليلـة سـعيدة لرجلـي الشـرطة، واتخذنـا طريقنـا إلـى الشـارع باحثيـن عـن عربـة.

T t.me/tea_sugar

الفصل السادس عشر

مُوفِيا بوعده، ظهر مقال شيلتون-سميث في الطبعة المسائية من جريدة اليوم التالي. وكما طلب هولمز، فقد ألمح إلى أدلة جديدة كشفت عنها الشرطة والتي، كما ذكرت، ستؤدي قريبًا بلا شك إلى تبرئتي الكاملة واعتذار شامل من السلطات. قرأتها بمزيج غريب من المتعة والإحراج من رؤية الشخص اسمه مطبوعًا، على الرغم من أنه على درجة من الحذر، لأني لعمري ما كنت لأتوقع ماذا يرجو أن يحقق هولمز من وراء هذا المقال.

قلت له ما دار في فكري، لكن هولمز كان لديه الجواب.

"شخص ما بذل الكثير من الجهد ليضع حبل المشنقة حول رقبتك، واطسون، وحتى الآن لم يواجه أي تحدٍ حقيقي. هذا المقال الصغير، كما آمل، سيجبرهم أن يخرجوا للنور. أيًا كانوا"

كانت خطة معقولة، وإن لم تكن مصممة لاستفزاز رد فوري. ثنيت الجريدة ووضعتها على جنبها، ثم قلبت نار المدفأة لتأت بدفء أكبر لأنه كان صباحًا باردًا، أبرد يومٍ في العام حتى الآن.

"ماذا عن أليستر ماكلاكلان، هولمز" هل أتى لك جيش المتسولين الخاص بك بأي معلومة مفيدة عن

نشاطاته؟" تساءلت متذكرًا ذِكر هولمز "للأمر الآخر"

"أليستر ماكلاكلان؟" أجاب بنظرة حائرة "ويجينز وفريقه المتنوع لا يبحثون في أمر ماكلاكلان، واطسون. ومع ذلك، قمت بإجراء بعض الاستفسارات الخاصة بي أثناء خروجي بعد ظهر الأمس، كان السيد ماكلاكلان في المنزل ليلة القتل، وفقًا لأحد الخدم مقابل شلنين. وبطبيعة الحال هذا لا يثبت براءته في حد ذاته، وقد أرسلت برقية إلى بوتر، مطالبًا أن يتم التحقيق معه بدقة. إنما لدي أخبار أخرى، قابلت رسولًا من ليسترد أثناء عودتي بالصحيفة، وقد نقل معلومة أن هناك بالفعل سكين كوركي مفقودًا من مجموعة الميجور ماكلاكلان. عينه قديمة وتالفة، محفوظة في جارور على ما يبدو. لهذا لم يقتدها أحد حتى الآن. تم تأكيد أنه نفس السلاح الذي استخدم لقتل السيدة ماكلاكلان"

"مأخوذًا من بيت لم أزره قبل الآن!"

"بالضبط، لكن لا يمكننا إثبات هذا. في الوقت الحالي لا نستطيع تقديم دليلًا معينًا على براءتك. لكن كل شك نزرعه، كل حقيقة نكشفها؛ هذا هو القرميد الذي نضعه في الحائط الذي سيفصل بينك وبين حبل المشنقة"

"على الرغم من كل هذا، هل سيكون ذلك كافيا، هولمز؟"

"وحدها، لا. لكن هذا القرميد لا يقف وحيدًا. لدينا مشتبه به بديل ـ أليستر ماكلاكلان ـ مع دافع للقتل، إن لم يكن لمحاولة وضع حبل المشنقة حول رقبتك. لدينا شهادة

شيلتون- سميث تحت القسم أنك وصلت جنبًا إلى جنب مع فتاة، في وقت يجعل من المستحيل أن تنفذ جريمة القتل بالطريقة التي نعرف أنها نُفذَت بها. ولدينا افتقارك لأي دافع. ولدينا حقيقة أننا نعرف أنك بالفعل بريء"

قدرت شعوره في الجملة الختامية، لكن لم أستطع إلا أن أتساءل عما إذا كان جدار هولمز سيثبت أنه متماسك بما فيه الكفاية.

ربما نتيجة لهذه الشكوك المستمرة، اعترتني ببطء الرغبة في استنشاق بعض الهواء النقي والقيام بأي نشاط. بحلول وقت متأخر من الصباح، أفسحت شمس الشتاء لنفسها مكانًا في السماء الغائمة، لكن جافة، والتي عملت على إزالة بعض البرودة من الهواء، وأزالت أي عذر لي لأبقى في المنزل. بينما ارتديت معطفي ولففت وشاح حول رقبتي، سألت هولمز إن كان يرغب في الانضمام لي لكنه اعترض وعاد للكتاب النحيف الذي كان ممسكًا به.

بالكاد وصلت إلى مفترق الطرق مع شارع ماريلبون، متسائلًا عما إذا كان من السابق لأوانه تناول الغداء، عندما نادى عليّ صوت هادر من عابر ما، انحنى المحقق بوتر من نافذة عربة وأوعز لي بالعبور بينما توقف الحصان على جانب الطريق.

"دكتور واطسون! الرجل الذي أملت أن أجده في

المنزل. هل لديك أي اعتراض أن تعود معي إلى ب 221؟ هناك تطور جديد في قضيتك، وأفضل أن نتناقش في مكان آخر غير قارعة الطريق"

في البداية فكرت في الرفض بناءً على مبدئي، لكن شيئًا ما في صوت بوتر، نبرة انتصار ما شجعتني على الموافقة قبل أن يتعامل مع الأمر على أنه أمر.

"حسنًا جدًا" قلت له "هولمز في المنزل والسيدة هادسون سترشدك للدور العلوي، سأصل بعدك بقليل"

شاهدت العربة تقوم برحلة قصيرة على طول شارع بيكر وببطء قطعت طريقي عائدًا، متخذًا بضع دقائق لأرتب أفكاري وأقدر ما هي الأخبار التي يمكن أن يأتي بها المحقق. يبدو من غير المعقول أن تكون المقالة قد أثمرت بالفعل. لكن الدليل الوحيد الذي استطعت التفكير فيه هو الكوركي المعطوب. هل ثبت أن سلاح الجريمة يعد مفتاحًا؟ من المؤكد أن الأخبار التي حملها بوتر تتعلق بهذا أو ذاك.

صعدت السلم إلى غرفنا بخطى متفائلة، لذلك، وكانت نتيجة غير سارة تفاجأت بوقوف هولمز عند المدفأة عابسًا وهو ينظر لورقة يمسكها في يده. وقف المحقق بوتر برفقة شرطي لم أتعرف عليه موليًا ظهره لي، لكن ما إن دخلت حتى أوعز للشرطي أن يقف بجوار الباب.

"دكتور واطسون،" نطق اسمي بجدية. "من واجبي أن أخبرك أنه على ضوء الدليل المُقدّم إلى سكوتلاند يارد قبل نصف ساعة، من واجبي أن أوقفك وأعيدك إلى سجن

هالواي. وهناك ستنتظر محاكمتك بتهمة قتل السيدة سارة ماكلاكلان.

شعرت بمعدتي تتلوى، وهو يشير للشرطي المنتظر الذي اتخذ موقعه خلفي مباشرةً. المفاجأة، الغثيان غير المتوقع والارتباك جعلني أتذكر اللحظة التي أصبت فيها وأنا في الجيش، كانت الصدمة شديدة.

"ما الذي تقوله بحق السماء، بوتر؟" تمكنت من التحدث أخيرًا من فم جاف.

أجاب هولمز على سؤالي. مد يده بالورقة وأخذتها منه، وقرأت في عجالة الأسطر القليلة التي تتألف منها كامل الرسالة.

في الكلمات التي تم تكوينها ببراعة من قَطع حروف فردية من الجرائد والمجلات، جاءت الرسالة قصيرة وواضحة للغاية.

كل رجل له سعره. إذا لم تكن تريد أن تقتل كما فعل رجُلنا واطسون مع السيدة العجوز، عليك أن تتراجع فورًا.

تم قص هذه الرسالة الاستثنائية إلى قطعة أصغر، لكن من الواضح أنها كانت جزءا من ورقة أكبر، لأن إحدى الحواف كان مقطوعًا ومهترئا. يبدو أنه جزء من رسالة، نصفها العلوي مفقود، لكن ما تبقى منها كان مروعًا بأقصى الحدود.

كان صك مديونية بمبلغ مائتي جنيه لشخص غير معروف، لكن من الواضح أن التوقيع في الأسفل باسم "جون ه. واطسون".

"لم أر هذا الخطاب من قبل! وهذا ليس توقيعي!" قلت مصممًا، وأخشى أني كنت أصرخ، لأن هولمز وضع يده على ذراعي وأكد لي أنه أخبر المحقق بالشيء نفسه.

"لقد فعل ذلك يا دكتور" أكد بوتر بهدوء، "لكن لدي هنا نسخة من توقيعك قدمها المحقق ليستراد، وعلى أن أقول إن الاثنين يبدوان متطابقين بالنسبة لي"

سحب قطعة من الورق من جيب سترته ومد يده بها لي. يبدو أنه لا فائدة من فحصها ـ أعرف كيف يبدو توقيعي وكنت أدركت بالفعل أن النسخة المزورة على الصك مشابهًا له ـ لذا تركتها تقع على الأرض، غير مقروءة. دار رأسي وأسندت يدي على ظهر مقعدي، آملًا ألا يلاحظ بوتر ضعفي.

"يبدوان متطابقين؟" قال هولمز بإزدراء "أخشى أنه في تسرعك لإدانة صديقي، أيها المحقق، سمحت لنفسك أن تقتنع بسهولة بمصداقية هذا الخطاب"

أخذ الصك من يدي المتجمدة، ووضعها أمامه على الطاولة. "انظر هنا، الخط في حرف الـ (II) مائل لليسار. بينما واطسون..." توقف وانحنى يلتقط الورقة المقطوعة من على الأرض "... يكتبها أفقية بالكامل. حرف الـ (n) أيضًا مختلفًا تمامًا في التركيب، كما هو الحال في الـ (o) الاثنين الموصولون بالحروف التالية لهم.

"اختلافات طفيفة، سيد هولمز" رد بوتر وإن كان من دون ضغينة. "كما هو متوقع من رجل يواجه انهيارًا ماديًا"

"مستحيل!" بدأ هولمز لكن بوتر لم يكن قد أنهي

كلامه بعد.

"وبغض النظر عن صحة التوقيع، فإن صك المديونية ليست الأكثر إثارة للقلق بين الوثيقتين، أليس كذلك؟ أليس لديك ما تقوله بخصوص الخطاب، دكتور؟ يجب أن أخبرك أنه قد تم تسليمه للميجور ماكلاكلان من حوالي ساعة. وجدها رئيس الخدم موراي في مظروف مثبت على الباب الأمامي لمنزل الميجور، مما استفزه لتقديمه بأقصى سرعة إلى سكوتلاند يارد. وكما ترى، لا لبس فيه بخصوص تسمية قاتل السيدة ماكلاكلان"

بدأت الصدمة الأولية في التلاشي واستعدت ما يكفي من صوتي للرد، على الرغم من تأكدي أن كل ما أقوله سيضرب به بوتر عرض الحائط. ومع ذلك، لم يكن لدي أي نية أن أعود للسجن دون أن أذكر الحقيقة على الأقل.

"ليس لدي ما أقوله سوى أن الأمر لغز بالنسبة لي. سواء في محتواه أو في ظهوره في منزل الميجور ماكلاكلان. لم أكن مدينًا لأي رجل بمبلغ يصل إلى مائتي جنيه ـ في الواقع لا أستطيع أن أفكر في طريقة تجعلني أدين بمبلغ وحشي للغاية هكذا ـ ولم أكن متورطًا في مقتل السيدة ماكلاكلان"

"لم تكن مدينًا بمبلغ كبير جدًا؟" قاطعني بوتر. "لكن لديك ديون أخرى؟"

"ليس أكثر من أي رجل في مجال الأعمال" أجبته بشكل غير مريح. "كانت أعمالي أقل ربحا مما أتمنى. وقد أجبرت على الاقتراض قليلًا بين الحين والآخر. ولكن

دائمًا من المصرف!" اختتمت حديثي ولأول مرة منذ أن بدأ هذا الكابوس أشعر بغضب حقيقي يستعر بداخلي.

لقد سمحت بأن أخدِّر عقلي لأحمي نفسي من تلك الأحداث التي لا تُصدَّق التي ألمَّت بي. لقد رأيت سلوكًا مماثلًا في أفغانستان؛ الجنود الذين عانوا من كثرة إراقة الدماء والذين وجدوا أنفسهم في عالم لم يكونوا يتخيلونه أبدًا، تراجعوا وانزووا داخل أنفسهم، وتحولوا إلى سلوك بارد وابتعدوا عن كل شيء، قادرين على القليل من التواصل الإنساني، إن كان موجودًا. لكن في تلك اللحظة، انقشع عن ذهني الضباب الغريب الذي اكتنفه وأدركت أني سمحت لنفسي أن أكون هادئًا لفترة طويلة جدًا. إن العقوبة الرسمية المتمثلة في الاعتقال والسجن قد دفعتني، إلى حد ما، إلى قبول كل ما حدث كعقوبة مستحقة لي. كعقوبة عادلة على جريمة يجب أن أكون قد ارتكبتها بطريقة أو بأخرى. لكنني لم أفعل ذلك. ولم يكن الأمر كذلك.

في غضب مفاجئ، أطلقت سيلا من الأسئلة على بوتر. «لماذا، إذا كنت قد قتلت السيدة ماكلاكلان بالفعل لتسوية هذا الدين، لماذا لا يزال دائني لديه صك مديونيتي؟» «كيف يمكن أن أتورط في دين كبير بهذا الشكل؟» «لماذا يرسل مديني المجهول تهديدًا باسمي وبالتالي يدينني بينما في الوقت نفسه يلمح أنني نفذت جانبي من هذه الصفقة الشيطانية؟» «في مثل هذه الحالة ما ضمانة أني لن أكشف أمره وأنقذ نفسي بإعطاء اسمه للشرطة؟»

"هل أنت مستعد للقيام بذلك الآن، دكتور؟"

بدا صوت بوتر الهادئ يأتي من العدم. أدركت بشكل باهت أنى أقف على بعد قدم واحدة من المحقق. بحيث كانت وجوهنا قريبة بشكل غير مريح. وكنت أرى بصقي على وجهه. وبجهد مني تمكنت من بتر سؤالي التالي، بعد أن أدركت الانطباع الذي خلفته.

"لا، أيها المفتش، أنا لست كذلك" قلت بنبرة أكثر طبيعية. "لسبب بسيط هو أنه لا يوجد شيء يمكن قوله. أنا لم أقتل سارة ماكلاكلان، كما أني لست مستعبدًا من قاتل غامض أدين له بثروة صغيرة"

سويت معطفي ومررت يدي عبر شعري، ثم أعدت تعديل الوشاح الذي لم أكن قد أزلته بعد، بشكل أكثر راحة حول رقبتي.

"الآن إذا كنت لطيفًا بحيث تقود الطريق، أعتقد أنك ذكرت العودة إلى هولواي"

التفت إلى هولمز، الذي وقف في تأمل صامت طوال الوقت.

"أنا أعتمد عليك يا هولمز. أعرف أنك لن تخذلني"

نظر إلى للحظة، ثم أومأ مرة واحدة، بحدة وجدية.

لا يوجد ما يقال أكثر من ذلك. أومأت نحو الباب.

"من بعدكم يا سادة" قلت وأنا أمسك الباب لأبقيه مفتوحًا.

الفصل السابع عشر

صوت إغلاق باب الزنزانة من خلفي مرة أخرى، ملأني بشعور أقرب إلى الإحباط. كان من الصعب البدء في دورة ثانية داخل جدران السجن. شعرت كما لو أنني أعطيت فرصة، فرصة لصياغة الطريق إلى حريتي، لكنني فقدت تلك الفرصة في اللحظة التي وصل فيها بوتر حاملاً أخبار تلك الرسالة إلى ماكلاكلان. الأسوأ من ذلك كله، لم يكن لدي أي فكرة عن كيفية حدوث ذلك. على ما يبدو، هناك شخص ما مصمّم على أن أشنق، وعلى الرغم من أن هولمز قد حشد كل قواه نحو إيجاد حل، وليستراد مشغولٌ بتعقب كل شخص تقاطعت طرقنا معه، وبينما أنا جالس على فراشي الرمادي في تلك الزنزانة الرمادية، أحدق من النافذة الصغيرة والسماء المغطاة بالغيوم، اعتقدت أن جهودهم ذهبت سدى، وأنني سأواجه قريبًا محاكمة مهينة وموتًا مخزيًا. جلست على الفراش مثل طفلٍ صغير، واستلقيت هناك فارغ العقل من أي تفكير، حتى انجرفت إلى نومٍ غير مريح.

لم يكن هاردي في الزنزانة عندما أحضروني، لكنه هو الذي هزني لأستيقظ في وقتٍ لاحق. لم يكن الظلام قد حل بعد في الخارج، لكنني سمعت ضجيج المفاتيح التي تتأرجح على طول الممر وعرفت أن الأضواء ستطفأ عما

قريب لأن الليل قد حل. ومع ذلك، رُفِعَت معنوياتي عند رؤية الشاب الذي استقبلني بشكل عادي كما لو أنني كنت في عطلة قصيرة كان يتوقع أني سأعود منها.

"علمت أنك ستعود" ابتسم مؤكدًا شكوك. رمي نفسه على فراشه مستندًا على ذراع واحد، ومد يده إلى زجاجته التي كانت ممتلئة لربعها فقط، لكنه شاركها بمنتهى السهولة، وعندما أطفئت المصابيح وغرقنا في ضوء المساء الخافت، وصفت له كيف قضيت فترة حريتي القصيرة.

"كنت بالخارج ولم تحاول الهروب" قال بإزدراء. "لابد ان عقلك فاسد، جون، حقًا. كان يجب ان تهرب بمجرد أن يدير صديقك المحقق ظهره. يمكن لرجل مثلك دائمًا كسب القليل من المال، بين الكتابة وممارسة الطب، أما إذا كنت في مكان متحضر بعض الشيء ـ أفريقيا ربما، أو إسكتلندا ـ يمكنك أن تعيش مثل ملك مقابل بنسات. على الأقل هذا ما اعتادوا أن يقولونه لنا"

هز رأسه وأخذ رشفة طويلة من الزجاجة. "كنت سأهرب بسرعة كبيرة، لدرجة ترك ظلي على الأرض"

ابتسمت لفكرة الهرب في أعماق أفريقيا، وقبلت الزجاجة التي مررها هاردي الآن.

"إذًا، ماذا الآن؟" سأل بفراغ صبر. "حاولت التدخل ومعرفة بعض الأمور في فترة غيابك، لكن الجميع كانوا مشدودين مثل الجلد على الرق، ولن يقول أحد كلمة واحدة عن كولينز أو لماذا هاجمك"

فكرت قليلًا في قدر ما يجب أن أخبره وقررت أن كلما

قل ما يعرفه، كلما كان أفضل. "أشك أن هجوم كولينز كان أكثر من مجرد فرصة انتهازية. لم تتقاطع طرقنا على حد علمي، لكن ربما كان يعمل لحساب شخص ما آخر. لا يوجد نقص في عدد الأشخاص الذين يتمنون لي الأذى بعد كل ما قيل وحدث" مررت الزجاجة مرة أخرى إلى هاردي جنبًا إلى جنب مع تحذير لبق. "ابتعد عن كولينز، ألبرت. لا تنس أن رجاله وضعوك أنت أيضًا في المستشفى"

سمعت هاردي يعترض بسخرية في الظلام الذي انتشر بسرعة. التفت حول فراشي حتى أتمكن من الوصول إلى ذراعه والنقر عليها. "لا تقلل من شأن هؤلاء الرجال، ألبيرت. كاد كولينز أن يقتلك دون أن يفكر في الأمر مرتين بعد ما فعله معي، ولا تظنّ أبدًا خلاف ذلك".

"ماذا عن جالاواي، إذا؟ كان يسأل عنك، يريد أن يعرف إذا وصلتني أخبار منك."

هذه أخبار مقلقة. "ماذا قلت له؟"

"لم أقل شيئًا. لم يكن لدي ما أقوله. لم أملك أدنى فكرة مثله تمامًا عما كنت تفعله"

سمعت نبرة شكوى مبررة في صوت الفتى. لم أفكر في أمر هاردي خلال أيام حريتي. ومع ذلك، يمكنني تقليل أي خطر آخر على سلامته.

"ابتعد عن جالاواي أيضًا" قلت له آمرًا. "إنه رجل خطر"

"لا أحتاجك لتقل لي ذلك، جون!" كان صوت الفتى قاسٍ جدًا.

"يا له من تحولٍ في الأحداث، أنت تخبرني كيف أبقى آمنًا داخل السجن!"

"أنا جادٌ يا ألبرت،" قلت مصممًا. "ابق بعيدًا عنه"

رضخ لرغبتي على مضض، خشيت أن يأخذ خلافنا على محمل جاد، لكن لحسن الحظ بعث الكحول ببعض الدفء في معدتي، ومن الواضح أن التأثير كان مماثلًا على هاردي، الذي سرعان ما تجاهل أي تهيج شعر به. سمعت الزجاجة تقعقع بخفة بينما كان يضعها مرة أخرى تحت فراشه، لكنني بالفعل كنت نصف نائم وكل ما تمكنت من فعله هو تمني ليلة سعيدة لصديقي الشاب قبل أن أسقط في سباتٍ عميق.

اليوم التالي كان يومًا آخر من البرد الجاف الذي سيطر على الشتاء. استيقظنا على قرع باب الزنزانة في ساعة مبكرة كالمعتاد واستمر اليوم على وتيرته المعتادة. عقدت العزم على البقاء في زنزانتي قدر الإمكان، وباستثناء الذهاب إلى الكنيسة ومقابلة واحدة، فعلت ذلك بالفعل.

جاء أول إشعار أني مطلوب من يد وضعت على كتفي بينما كنت أتنقل بين مقاعد الكنيسة قبل بدأ القداس. همس شابلي في أذني، يأمرني أن أتبعه، وهو ما فعلته بفراغ صبر، ربما أثبت هولمز بالفعل أن صك المديونية مزيف أو أن الصحفي شيلتون-سميث قد تذكر شيئًا ذا أهمية؟

ومع ذلك، الرجل الجالس في الغرفة التي تم توجيهي لها كان غريبًا تمامًا. على الرغم من أنى شعرت أنني أعرفه من مكان ما. كان من المستحيل قياس طوله بدقة لكنه لم يكن رجلًا قصيرًا، على الرغم من أن بنيته الجسدية نحيفة. له شعر ناعم، فاتح اللون متناثر على فروة رأسه، تم تثبيته بكمية ملحوظة من مثبت الشعر. تسبب ارتخاء ما في فمه أن يبقى مفتوحًا قليلًا حتى أني تمكنت من سماع تنفسه قبل أن يتحدث.

"من فضلك، تفضل بالجلوس، دكتور" قال: بصوت ناعم له صوت صفير بدا مناسبًا تمامًا لمظهره. "لفافة تبغ؟" سألني ودفع بعلبه فضية نحوي. نظرت إلى شابلي، لكنه لم يعط أي إشارة أنه رأى أو سمع أي شيء، لذلك أخذت واحدة وأشعلتها واستنشقت دخانها بعمق، وأنا أفحص مضيفي بينما يتفحصني بدوره.

دخنت اللفافة بأكملها في صمت في انتظار أن يتحدث الرجل أكثر. لكن من الواضح أنه كان راضيًا ببساطة عن المراقبة، لذا بعد أن أنهيتها اضطررت لأخذ زمام المبادرة.

"لديك أفضلية عني، سيد...؟"

"ماكلاكلان" ابتسم وإن لم يكن بحرارة. "أليستر ماكلاكلان، أظن أنك تعرف عائلتي؟"

قالها كما لو أنه يطرح سؤالًا، لكنه اتهامًا بكل وضوح. هذا هو الأخ الأصغر للسير كامبل، ابن شقيق المرأة التي اتُهمت بقتلها. الرجل الذي نشك، بل ونأمل أن يكون هو القاتل الحقيقي.

الآن وقد عرفت، لم أستطع أن أخطئ الاتصال العائلي. شكل أنفه متطابقًا تقريبًا، وذقنه ولكن نسخة أضعف من تلك التي رأيتها في الميجور. بالنسبة لمزاجه، كان من الواضح أنه مختلف كليًا.

قام بوضع لفافة جديدة في منفاخ أسود وهو ينظر لي عبر الدخان.

"أنت لست كما توقعت، دكتور." قال مع تلميح أنه يتسلى.

"حقًا" أجبت بعناية. "ماذا كنت تتوقع؟"

ضحك، مما بدا في غير موضعه، يكاد يكون مبتهجًا. "أوه، وحشا بالطبع، وحشا يسيل لعابه، ودم عمتي لايزال طازجًا على يديه المشعرتين الرهيبتين" تنهد ثم قال. "أليست هذه هي الصورة الشعبية؟"

"وأنت لا ترى ذلك فيّ؟ أشعر بالارتياح"

في الواقع، شعرت أنى أكثر من مرتاح، لأنه بقدر ما لم ير أي وحش فيّ، لم أر شيئًا فيه. حتى من هذه المعرفة القصيرة جدًا، لم أستطع تخيل أن هذه الشخصية الضعيفة هي التي ارتكبت تلك الفظائع التي رأيتها في شارع لينهوب.

"كنت مولعًا بخالتي، لكن ليس بشكل مفرط" أجاب ماكلاكلان، متجاهلًا سؤالي. "لقد أبقتني محرومًا من المال، وهو فعلٌ غير مصمم لتعزيز المودة في أي امرأة، وبالتالي أجبرتني على تحمل صحبة أخي الكبير المغرور والمتزمت. لكنها كانت كريمة نوعًا ما بطريقتها الخاصة.

كان خدمها مخلصين لها، متفانين، مما يجعلني أفكر أن هذا يقول عنها الكثير" ضحك مرة أخرى. "على عكس أخي العزيز! باستثناء ذلك الرجل الغريب الضئيل الذي احضره وهو عائد من الحروب، إنه محتقر عالميًا بين الخدم، كما تعلم. ليس أمرا غير مفاجئ. إنه يعامل الخدم مثل السكان الأصليين من حملاته، ويزدريهم عند أدنى مخالفة. سيفعل نفس الشيء معي، إن استطاع، لن أكون متفاجئًا"

حدقت فيه، جالسًا مبتسمًا أمامي، لكنني لم أقل شيئًا، وهو ما يناسبه بوضوح، من الواضح أيضًا أنه رجل يحب الكلام." "وهذا المنافق المروع يتعجب من وقوعي في حب إحدى الخادمات؟ أنت تعرف أيها الطبيب، يمكن للعدو المشترك أن يجمع أكثر الشخصيات تباينًا معًا. لقد اكتشفت أن المظالم تعمل أقوى من أي غراء. لكن هذا المخلوق موراي اكتشف أمر حبنا، وهكذا طُردت ماري. يجب ألا تخاطر بتلطيخ اسم العائلة! لا يمكن أن يكون لماكلاكلان علاقة بأحد الخدم!"

لأول مرة خان صوته عاطفة تتجاوز تسلية بسيطة. أشعل لفافة أخرى أثناء حديثه، لكنه لم يقدم لي واحدة.

"لكنني أحيد بشكل مخز. لم أتمنَ أن تموت عمتي، إلا في المسار الطبيعي للأشياء بالتأكيد، عندما يجف قلبها العجوز الذابل بالكامل. ولا أستطيع أن أنكر أني مدين لها. لقد كانت أكثر سخاءً معي في الموت مما كانت عليه في الحياة. لقد منحت لي وصيتها الخلاص من قبضة كامبل

القامعة مرة واحدة وللأبد. لذلك جئت أرى الرجل المتهم بقتلها، كما قلت، كونه وحشًا أكثر من كونه رجلا. وماذا أجد؟ أنت!

شخص عادي في إطارٍ شائع. رجل مثلي قد أمر بجانبه في أي يوم من أيام الأسبوع"

دفع مقعده وسار حول الطاولة ليقف خلفي. سمعت صوت أنفاسه الثقيلة وشممت رائحة عطره باهظ الثمن بلا شك. لكنني لم ألتفت لأنظر إليه. همس بصوتٍ ناعم فوقي.

"هل تعرف من قتل عمتي، دكتور واطسون؟"

وجدت أنني كنت أحبس أنفاسي، والآن أخرجها في لهاث قصير. "لا،" قلت بحزم. "كانت عمتك ميتة بالفعل عندما تم استدراجي إلى تلك الغرفة الشيطانية. لو لم تكن كذلك، أرجو أن تصدق أني كنت سأبذل كل ما في وسعي لإنقاذها"

كانت هذه هي الحقيقة ويبدو أنها حازت رضاه. عاد إلى مقعده وجمع علبة التبغ الخاصة به وأعواد الثقاب. "أنا رجل ضعيف، دكتور. أو ربما أنا رجل شجاع يختار ببساطة التعبير عن شجاعته بطرق غير تقليدية" ضحك ومسح على شعره براحة يده. "لكن أيًا ما أكون، فأنا لست أحمق، أنا على يقين أنك رجلٌ بريء، إلى الحد الذي يمكن لأي منا أن يكونه كذلك"

وقف مرّة أخرى، ومسح وبرًا غير مرئيًا من على بذلته النظيفة. "أغادر إلى باريس في الصباح، لكنني سأرسل

بطاقتي إلى السيد هولمز، مع كتابة عنوان الفندق محل إقامتي عليها. إذا كان هناك أي طريقة يمكنني مساعدتك من خلالها يمكنك الاتصال بي هناك. مع ذلك، أودعكم في الوقت الحالي"

رفع يدًا شاحبة وسلمت عليه. التقت عيانا ثم ترك يدي تسقط واندفع خارجًا من الغرفة بسرعة كبيرة حتى إن شابلي بالكاد تسنى له الوقت ليفتح الباب. حدقنا أنا وشابلي لبعضنا البعض في الفراغ الناجم عن غيابه المفاجئ، ثم أصدر صوتًا غير واضح وأوعز لي بالخروج بهزة من رأسه نحو الباب.

"هيا بنا إذًا، واطسون. قد ينحني الآمر من أجل آل ماكلاكلان، لكن أنا لدي عمل أقوم به" طوال طريق العودة إلى زنزانتي فكرت في سلوك أليستر ماكلاكلان. كلما أمعنت التفكير، كلما قل اقتناعي أنه قتل عمته.

لم يكن هاردي في زنزانتنا عندما عاد بي شابلي هناك، لكن بما أن القداس لم يكن انتهى بعد، كان هذا متوقعًا. مع عدم وجود أحد يشتت انتباهي، سرعان ما وجدتني أغفو بشكل متقطع.

للمرة الثانية في غضون أربع وعشرين ساعة، هزني هاردي لأستيقظ، ووجهه يضيء بالإثارة.

"أعتقد أن جالاواي عاقد الأمر على شيء، شيء كبير" انطلق قائلًا دون مقدمات.

كان رأسي مشوشًا بالنوم، كافحت أن أفهم كلماته بينما كان يواصل الكلام.

"تبعت أحد رجاله إلى غرفة أعلى المبنى. لم أستطع الاقتراب أكثر من ذلك ـ هناك درج يؤدي إلى هناك، وقد وقف شخصًا ما على أهبة الاستعداد وحذرني لأبتعد عندما رآني ـ لذا كان على أن أعود. لكن جالاواي يخطط بالتأكيد لشيء ما"

"كنت تتجسس على جالاواي؟ وأحد رجاله رآك؟" اشتعل الغضب بداخلي أن الصبي قد عصى نصائحي عمدًا، لكنني قمعت ذلك في الوقت الحالي. الأهم الآن بالنسبة لي أن أتأكد من أنه لم يتعرض للخطر، وأنه لن يكرر هذا الفعل.

"قل لي بالضبط ما حدث، ألبرت! بدءًا من كيف أصبحت في وضع يسمح لك بالتجسس على جالاواي من الأساس. كيف تجنبت القداس؟"

ابتسم هاردي، ولم يخجل على الاطلاق. "من السهل القيام بذلك، جون. فقط انتظر حتى يتم احتسابك ضمن الحاضرين من قبل أحد الحراس، ثم تخبر آخر أنك أُمرت بتنفيذ بعض المهمات أو ما إلى ذلك. أترى، بسيطة"

"ذكي جدًا." اعترفت له، "لكن ما الذي دفعك للقيام بمثل هذا الشيء، بينما وافقتني ليلة أمس على الابتعاد عن ماثيو جالاواي؟"

"وهكذا فعلت!" جاء هذا الاحتجاج مصحوبًا بابتسامة عريضة، مصممة لأخذ اللوم من اعترافه. "لقد تبعت

أحد رجاله، لم أتبعه هو، أليس كذلك؟ الأمر كما يلي، رأيت مجموعة منهم يتحدثون إلى شابلي ومرروا له شيئًا، ثم قطعوا الصف وصعدوا الدرج في الاتجاه المعاكس لزنازينهم. لم أستطع أن أدع ذلك يمر، أليس كذلك؟"

"كان بإمكانك، كما كان يجب عليك،" أصريت لكن رغبتي في المعلومات التي جمعها هاردي فاقت الحاجة إلى توبيخه على سلوكه الأحمق. "لكن لنضع هذا الأمر جانبًا في الوقت الحالي، ماذا اكتشفت؟"

هز الفتى كتفيه وخيبة الأمل واضحة على وجهه. "كما كنت أقول، لم أكتشف الكثير، لكن ما يكفي لأعرف أن جالاواي لا ينوي خيرًا. كان هو ورجاله متحصنين في تلك الغرفة العلوية، تاركين واحدًا منهم أعلى الدرج كمراقب. هو الذي رآني وأرسلني في طريقي"

"هل اكتشف أنك تتجسس على جالاواي؟" سألته.

"أبدًا،" أجاب هاردي بسرور واضح. "قلت له أني كنت أستكشف المكان. قال إنه سيذبحني إذا رآني أتجول مرةً أخرى. كما لو أن هذه الكتلة الضخمة يمكن ان تمسك بي! أنا منزعج لأني لم أحصل على فرصة للاستماع عبر الباب، على الرغم من ذلك، لابد أنه كان هناك ما يزيد عن عشرة رجال هناك"

لقد كانت أخبارًا مثيرة للاهتمام ولم يكن هناك من يستطيع إنكار ذلك. كنت قد لاحظت أن لوائح السجن تطبق بشكل أكثر صرامة مما كنت أتوقع، خاصة بالنسبة لأمثال جالاواي، لكن على الرغم من ذلك، فإن السماح لهم بالتجمع بهذه الأعداد الكبيرة يشير إلى أن هذا أكثر

من غض طرف في بعض الأحيان يتم توجيهه إليه، وحان وقت تعزيز تحذيري من الليلة السابقة.

"شكرًا لك يا ألبرت" قلت بجدية. "هذه معلومات مفيدة للغاية، وقد يستفيد منها هولمز. لكنني أريدك أن تعدني بترك تلك المسألة تمامًا"

تجهم وجه هاردي، وهز كتفيه قليلًا، كما لو أن الأمر لا يعنيه بالمرة. لكن رد فعلي خيب أمله، ومحاولته الطفولية لإخفاء هذه الحقيقة ذكرتني فقط بصغر سنه.

"أنت تفهم أني ممتن لمساعدتك يا ألبرت" تابعت بنبرة استرضائية، "لكنني لن أغفر لنفسي أبدًا إذا حدث شيئ لك بسببي"

ذلك أفضل. ابتسم هاردي وأومأ برأسه ثم ألقي بنفسه على فراشه. "إن كان هذا ما تريده، جون. سأبقى بعيدًا عنه بعشرة أقدام. لكن ماذا عن إيكي كولينز؟"

هززت رأسي بقوة. "كما قلت لك الليلة الماضية أيضًا، أظن أنه تم الدفع للسيد كولينز من قبل شخص آخر لمهاجمتي. سأكون على أهبة الاستعداد الآن، لكنني أشك أنه سيهاجمني مرةً أخرى، خاصة مع حماية جالاواي لي"

لم أستطع منع نفسي من الضحك على فكرة أن الرجل الذي كنت أحقق في أمره كان هو أيضًا من يحميني. صدم هاردي أيضًا من عبثية الموقف وانضم إلى ضاحكا. ومع ذلك حتى وأنا أضحك، لم أتمكن من تخليص نفسي من فكرة أن هناك قدرًا محدودًا من الوقت لإثبات براءتي، وحتى الآن لم نحرز أنا وهولمز تقدمًا يُذكر في تحقيق ذلك.

الفصل الثامن عشر

تم تحديد موعد محاكمتي في أواخر كانون الأول/ ديسمبر، ومع عدم وجود ما يشير إلى حدوث تقدم ذي قيمة في قضيتي، رتبت لزيارة محامي للتحدث عن دفاعي.

كان أوزمونت ماركوم اسكتلنديًا، طويل القامة، كئيب المزاج، قليل الكلام لكنه استمع باهتمام وأنا أصف مرة أخرى الأحداث التي أدت لاعتقالي وسجني الحالي. جلس أمامي واضعًا دفترًا مفتوحًا على ركبتيه كتب فيه ملاحظات غزيرة بيد صغيرة ومرتبة. على الأغلب، كان يكتفي بإيماءات تشجيع أثناء حديثي، لكنه كان يطلب توضيحًا لنقطة ما بين الحين والآخر وينسخ إجاباتي حرفيًا في ملاحظاته.

عندما أنهيت سردي بوصف لزيارة بوتر إلى شارع بيكر، وضع قلمه جانبًا ونظر إليّ بنظرة كئيبة على وجهه.

"حسنًا، دكتور واطسون،" غمغم بصوته الناعم ذي اللكنة الجبلية، "هذه قصة رائعة" قلب صفحات دفتره وهو يومئ لنفسه وهو يفعل ذلك. "نعم، قصة رائعة، لكنها قصة نستطيع أن نميلها لإرادتنا مع التلاعب الصحيح"

شدد على كل مقطع من الكلمة الأخيرة بشكل واضح، كما لو كان يخلق الوقت لتحديد ما يجب قوله بعد ذلك.

"بطبيعة الحال لا يمكننا أن نقترح مباشرةً أن المحقق بوتر كان غير عادل بشأنك. لا، هذا لن يجدي على

الإطلاق. إن اتهام شرطي بالخطأ لا يؤتي ثماره أمام هيئة محلفين في لندن أكثر مما يفعله مع هيئة محلفين في إدنبرة، أنت تفهم. لكن، ربما من الممكن أن نشجع جزءًا من هؤلاء الرجال الشرفاء للتوصل إلى مثل هذا الاستنتاج دون مساعدة. اتجاه شهادتك، والدليل المقدم من الصحفي، لابد أن يجعل أي رجل ذي عقل يتوقف ويتساءل عما إذا كان الضابط الذي كُثُر ذكره خاملًا أكثر مما ينبغي في تحقيقاته. كما أن اسم شيرلوك هولمز لن يضُرنا أيضًا. اسم صديقك معروف للجمهور، في حين أن الرجل نفسه مجهول، مما ـ بعد أن قضيت معه حوالي الساعة صباح أمس ـ يجعلها أفضل طريقة للالتفاف حول الأمر" ابتسم ابتسامة رقيقة على مزحته. "السيد هولمز بلا شك رجل عظيم، لكن شخصيته إلى حد ما... وقحة"

"على أي حال، دكتور، أود أن أقول إن هناك أسبابًا للأمل. أعتقد أنني سأتمكن من أدوات وضع الشكوك في أذهان المحلفين، وهذا هو الشرط الوحيد في القانون. أخ صغير فاسق، عيناه على الميراث الذي سيحرره من مواصلة ممارساته الدنيئة التي لا توصف ـ وذهب إلى فرنسا!ـ جنبًا إلى جنب مع الوقت القصير الذي كان يمكن أن تقتل فيه السيدة وعدم وجود دافع يمكن إثباته... إذا لم أستطع أن أضع ظل الشك في ذهن رجل لغرضٍ معين، حسنًا، يجب أن أخجل من تسميتي محاميا"

كان هذا بالضبط ما أحتاج لسماعه، ولكن في الوقت نفسه لم أستطع السماح لماركوم بالمضي قدمًا معتقدًا أن

أليستر ماكلاكلان مذنبًا. شرحت له ما حدث في لقائنا، وعن قناعتي بأنه لم يكن قاتلًا أكثر مما أكون. استمع المحامي باهتمام بينما رويت له المحادثة، ثم هز رأسه كما يفعل الأب لطفله.

"أنت رجل راقٍ وصادق، دكتور. وهذا يقول عنك الكثير أنك تقبل الجميع كما هم وعلى أنهم نفس الشيء، ولكن إذا سمحت لي بحمايتك من نفسك، فيجب أن تنسى كل ما قاله لك ماكلاكلان. لو كنت أعلم أنه يرغب في مقابلتك لكنت منعت هذا من الحدوث، لقد أثبت أن الرجل فاسق وبكلماته الخاصة أدين أنه داعر، دمر حياة أكثر من فتاة صغيرة. في الواقع، سيدي"

قال وهو ينظر إلي بانتقاد "أنا مندهش أنك قبلت دعوة التحدث إليه"

كنت أميل إلى كبح فكرة أنني ساذج ميؤوس منه، ولكن ما الداعي؟ كان ماركوم محقًا. وظيفته هي حمايتي حتى من نفسي، ولم يكن لدي سوى حدسي دليلًا أن ماكلاكلان بريء. ومع ذلك، فقد صححت له افتراضه أن لقائي مع ماكلاكلان كان طوعيًا.

"ما الذي تقوله، دكتور؟ تم نقلك إلى اجتماع كما يساق خنزير للذبح؟ هذا أمر غير عادي بما فيه الكفاية ليكون جديرًا بالتعليق. أعتقد أنني سأكتب ملاحظتي عنه"

وهذا ما فعله، فقد انكب مرة أخرى على دفتره متمعنًا بينما تفكرت فيما قاله بخصوص محاكمتي. بالطبع لا يزال لدي آمال أن هولمز سوف يجد طريقة أخرى لتبرئتي قبل

ذلك الحين، لكنني لم أسمع من صديقي منذ أن دلفت داخل جدران هولواي، وإلى جانب ذلك، لم أكن أحمق لدرجة افتراض أن انتهاء التحقيق سيكون ناجحًا كأمر مؤكد. هناك العديد من الحالات في الماضي التي لم ينجحً فيها هولمز، على الرغم أنه من الواضح أنني لم أضعها في متناول جمهور القراء الخاص بي.

في لحظة من الفكاهة الكريهة، تساءلت عما إذا كان هناك من سيكتب قصة سقوطي إذا أثبت هذا فشلًا آخر من إخفاقاته النادرة. قضية الطبيب القاتل، ربما.

نظر لي ماركوم باستغراب وأدركت أنى كنت أبتسم. "آسف سيد ماركوم" اعتذرت له في عجالة. "كنت تقول...؟"

"مجرد أن الأمر ليس قاتمًا كما يبدو، دكتور" أعاد ما قاله، "لكن يبدو أنك توصلت إلى هذا الاستنتاج بنفسك بالفعل"

قام وأعطى انحناءة صغيرة. "سأتركك الآن وأعود في غضون يومين. وبحلول ذلك الوقت سأكون كونت فكرة أفضل عن كيفية عرض قضيتك بأنسب طريقة"

شكرته بإخلاص وشاهدته وهو يغادر، ثم تبعت الحارس عائدًا عبر الممرات التي أصبحت مألوفة الآن إلى زنزانتي.

اليوم التالي كان يومًا مميزًا في السجن. يوم المحققين كان حدثًا معتادًا في هولواي، وإن تمكنت من تجنبه حتى

الآن. عدة مرات في الأسبوع يتم دعوة ضباط شرطة لندن إلى هولواي حيث يسمح لهم بالتجول والاختلاط بحرية مع السجناء. سواء لاستجواب المشتبه في ارتكابهم جرائم معينة ومع بعض الحظ، تحديد أي رجل مطلوب لجريمة أكثر خطورة وجد نفسه متهمًا بارتكاب جريمة أقل حدة.

بالنسبة للسجناء، يوم المحققين هو سيف ذو حدين. البعض يعتبره خطر لتحديد هوية غير مرغوب فيه، ولكن بالنسبة لأغلب الناس كان فرصة للاختلاط بحرية أكبر، حيث يتم تخفيف القيود المفروضة على الحركة قليلًا، ويمدد وقت التريض بشكل غير رسمي.

وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن دائمًا كما يبدو، فإن الممارسة الحالية هي السماح للسجناء بالتجمع في ساحة التريض، ومرور رجال الشرطة الزائرين بين الحشود والتحدث إلى من يحلو لهم. حتى مع حماية جالاواي لي المشكوك فيها، بقيت حذرًا واتخذت أنا وهاردي موقعًا على حافة الفناء، تحت شجرتين متداخلتين غير صحيتين. مثل العلماء الذين يراقبون الحيوانات وحيدة الخلية المتنافسة وهي تسبح في قطرة ماء، قضينا نصف ساعة في مراقبة المحققين الذين لا يمكن التعرف عليهم وسط الغوغاء إلا من خلال لون ستراتهم وهم يبحثون عن فريستهم. بين الحين والآخر يتوقف التقدم المُتعَرج فجأة وتمر دقيقة ثم يتحرك الصف الملون مرة أخرى الآن فقط بعد سحب سجين رمادي باهت.

وجدت الأمر كله مشتتًا للانتباه، لكن هاردي سرعان

ما شعر بالملل لأنه شهد هذه العملية عدة مرات من قبل.

"سأذهب لأمدد ساقي قليلًا، جون" قال وهو ينهض على قدميه وينظف الغبار من على سرواله. "هل ستكون على ما يرام وحدك؟"

"أظن أنني سأبقى على قيد الحياة" أجبت بسخرية. لقد وبخت عقلي على حذري المفرط وأنا أشاهده يختفي بين الحشد المنثور أمامي. لقد ذهبت إلى الحرب، أليس كذلك؟ كانت تلك الفكرة مهدئة. استأنفت ملاحظتي لما حولي متمنيًا لو كان لدي سلاحي الرسمي.

كان اليوم أكثر دفئًا مما كان عليه الحال في الأسابيع الأخيرة الماضية، وشعرت بالفعل أنني أكافح لأبقى مستيقظًا.

قررت للتو أن أدور حول الفناء قبل ان أغفو تمامًا، عندما قاطع صوت غير مرحب به أفكاري.

"آمل أن تكون مرتاحًا، دكتور واطسون؟"

جلس بوتر القرفصاء بجواري وفي يده لفافة تبغ تحترق. رأى نظرتي للترف المحرم فقام بسحب علبة فضية من داخل جيبه.

"خذ واحدة" عرض العلبة على. "لا تقلق سيغضب الحراس الطرف عن خرقنا البسيط للقواعد"

هززت رأسي وقمت دافعًا نفسي على قدمي، لكن بوتر وضع يده على كتفي وأبقاني جالسًا.

"لا تقم بسببي، دكتور" ابتسم بتجهم. "توقفت فقط لألقي السلام وأرى كيف تستمتع بالعودة داخل هذه

الأسـوار".

عرفـت دائمًـا أن بوتـر يكرهنـي وافترضـت، حتـى تلـك اللحظـة، أن ذلـك كان لأنـه متأكـد مـن أنني الجاني. ولكـن في تلك اللحظة، ووجهه قريب من وجهي ويده على كتفي، أدركـت أن هنـاك مـا هـو أكثـر وأعمـق مـن ذلـك. بـدا متعبًـا للغايـة أكثـر مـن أي شيء، وحتـى حزينًـا للغايـة بسـبب شـيء مـا.

"هـل أنـت متأكـد أنـك لا تريـد لفافـة؟" عـرض مـرةً أخرى وهـذه المـرة أخـذت واحـدة، متعجبًـا مـن تصرفـه. دفـع نفسـه علـى قدميـه قبـل أن يقـول بإحـراج "أنـت تعلـم أنـى لا أكـنّ لـك عـداء شـخصيا فـي كل هـذا، دكتـور؟ أعنـي فـي أفعالـي. لـدي وظيفـة أقـوم بهـا، لـدي أوامـري، مثلـي مثـل أي رجـل آخـر"

لـم يكـن هنـاك مـا أقولـه ردًا علـى هـذا، لـذا أومـأت برأسـي ببسـاطة وجلسـنا ندخـن لفافتينـا فـي صمـت، ثـم هـز بوتـر نفسـه وظننـت أنـه سـيقول شـيئًا آخـر، لكـن بـدلًا مـن ذلـك، حـدق فـي وجهـي بصمـت قبـل أن يضـع عـدة لفافـات مـن التبـغ فـي يـدي. ثـم دار علـى عقبيـه وسـار بعيـدًا دون أن يقـول كلمـة أخـرى.

بعـد ذلـك بوقـت قصيـر بـدأ الحـراس فـي نقـل السـجناء إلـى زنازينهـم، وانتهـى يـوم المحققيـن.

فكرت في سلوك بوتر الغريب بينما كنت أسير في مجموعة عائدًا إلى زنزانتي لكنني لم أستطع فهمه. وبينما كنا نصعد الدرج رفع الحارس المسؤول يده وتوقفنا جميعًا. شيء ما يحدث أمامنا، لكن من حيث وقفنا، كان من المستحيل معرفة أي طابق وقع فيه الحدث. دفعت نفسي على أطراف أصابعي لكنني تمكنت فقط من رؤية مجموعة أخرى من السجناء قادمة نحونا من أسفل، حيث تقع زنزانتي.

من بين المجموعة رأيت ماثيو جالاواي بعين لا لبس فيها. التقت عينانا بشكل مشوش، ثم هز رأسه ببطء ودقة. بدا اليوم مليئًا بالأشخاص الذين يتصرفون بشكل غريب.

كما توقفنا فجأة، بدأنا في التحرك مرة أخرى فجأة. وصلنا إلى مدخل زنزانتي قبل أي من الزنزانات الأخرى، وهكذا كما جرت العادة، دخلت وانتظرت إيواء السجناء الآخرين، وعند تلك النقطة يعود الحارس مرة أخرى على طول الممر ويغلق كل باب أثناء مروره. نظرت إلى هاردي مستلقيًا على فراشه، ارتددت للخلف وعُصارة معدتي الحمضية تعلو بينما أشعر بالغثيان يرتفع في حلقي.

استلقى ألبرت هاردي على فراشه، لكن من الواضح كيف قُتل. أظهر قوس من الدم الشرياني على الجدار الخلفي أنه كان واقفًا عندما جاء مهاجمه من خلفه ونحر حلقه. لابد أنه تعثر إلى الأمام وسقط على الفراش، مما تسبب في تجمع ما بقي من دمٍ خرج من حلقه المفتوح

تحته. على الرغم من أني جراح متمرس، شعرت بجيشان معدتي وأنا أسحب هاردي من ذراع واحدة داعمًا جسده على الجدار. الصوت السميك الممزّق لجسده وهو يبتعد عن الدم المتكتل جنبًا لجنب مع الرائحة، جعلتني اتهوع بجفاف.

أجبرت نفسي على التماسك، وانحنيت فوق الجثة. كان حلق هاردي قد قطع بعمق، وامتد الشق من نقطة أسفل أذنه اليسرى مباشرةً إلى نقطة أخرى على بُعد بوصة واحدة على اليمين. الأمر الذي اقشعر له بدني أكثر، هو الجرح الذي ترك على خده الأيسر. حرف دموي واحد منحوت في جسد الفتى. كان جرحًا خشنا وغير متساوي بكل تأكيد، ولكن لم يكن هناك عين تخطيء حرف ال G الكبير.

الفصل التاسع عشر

أظن أنني فقدت الإدراك في الدقائق القليلة التالية. وإلا كيف أشرح حقيقة أنني كنت واقفًا فوق جثة هاردي المسكين للحظة، وفي اللحظة التالية كنت أضع يدي على كتف ماتي جالاواي في الممر خارج زنزانته.

كل ما أعرفه على وجه اليقين هو أنني كنت أركض لأن العرق كان يتدفق على وجهي بينما أسحب زعيم العصابة لمواجهتي. سمعت صراخا بأوامر وتعجب غاضب آت من خلفي. تقدم أحد رفاق جالاواي الدائمين، والذي كان أسرع من الآخرين، إلى الأمام بهدير غاضب وأمسك يدي بيده لكن قائده لوح له أن يبتعد وأخذ خطوة للخلف محررًا نفسه من قبضتي.

"دكتور واطسون، ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟"

ربما كانت النبرة الساخرة، أو ربما كانت نصف الابتسامة التي تراقصت حول فمه، ولكن أيًا كان السبب فقد كان سؤال جالاواي كافيًا لدفع كل الحذر من ذهني. دون تفكير في العواقب ـ بل ودون تفكير على الإطلاق ـ اندفعت إلى الأمام ملوحًا قبضتي في وجه جالاواي.

لو أنني نظرت في الأمر لأدركت عدم جدوى مثل هذا الهجوم. الرجال مثل جالاواي لا يبقون على قيد الحياة طويلًا إذا كانوا غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

بشيء أقرب إلى الإزدراء حرك رأسه للخلف مما سمح لقبضتي المتهورة بضرب الهواء، ثم هاجمني بدقة ولكمني في معدتي قبل أن يضربني في ذقني بينما كنت أحاول رد الضربة. أصبحت رؤيتي غير واضحة لفترة وجيزة بينما كنت ألهث من أجل التنفس، ثم تراجعت للخلف لأسقط بشدة على البلاط. عندما استعدت بعض قوتي لأنهض على ركبتي، اختفى جالاواي وأتباعه في زنازينهم وأصبحت وحدي ألهث في إحباط وغضب عاجز.

لسوء الحظ لم أبق هكذا لوقت طويل. لم أكد أدفع نفسي على قدمي حتى ظهر شابلي في نهاية الممر.

"ما هذا، واطسون؟" صرخ بينما لم يبذل أي جهد لإخفاء سعادته برؤيتي منبطحًا بهذا الشكل. "تقاتل مرةً أخرى، هاه؟ لا تكلف نفسك عناء إنكار ذلك أيضًا. رأيت كل شيء. اعتداء غير مبرر على سجين آخر. لا شك في ذلك" ابتسم وهو يتحرك ليمسك بذراعي.

"غير مبرر!" الادعاء الظالم كان أكثر قسوة وألمًا من أي جُرح عانيت منه في حياتي. ضربت يده بعيدًا وقربت وجهي من وجهه. "بيرت هاردي يرقد ميتًا في زنزانتي في تلك اللحظة بالذات وقاتله يبتعد بحرية، ولديك الجرأة..."

كان عليّ أن أتوقع أن شابلي لن يكون وحده. وبينما كنت ألتقط أنفاسي لمواصلة شتائمي، شعرت بحركة خلفي، واستدرت نصف استدارة. لم يكن أمامي سوى لحظة لأرى شخصا ما يخطو من زنزانة مظلمه وهراوة تتأرجح نحوي، ثم وجدتني ملقًا على الأرض للمرة الثانية

في غضون دقائق. هذه المرة لم يكن لدي أي طاقة او استعداد للقيام. استلقيت على الأرض الصلبة بينما شابلي يتكئ على ويهمس "الاعتداء على سجين وحارس، والآن تخبرني أن هناك سجينًا زميلًا لك ميتًا في زنزانتك! لن يرى الآمر الأمر بشكل جيد، بغض النظر عن أصدقائك رفيعي المستوى الأقوياء" أشار إلى الرجل الذي أسقطني. "خذه إلى آمر السجن مباشرة"

استغرق الأمر من عقلي المرتبك لحظة لأستوعب الرعب الكامل لما قاله. بالتأكيد لا يمكن أن يقترح أنني قتلت هاردي؟ ومع ذلك، مع استمرار رنين رأسي والطعم الحاد للدم في فمي، أدركت أن هذا هو بالضبط ما يقترحه شابلي.

عندما وصلت إلى مكتبه، جلس كيجان على مقعده منهمكًا في محادثة هامسة مع حارس آخر الذي انحنى منخفضًا ليجعل الاستماع إليه أسهل. خلاف ذلك كانت الغرفة فارغة. نظر كيجان إلى بسرعة ثم لوح للحارس أن يبتعد فاتخذ موقفًا مقابل الجدار الأيمن.

"واطسون" قال آمر السجن بصوت ناخر أخيرًا. "لقد تأكد لي في هذه اللحظة أن السجين ألبرت هاردي يرقد ميتًا في زنزانتك. من الواضح أنه قُتِل" نظر إلي بنظرة خاطفة عبر المكتب. "بالتأكيد يمكنك إلقاء بعض الضوء على وفاة هاردي، واطسون؟" سأل تاركًا القليل من الشك في أنه يتوقع مني أن أفعل ذلك.

"ماثيو جالاواي هو الرجل الذي تريده!" صحت

ببعض الحرارة. "حذر رجاله الفتى، لكن من الواضح أن ذلك لم يكن كافيًا. أيًا كان من استخدم السكين بالفعل، فإن جالاواي هو اليد التي تقف وراءه"

"حذره؟" أضاءت عيون كيجان. "ولماذا يحتاج جالاواي إلى تحذير الصبي؟ ماذا كان يفعل؟"

لم يكن هناك داع للمراوغة. "كان هاردي يرغب في مساعدتي ويعتقد أنه يمكن أن يفعل ذلك على أفضل وجه من خلال مراقبة جالاواي وحلفائه"

"لقد فعل هذا بناءً على تعليماتك كما افترض؟"

"لا، أبدًا". قلت محتجًا "في الواقع، فعلت كل ما في وسعي لثنيه، لكنه كان شابًا عنيدًا، ولم يقبل أن يملي عليه أحد أفعاله». تذكرت ملل هاردي في وقت سابق، وفي عين عقلي رأيته يسير بعيدًا وسط حشد من السجناء. بدا من المؤكد أنه وجد الإثارة التي كان يبتغيها في التجسس مرة أخرى على جالاواي. وفي النهاية دفع ثمن قيامه بذلك.

"لن يقبل أن يملي أحد عليه أفعاله" كررت مرة أخرى. "وجالاواي قتله بسبب ذلك. لقد ذبحه، تمامًا كما قال إنه سيفعل"

سمعت شابلي يدخل الغرفة من خلفي، لكنني تجاهلته قدر استطاعتي، مفضلًا تركيز اهتمامي على آمر السجن الذي ثبتّ عينيّ عليه بعزم. كنت مصممًا على إجباره أن يتخذ فعلًا ضد جالاواي.

"في زنزانتك؟" تساءل بشك. "وكيف تمكن من الوصول إلى زنزانتك دون أن يلاحظه أحد، ثم عاد إلى

زنزانته مرة أخرى دون أن يُرى؟"

"لا شك أنه دفع لأحد الحراس ليغض الطرف عنه. لن تكون المرة الأولى"

"هل لديك أي دليل على مثل هذا الادعاء؟" سأل كيجان بعد وقفة قصيرة. "هل سمع أي سجين آخر جالاواي وهو يهدد هاردي؟ أو رآه أحد وهو يرشو أحد حراسي؟"

"لا" اعترفت على مضض. كانت الغرفة دافئة وخانقة وكافحت من أجل تنظيم أفكاري. "لم يره أحد، لكن هذا لا يقلل من حقيقة الأمر"

بدا عذرًا ضعيفًا، حتى بالنسبة لي، وتجاهل كيجان الاتهام بازدراء. "لقد أرسلت الصبي الصغير بدلًا منك كما تزعم، للتجسس على مجرم معروف وعنيف، ثم هدد نفس المجرم، كما هو متوقع، بقتله، ولا أحد غيرك لديه أي معرفة بالتجسس أو التهديدات؟ هل لخصت الأمر بشكل صحيح؟"

دار رأسي وأنا أفكر في أفضل طريقة للرد. لو أن هولمز في مكاني، لمزق منطق كيجان الواضح من خلال ملاحظته بعض التفاصيل الصغيرة التي فاتتني. كان هولمز ليكتشف شيئًا ما، لكن لم يكن لدي شيء. كان رأسي لا يزال يطن من الضربات الأخيرة التي تلقيتها، وتساءلت عما إذا كنت أعاني من ارتجاج. في النهاية، هززت رأسي عاجزًا. أدركت أنه لا عدالة يمكن العثور عليها هنا، ربما على أن أتولى الأمر بنفسي.

"هذا ما اعتقدته" صاح كيجان بصوت يشبه نعيق الغربان ومسح على ذقنه بيده بحركة عكسية. "الادعاءات التي وجهتها ضد جالاواي شائعة جدًا في مؤسسة مثل هذه، ويمكن تجاهلها إذا توقف سلوكك السيئ عندها، ومع ذلك فقد أخذت على عاتقك تقديم ادعاءات لا أساس لها من الصحة ذات خطورة أكبر بكثير ضد حراسي، وهذا ما لا يمكنني تحمله! شابلي!"

طقطق أصابعه دون أن يبعد نظره عني، وتقدم شابلي بذكاء للأمام.

"أظن أن السجين واطسون بحاجة إلى التذكير بأن هناك عواقب لأفعاله، شابلي. ربما بينما نحقق أكثر في وفاة هاردي ستشرف أنت على تذكيره بتلك العواقب؟"

سمعت الترقب في صوت شابلي وهو يجيب بالإيجاب بينما يسحبني للخلف. كنت لا أزال أواجه مكتب كيجان عندما أغلق الباب. في آخر نظرة لي على آمر السجن كان يحدق إلى الأمام مباشرًة وعلى وجهه ابتسامة رضا.

بصحبة الحارس الآخر، دفعني شابلي بضع الوقت وجرني البضع الآخر أسفل ممرات غير مألوفة ثم خرجنا إلى الهواء الطلق. عبرنا رقعة من الأرض مغطاة بالنفايات ومضينا سائرين حتى ظهرت مضخة مياه السجن في الأفق.

عرفت آنذاك إلى أين نحن ذاهبون. في السنوات السابقة كان يتم ضخ المياه عبر السجن عن طريق عمل المدانين على مجموعة مخيفة من الطواحين الهوائية. سرنا على طول جدار المضخة ثم مررنا عبر مدخل إلى البناء الذي

يكمن خلفها. بركلة أخيرة دفعني شابلي من خلال المدخل وإلى الأرض المغطاة بالبلاط خلفها. تبعني بسرعة وأمسك بالجزء الأمامي من قميصي وسحبني. "لطالما كانت لدي شكوك حولك، دكتور واطسون" قال ساخرًا، "حتى قبل أن ينتهي بك الامر داخل السجن، اعتدت أن أسمع عنك، وأنت تتبع شيرلوك هولمز هذا مثل الكلب وتخبر الجميع كم هو رائع. لست أفضل من عبد إيطالي يمدح ملكه، إن سألتني».

تبين أنك مثل هؤلاء القتلة الأجانب أيضًا. لكنك أجبن من أن تعترف بما فعلته، أليس كذلك؟ تقتل الصبي، وهو الذي اعتبرك صديقًا له؟ هذا أمرٌ غير طبيعي، أليس كذلك؟"

رفع قبضته في غضب حقيقي، ولعنت حالتي المرتبكة وأنا أغطي رأسي بضعفٍ مستعدًا للضربة، لكنها لم تأت أبدًا.

من الواضح أن شابلي سيطر على نفسه وأخفض ذراعه. "أظن أني لا أستطيع لومك على محاولة الانتقام مني ومن الحرس المتورطين، أنا لست مدينًا لك بشيء، أمثالك سينقلبون على أي أحد فقط لإنقاذ أنفسهم. سيدات عجائز وفتية صغار، هذا هو حدك. لكن مات جالاواي كان جيدًا معك. كنت أعتقد أن الكياسة العامة تمنعك من التعرض له على الأقل"

أردت أن أسأله عما يعرفه عن جالاواي، لكن الكلمات خانتني، وبدلًا من ذلك شاهدته وهو يتحرك نحو الحائط

ويشعل ضوءًا.

كانت الغرفة المضاءة الآن طويلة لكن ضيقة نسبيًا، مع وجود أكشاك لالتقاط البلوط على كلا الجانبين وخلفها على اليسار مجموعات مرقمة من فتحات الطواحين.

لم أستطع تبين العجلة نفسها حيث كانت مخبأة خلف صف من الفتحات ذات الشرائح يبلغ عرض كل منها حوالي قدم ونصف، والتي يمكن من خلالها رؤية جزء صغير فقط. قرأت ما يكفي عن الطواحين الأخرى لمعرفة كيف يتم بناؤها. في الأساس عجلة مجداف مثل تلك قد يجدها المرء عند طاحونة ريفية، فقط مع شرائح واسعة إضافية يقف عليها رجل، وتتحرك الطاحونة بمجهود سير السجين.

أما المثال الذي أمامي فقد تألف من أربعة وعشرون كشكا، مرتبة في مجموعتين من أثني عشر، يفصل بينهما مساحة مغلقة من الطوب تراجع إليها شابلي.

"ضعه في رقم ثلاثة عشر، ماي" قال مناديًا. "لكن أخرج المقعد أولًا"

مد الحارس يده إلى أقرب كشك وأخرج لوحًا قصيرًا وضعه على أحد الجوانب. "لك أن تدخل الآن" قال وهو يدفعني إلى الأمام.

"أشياء خطرة تلك الطواحين" قال شابلي وهو يخرج من أحد الأكشاك المبنية من الطوب. "اعتاد الرجال أن يعلقوا بين الشرائح في الأيام الخوالي، من كان محظوظًا يفقد ساقه فحسب. بالطبع لم نعد نستخدمها في الوقت

الحاضر ولم تعد متصلة بالمضخة. أوقات أكثر تقدمًا. كما يقول آمر السجن، ولكن لايزال... هناك روافع" وأشار إلى المساحة المغلقة التي غادرها توًا. "دعني أضع مستويات مختلفة لما يسمونه المقاومة. يأتي في متناول اليدين عندما يكون هناك شخص يحتاج أن يتعلم درسًا لا يترك كدمات. من الأفضل أن تبدأ" قال بابتسامة عريضة.

"ساعة أو ساعتين من السير في مهب الريح ستجبرك أن تهذب أخلاقك فيما يتعلق بماتي جالاواي"

فكرت أن هذا أمرًا غريبًا ليقوله وأنا أضع قدمي بحذر شديد على الشريحة أمامي. توقعت أن تنسحق تحتي ولكن بدلًا من ذلك ارتجفت ببساطة دون أن تتحرك. استدرت قدر الإمكان بسبب ضيق المكان وسألت شابلي ـ مع تظاهر غاضب بالشجاعة ـ عما إذا كانت الآلة المدَمرة قيد التشغيل.

"قدم أخرى، واطسون" قال ساخرًا. "إنها درجات، وليس منصة لتستريح عليها"

رفعت قدمي ووضعتها على الدرجة التالية، التي تحركت على الفور تحتي كما كنت أتوقع في الأساس. في غضون نصف دقيقة كانت العجلة تتحرك بثبات تحتي.

بينما كنت أخطو خطوة تلو الأخرى دافعًا كل شريحة بعيدًا عني كلما ظهرت تحت قدمي، تذكرت جثة هاردي على فراشه والنظرة على وجهه الميت. سمعت شابلي يأمر بزيادة المقاومة، لكنني كنت ممتلئًا بالطاقة المدفوعة بالغضب والكراهية، تتغذى على الخطأ الفادح الذي

ارتكب في حق الصبي، وحقي.

ضغطت أكثر، غير عابئ بالحراس أو آمر السجن، ولم أر سوى كل خطوة كما تبدو تحت قدمي.

انهمر العرق أسفل جبهتي وفي عيني. احترقت العضلات في ربلة ساقي ولهثت أنفاسي، لكنني لم أبطيء بل ضغطت أكثر.

بشكل خافت، سمعت شابلي يصرخ "المزيد!" إلى شريكه غير المرئي، لكن هذا لم يدل على شيء بالنسبة لي. ضاعفت جهودي بينما تسبح البقع بكسل عبر عيني. انقبض صدري مع زيادة معدل ضربات قلبي حتى أصبح الصوت يشبه قرع طبول المتقطع على جدران صدري. غمر الاحمرار رؤيتي عندما أعطي شابلي بعض التعليمات الجديدة التي لم أستطع فك رموزها، ثم حل السواد محلها. وغابت الدنيا عن عينيّ.

الفصل العشرون

لم أنم كثيرًا في الزنزانة الجديدة التي ألقاني فيها شابلي وماي. بدلًا من ذلك، استلقيت ملتفًا كالكرة، أجزّ على أسناني في كل مرة أتحرك فيها، كلما لامست كدماتي حشية الفراش الرقيقة. في بعض الأحيان، نهضت وحاولت تمديد عضلاتي المتألمة وأخذ بعض الخطوات السريعة في المسافة بين النافذة والباب والعودة مرة أخرى. قبل أن أتراجع مرة أخرى إلى الفراش بأنين مخنوق.

كان عقلي أكثر نشاطًا بكثير. تمامًا كما فعلت عندما أمسك بي بوتر في شارع بيكر، في مرحلة ما عند صعودي الذي لا طائل منه في الطاحونة، حيث اشتعلت النار بعضلاتي وارتفعت ضحكات شابلي الساخرة من خلفي، تذكرت أني لم أفعل شيئًا خاطئًا.

أعدت النظر في كل ثانية منذ اعتقالي، وبنيت ببطء سلسلة من الاحداث في رأسي ثم فحصتها بتمعن بحثًا عن نقطة ضعف وعدم اتساق، يمكن أن تساعدني. حاولت قدر الإمكان، لم أستطع تحديد أي شيء. وهكذا حولت انتباهي من محنتي الخاصة إلى محنة رفيق الزنزانة المقتول. كنت قد تعهدت بمساعدته عندما كان على قيد الحياة ولكن بعد أن فشلت في ذلك ـ والأسوأ من ذلك، بعد أن كنت السبب في وفاته ـ ربما كان بإمكاني فعل شيء للانتقام لمقتله.

عندما أتى الفجر بكآبة من النافذة الصغيرة فوقي، وجدتني أرجو بشدة أن يكون هولمز قد انتهى من أي مهمة أبعدته عن زيارتي في السجن خلال الأيام الماضية. مناقشة تلك الأمور معه سيكون دفعة كبيرة لمعنوياتي.

كنت لا أزال مستلقيًا على الفراش عندما سمعت صوت دوران المفتاح وفتح باب الزنزانة. حارس جديد، رجل داكن البشرة ضخم ذو لحية سوداء وحواجب ثقيلة فوق عيون ضيقة محدقة، كل تلك العوامل جعلت مظهره وحشيا. صرخ آمرًا أن أستيقظ، وبالكاد توقف للحظة، صرخ قائلًا، "عندما آمرك أن تستيقظ، تستيقظ" وسار للداخل.

يبدو أنه لم يكن هناك أي راحة من عذاب الأمس، ولكن بروح التحدي التي اكتسبتها مؤخرًا، عقدت العزم ألا أقبل بالوحشية كما لو أنني أستحقها. قمت على قدمي وضممت قبضتي مستعدًا لأيًا ما كان آت.

"هل تلك هي طريقة تحية صديق قديم؟" سأل الحارس وهو يغلق الباب خلفه. "قد يعتقد المرء أنك غير مسرور برؤيتي، واطسون"

تجعد وجه هولمز بنصف ابتسامة مألوفة وهو يمسك بيدي للتحية.

"وصلني خبر وفاة صديقك الشاب في شارع بيكر في وقت متأخر من يوم أمس. أدركت على الفور أن الخطر المحيط بك في هذا المكان أصبح أكبر من أن يتم تجاهله. لحسن الحظ، كنت قد فكرت بالفعل في خطة التسلل إلى السجن لربما نحتاجها، لذا كان الكثير من الاستعدادات

موجودا بالفعل. برقية إلى الشخص المناسب، واجتماع الليلة الماضية مع واحد أو اثنين آخرين، وأصبحت كما تراني الآن، هاري أندروز، حارس معين حديثًا في سجن هولواي.

رغمًا عني لم أستطع إلا أن أضحك على متعة هولمز بذكائه الخاص، لكن هذا الفعل أدى إلى تفاقم الألم في عضلات صدري المتوترة، مما أجبرني على الجفول وركز هولمز اهتمامه فورًا على حالتي الجسدية.

"لكنني أرى أنى وصلت متأخرًا عما كان ينبغي لي" كان حاجباه يتجعدان بينما عيناه تتجاذبان بلا كلل صعودًا وهبوطًا علي. "من غير القانوني وضع سجين لم تتم إدانته بعد في الطاحونة، واطسون! قل لي، من أمر بذلك؟"

كان مقياس ارتياحي وسعادتي برؤيته أنني ضحكت مرة أخرى على هذا العرض لقدرته على الملاحظة، وبينما مازلت أضحك طالبته بتفسير.

"ليس لدينا وقت لهذا، واطسون" أجاب بشدة، ثم ربما إدراكا لرغبتي المألوفة، رضخ بما فيه الكفاية لتقديم إجابة. "ولكن إذا كان ذلك سيرضيك..."

"لقد كنت جنديًا، وأصبت في ميدان الحرب. لن تتأوه بهذه الطريقة إلا إذا عانيت من تعب شديد من الناحية الجسدية في الماضي القريب. تشير الطريقة التي وقفت بها أثناء دخولي إلى أن العديد من العضلات في صدرك وأعلى فخذيك مصابة بشدة مما يذكرنا بتلك التي يعاني منها الرجال الذين يعملون لفترة طويلة على جهاز الطواحين، في

حين أن ضمك لقبضتك على مرأى من حارس يدل على أنه مصدر محتمل لعدم ارتياحك. بالإضافة إلى ذلك، لديك جزء بالٍ بشكل طفيف على سروالك ناتج عن ارتطام ركبتيك بشكل مستمر في شيء أمامك مباشرة أثناء السير. يمكنني التفكير في سبعة أسباب محتملة مختلفة تسبب مثل تلك العلامات، لكن في بيئة السجن، جهاز الطاحونة الهوائية هو الجاني الأكثر احتمالاً إلى حد بعيد. الآن إذا كنت راضيًا، فربما ستجيب على سؤالي الأصلي. من الذي أمر بوضعك في هذا الجهاز، ولماذا؟"

سردت له أحداث الأيام السابقة وبسرعة. بما في ذلك لقائي مع ماكلاكلان، بينما كان هولمز ـ أو اندروز، كما يجب أن أعتبره في المستقبل المنظور ـ يستمع باهتمام، يومئ برأسه بين الحين والآخر، وعبس بوجهه عندما وصلت إلى مقابلتي مع آمر السجن كيجان.

بمجرد أن أنهيت روايتي، حكى لي هولمز تفاصيل أنشطته الأخيرة.

"كنت أخشى أن تكون زيارتنا للميجور ماكلاكلان قد أثبتت أنها أقل انتاجًا مما ظننت، لكنها أثمرت بعض الثمار غير المتوقعة، ومع ذلك، إن محاميك على حق. على الرغم من أنني مستعد للاعتراف بأن لك فراسة في الحكم على الشخصيات، إلا أنني لا أثق كثيرًا في حدس أي شخص ما لم يكن هناك حقائق صلبة لدعمه. ومع ذلك، لم أذهب إلى شارع بيكر منذ عدة أيام، وإذا كانت بطاقته تنتظرني هناك فهذا شيء في صالحه أؤكد لك. كن

مطمئنًا، أنا لست مخلوقًا باردًا لدرجة قبول موت رجل بريء من أجل إنقاذ حياة شخص آخر. أعدك أنني سأعطي ما قلته الاهتمام المطلوب».

"ولكن بالعودة لأخيه الأكبر. منذ أن طردنا من منزله، جعل السير كامبل من قضيتك حملة صليبية كبيرة، واصفًا إياك في محادثة خاصة مع مجلس العموم بأنك صانع كلمات في الصحافة الصفراء متاح للإيجار، وجعل من صلتك المزعومة مع العصابات الإجرامية التي ترغب في إسقاطه أمرًا جللًا. لقد تمكنت من إبقاء القضية بعيدة عن الصحافة الشعبية، لكنني آسف أن أقول إن الرأي السياسي ينقلب ضدك، واطسون. كل ما تمكنت من فعله هو أن آتي هنا. لن تكون هناك مساعدات أخرى من أولئك الذين سبق لي أن طلبت منهم المساعدة"

"ماذا عن الفتاة التي بدأت كل هذا؟ هل حالفك الحظ في العثور عليها؟"

هز رأسه نافيًا. "يبدو الأمر كما لو أنها اختفت تمامًا من على وجه الأرض، واطسون. لقد كان لدي أشخاص غير رسميين يجوبون الأزقة والأحياء الفقيرة دون جدوى، ولم يجد عرض مكافأة لمن يدل على موقعها حتى الآن سوى بظهور غير المتصلين أو الفاسدين"

"إذًا، نحن لم نقترب من الحل؟" استفسرت بحزن.

"أنا لم أقل هذا" وبخني هولمز بهدوء. "هناك أوقات لا يوجد فيها دليل بحد ذاته. لكن في غياب أي شيء يمكنني تقديمه إلى سكوتلاند يارد، أفضل من رفع آمالك

قبل الأوان. لكن لا تيأس. لايزال هناك وقت"

تسبب ضجيج في الخارج أن يصمت من فوره. أمسك بكتفي بخفة في يده وأرشدني إلى الباب. "أعتذر لك، واطسون، ولكن على لعب الدور إلى حدٍ ما" همس وهو يدفع الباب مفتوحًا بقدمه ويدفعني إلى الممر بالضبط عندما ظهر شابلي من المنطقة المركزية.

"ها أنت ذا يا اندروز،" أعلن بصوتٍ عال. "أرى أنك قابلت أحد أشهر نزلائنا، وأحد أكثر السجناء إزعاجًا أيضًا. أسرع يا واطسون،" وجه كلامه لي. "وادخل في الطابور. يجب أن تكون قد تعرفت على الروتين الآن"

وكأن أحداث الأمس لم تقع. لم تتم الإشارة إلى وفاة هاردي، ولا إلى العقاب الذي تعرضت له. وقفت في مكاني في طابور السجناء وتساءلت عما إذا كان هولمز محقًا. هل هناك وقت بعد؟

الفصل الواحد والعشرون

منذ ذلك الحين، كان هولمز متاحًا كلما غادرت زنزانتي. لا ينبغي أن نفترض بالطبع، أن كولينز (أو أي شخص يعمل معه- ظل السؤال دون إجابة) وجالاواي كان السجينان الوحيدان اللذين تمنيا لي السوء. وفي حادثتين أخريين خلال الأسبوع التالي، جرت محاولات لإيذائي.

في المرة الأولى، أخذ سجين نحيف على ووجهه ندبة المساحة المجاورة لمكاني في الكنيسة، بينما كنا نغني الترنيمة وحاول طعني في أضلعي بسكين يدوي الصنع. لحسن الحظ أنني كنت أتساءل عن إصراره على شغل ذلك المقعد بالذات، وكنت مستعدًا له. وبينما كان ينحني ليسحب السكين من مكان ربطه على كاحله، قلدت حركته ولففت معصمه بوحشية قبل أن يتمكن من المقاومة مما جعله يسقط السلاح الذي ركلته فيما بعد، بعد لحظة، وصل «أندروز» إلينا ودفع مهاجمي بعيدًا إلى زنازين العقاب.

كانت الحادثة الثانية أكثر خطورة. كنت أسير ببطء حول منطقة التريض، مدركًا تمامًا غياب هاردي، عندما قطعت مجموعة من السجناء المسارات المحددة واندفعوا نحوي. بعد هجوم كولينز، أصبحت مستعدًا لمثل هذا النهج. وبمجرد أن جاء الرجل الأول في نطاقي، هاجمته

وأوقعته مترامي الأطراف على التراب بلكمة في ذقنه. وأعقت حركة الرجل الثاني بركلة سريعة، لكن بحلول ذلك الوقت كانت عدة أيد وصلت إليه. الحراس الذين كانوا قبل ثانية واحدة فقط على بُعد اثنتي عشر ياردة مني، ذابوا بعيدًا في حشد من الرجال، وكانت الأمور لتسير بشكل سيئ لولا صوتٌ صافرة أندروز وحضوره المفاجئ مؤرجحًا هراوته بكفاءة محسوبة. انضم اثنان من العصابة إلى بني جلدتهم على الأرض بينما تناثر الباقون في خوف. كما هو الحال مع الرجل ذي الندوب في الكنيسة، لم أتعرف عليٍ أي من مهاجمي. ومع ذلك كان من الواضح أنني كنت هدفًا، حتى مع حماية جالاواي المفترضة.

ذكرت مفارقة حماية جالاواي غير الفعالة لهولمز في الصباح التالي عندما أتى إلى زنزانتي، كما أصبح من المعتاد، ويتسنى لنا بضع دقائق للتحدث.

"إذا كان من المفترض أن تمنع حماية جالاواي، إسحاق كولينز من حز عنقي، فكيف لم يكن لها تأثيرًا مماثلًا على هؤلاء السجناء الآخرين؟"

"هذا لغز لم أتمكن من فك رموزه بعد، واطسون. ومع ذلك، من الواضح أنه يمكنك توقع القليل من المساعدة من الحراس. لقد قبلني شابلي بالفعل بتنكري في شخصية السيد اندروز. مساء أمس أنهينا أعمالنا اليومية في نفس التوقيت. وبطبيعة الحال وجه إلى دعوة إلى الحانة كترحيب بي في منصبي الجديد. وبمجرد وصولنا وبعد عدة أكواب من البيرة البغيضة، تساءل بمهارة كبيرة عما إذا كنت مهتمًا بزيادة راتبي. "كل ما تحتاجه هو غض الطرف بين الحين

والآخر" كانت تلك هي كلماته بالضبط. لقد تأثرت كما لو أن الأمر اختبارًا لنزاهتي وضحكت على الأمر، وهو ما يرضيه في الوقت الحالي، ولكن حقيقة الأمر هي أنه لا يمكن الوثوق ببعض الحراس أنهم يعملون لمصلحة كل السجناء تحت رعايتهم. أخشى أنك أحد هؤلاء السجناء التعساء"

تذكرت اختفاء الحراس في ساحة التريض وارتجفت داخليًا. لا يمكن أن تكون رسالة الطاحونة أكثر وضوحًا. لقد اعتُبِرَت حياتي مستهلكة، ولم أكن أتوقع الحماية من أحد.

"بالنسبة لكولينز، ليس لديه أي صلة بك ولم تتقاطع طرقنا مهنيًا، لذلك نستنتج بأمان أنه تصرف نيابةً عن شخص آخر. ومع ذلك علينا أن نضع في الاعتبار أن عُرف المجرمين هو ما أسكته لدرجة أنه لم يقل أي كلمة سوى الادعاء بأن الاعتداء عليك بمثابة الاعتداء عليه.

نفس الموقف اتخذه أولئك الذين هاجموك مؤخرًا. يبدو أن كل رجل داخل هذه الجدران موجود هنا، نتيجة لجهودنا ولو بشكل غير مباشر. ربما لم تتعرف عليه، لكن الرجل الذي هاجمك في الكنيسة كان أحد البلطجية الذين استخدمهم كافاناج مشعل الحرائق في مانشستر، وكانت المجموعة التي هاجمتك في الفناء في خدمة المبتز جوناثان هود، المسجون الآن بأمان في دارتمور"

"إذاً حماية جالاواي لا قيمة لها؟ جيد. لقد كنت في مواقف أكثر خطورة بكثير مما أنا فيه الآن وليس لدي أي رغبة في أن أدين لقاتل ألبرت هاردي بأي خدمة"

"أحسنت قولًا، واطسون، هذا هو صديقي قوي الشكيمة الذي أعرفه"

"هل يمكن أن يكون رب عمل كولينز هو نفس الشخص الذي قتل هاردي" سألته. "هل يمكن أن يكون جالاواي خدعة مزدوجة، أن كل تحركاته مصممة لزيادة عذابي؟"

نظر هولمز عبر باب الزنزانة، ولكن حتى الآن لم يكن هناك أي علامة على وجود أي حارس آخر، وبالتالي كان لدينا بعض اللحظات دون أن يلاحظنا أحد.

"أخشى أنك أصبحت مهووسًا بجالاواي، واطسون. لماذا يرغب في إيذائك؟ بالإضافة إلي أنه لا أهمية لتورطه في الاعتداء عليك أنت وهاردي من عدمها، بينما نقترب من موعد محاكمتك، وحتى ليس لدينا مشتبه به آخر نقدمه لبوتر بدلًا منك. لن أكون هنا خلال اليومين المقبلين ـ لدي بعض الأمور التي يجب أن أحضرها من خارج السجن ـ لكنني أتوسل إليك أن تبقى في زنزانتك قدر الإمكان وإن لم تستطع ابق على مرأى من الحراس في جميع الأوقات. شابلي وأمثاله ليسوا فوق الرشوة أو حتى الاعتداء، لكن من وجهة نظري، فإنهم سيرفضون القتل"

ابتسم ليطمئنني. "سأعود في موعد لن يتجاوز مساء الغد. آملًا أن آتي بأخبار جيدة. الآن، لا تجعلني أسحبك من حفرتك تلك!" اختتم بصوت عالٍ حتى لا يشك أي أحد بالخارج، "أخرج نفسك لهذا الممر واستعد للتحرك!"

أسرعت للقيام بما قال، لكن عقلي سرعان ما عاد بالفعل إلى جالاواي ومشاركته في موت هاردي.

الفصل الثاني والعشرون

اليوم التالي كان من الأيام القليلة على مدار العام الذي يتحول فيها الطقس ليكون مروعًا. اجتاحت الرياح شوارع لندن مقتلعة الأشجار، وصقلت الأمطار المنهمرة الأسطح المكشوفة، وكنتيجة طبيعية تم إلغاء فترة التريض، لم نختلط سوى فترة القداس الذي حرصت أن أجلس بجوار حارس في نهاية الصف وبقينا في زنازيننا ما تبقى من اليوم. الغريب أنه ورغم ذلك لم يظهر جالاواي أو رفاقه المقربون أثناء فترة القداس، إلا أنهم كانوا موجودين عندما حان وقت مرافقة الحراس إلى الزنازين.

استمر الطقس العاصف وإن كان أقل عنفًا. كنت قد أمضيت الليل متفكرًا في غياب جالاواي عن القداس، وتذكرت طريقة هاردي في الحصول على بعض الحرية داخل السجن.

سيعود هولمز في ذلك المساء وكنت حريصًا أن يكون لدي شيء أظهره له قد يورط جالاواي في مقتل الصبي. ونتيجة لذلك، عقدت العزم على التملُص من انتباه الحارس إن رأيت جالاواي يفعل الشيء نفسه.

تتابعت الأحداث تمامًا كما أملت. أخرت نفسي قليلًا في طابور الدخول للكنيسة؛ ثم بمجرد أن رأيت جالاواي يشتبك في محادثة مع شابلي، اندفعت في طريقي للأمام

وأبلغت الحارس أن السيد ماي طلب مني إحضار حزامه الذي تركه في المكتب المركزي، مع وجود مئات السجناء لمراقبتهم، وعدم وجود طريقة لي لمغادرة المبنى، لم يكن أيّ من الحراس مهتمًا بسجين واحد وذهبت في طريقي بانفعال.

سرت نحو الأبواب المركزية. ثم بمجرد أن صرت بعيدًا عن الأنظار، تراجعت قليلًا وتبعت جالاواي ودزينة من رجاله في حذر وهم صاعدون في طريقهم للعلية أعلى المبنى.

تمامًا كما وصف هاردي، انتهى الطابق العلوي في ممر أدى لدَرَج معدني. تضاعفت هذه مرة أخرى وهي ترتفع لمستوى إضافي منتهية إلى باب خشبي كبير. انحنيت جالسًا بعيدًا عن الأنظار في المنحنى الأخير من الدَرَج، وتمكنت بصعوبة من رؤية شخص واحد يعمل على مراقبة الباب، بينما كان يولي وجهه للأمام رأيت بابًا صغيرًا نصف مختفٍ يقع على يساره. بدأت التركيز على مسألة تجاوز هذا الحارس عندما حازت صيحة من داخل الغرفة على انتباهه ودار على عقبيه ليرى ما المطلوب منه. بمجرد أن أدار ظهره بالكامل، صعدت بسرعة على الدرج وانزلقت عبر الباب الواقع على اليمين.

كانت الغرفة الخلفية ضيقة ولكن عميقة، تهدف في الأصل، كما افترضت، أن تكون مساحة تخزين ولكنها الآن فارغة إلى حدٍ كبير. مجموعة من الصناديق الخشبية المكدسة بشكل عشوائي هي المحتويات الوحيدة التي

تمكنت من رؤيتها. كان الظلام دامسًا بالداخل وهو ما يناسب أغراضي تمامًا لأنه كان هناك ثقب في القرميد فوق الصناديق التي أملت أن أتمكن من التجسس من خلاله على ما يدور في الغرفة المجاورة. صعدت بحذر ونظرت من الثقب المفتوح.

كان من المستحيل تحديد الغرض الرئيسي من الغرفة الأخرى، على جانب تكدست صناديق مغطاة بالعفن تتدلى منها أكمام سترات السجن المغطاة بالغبار ملقاة في أكوام مبعثرة على الأرض. معدات من نوع ما، قضبان حديدية طويلة وتروس وعجلات من مختلف الأحجام تكدست على طول الجدار الأبعد، ينعكس عليها كلها ضوء السماء الرمادية في الخارج، الذي كان يصارع ثلاث نوافذ مغطاة بالقاذورات. ومع كل هذا الركام، لايزال هناك مساحة واسعة لحفنة من السجناء الذين تجمعوا حول جالاواي الذي وقف على صندوق مقلوب في منتصف الغرفة.

من موقعي المميز كان لدي رؤية معقولة لظهور الرجال، على الرغم من أن صوت ثرثرتهم كان مكتومًا وغير واضح، لكنني لم أخطئ صوت جالاواي عندما تحدث.

"فلتهدؤوا جميعًا" قال آمرًا فغرقت الغرفة في صمت فوري. "حسنًا إذًا، تعلمون جميعًا سبب تواجدنا هنا، لقد كان آدمز شوكة في جانب مجتمعنا الصغير، بقدر ما يمكنني أن أتذكر. قد يكون قويًا وذا مكانة الآن، وقد اكتسب لنفسه بعض الاحترام، لكن جميعكم تعرفون وأنا أيضًا أنه شرير بقدر ما كان دائمًا. كانت أفعاله، على سبيل المثال، هي ما

أوصلتني هنا، لكن هذا ليس هو سبب سعيي للنيل منه، إذا كان هذا هو كل ما فعله كنت لأنتظر حتى أخرج وأقتله بنفسي. لكنه مذنب بأكثر من ذلك بكثير، كما يمكنكم جميعًا أن تقروا ذلك"

سرت همهمة من الموافقة المتحمسة، تحركت قليلًا على أمل رؤية بعض الوجوه. تحرك الصندوق تحتي وظننت للحظة أنني سأسقط لكن لحسن الحظ أنه تماسك وتمكنت من الحفاظ على توازني. نظرت مرة أخرى من الثقب. وسعدت برؤية أن لا أحد في الغرفة الأخرى انتبه للضجيج.

في غضون ذلك، سمح جالاواي لأصوات الاتفاق معه تتلاشى بشكل طبيعي، ثم استأنف خطابه الحماسي.

"كلنا نعلم عن حديثه مع الشرطة، واليوم فقط أخبرني رجل أثق به أنه قد عاد إلى أعماله السابقة، على الرغم من التحذيرات التي تلقاها. أقول قد حان الوقت لإيقافه كليًا".

هذه المرة علت الهمهمات حتى خشيت أن يأتي الحراس على صوت تلك الضوضاء ويكتسحوا هذا الاجتماع، إذا حدث ذلك، فقد يتم احتسابي من رجاله وسيتطلب الأمر مني شرحًا ذكيًا.

تساءلت ما إذا كان الوقت مناسبًا لأرحل. على كل، لقد حصلت على اسم الرجل التالي الذي سيقتلونه، لكن في الوقت نفسه لم أستطع التفكير في شخص اسمه آدامز، سواءً داخل هولواي أو خارج أسواره. ببساطة وجود اسم

لم يكن كافيًا. هناك المزيد مما أستطيع معرفته، وأنا لن أكون مسؤولًا عن وفاة أخرى ربما استطعت منعها. أعدت انتباهي إلى جالاواي.

بينما شردت بأفكاري، أثبت جالاواي أنه أكثر حكمةً من أتباعه الصاخبين. "ابقوا صوتكم منخفضًا، أيها الرجال" قال آمرًا وإن كان صوته لم يحمل أي ضغينة. "ما نحتاجه هو شخص ما للقيام بهذا الأمر، شخص لديه إمكانية الوصول إلى آدامز. ولا تنسوا أن هذا الأمر يحتاج إلى دقة، هذا ليس مجرد تحديًا، ولا مظاهرة عامة. عملية قاتلة ولكن يمكن إنكارها. دائمًا ما تكون تلك أفضل طريقة. طعنة تأتي من العدم، أو هراوة على الرأس، ثم تبتعد وتترك الجثة خلفك. دون أن يؤخذ شيء، اغتيال سريع ونظيف. عملي. لدي شخص ما أظنه مناسبًا، ولكن أولًا، هل لدى أي شخص اعتراض؟"

لدهشتي، تنحى عن الصندوق ووقف جانبًا، تاركًا المنصة المرتفعة لأي شخص يرغب في الكلام. يبدو أن عصابة جالاواي كانت أكثر مما تراه العين. لم أسمع من قبل عن زعيم عصابة على استعداد أن يتم ثنيه عن رأيه بمجرد اتخاذه قرارًا، ولكن على ما يبدو أن جالاواي يشجع النقاش الحقيقي بدلًا من فرض إرادته بالقوة.

مرت دقيقة، والسجناء يقفون في كتل يتحدثون فيما بينهم وجالاواي يسير بينهم، يتبادل كلمة أو كلمتين هادئتين مع كل واحد منهم. كان صوته هادئًا جدًا بحيث لم أتمكن من فهم أي كلمات فعلية. كان قد أطلق على نفسه

(صاحب متجر)، لكن تصرفه ذكرني بسياسي في حملته الانتخابية يمر بين ناخبيه ليطمأنهم بكلماته. كان مشهدًا شديد الغرابة.

أخيرًا، تقدم أحد السجناء، رجلٌ ضخم بوحشية له أذن واحدة أما الثانية فقد بترت بإهمال، إلى الأمام وصعد على الصندوق. صمت كل من في الغرفة فورًا، ولاحظت أن جالاواي أعطى المتحدث اهتمامه الكامل.

"كل هذا جيد جدًا، ماتي. لكنني كنت أفكر، يبدو لي أن ما نحتاجه هو تحذير أكبر، وليس أصغر. لو أن آدامز لايزال يثرثر للشرطة، إذًا ربما هو ليس الوحيد. ربما علينا أن نقطع بعض الرقاب ونتركها ليشاهدها الجميع، في تصرفٍ علني، هذا ما يجب علينا فعله"

انتهى خطابه القصير، فهبط من مكانه واستأنف مكانه بين شركائه. أومأ واحد أو اثنان برأسيهما عند انتهائه، لكن يبدو أن الشعور العام هو أنه تحدث من تلقاء نفسه.

لم يقل جالاواي شيئًا، لكنه ربت على ظهر الرجل أثناء مروره، ثم استأنف جولته في الغرفة. وبمجرد أن أصبح من الواضح أن لا أحد آخر يرغب في تحدي خطته، مهما كانت تفاصيلها، اتخذ مكانه مرة أخرى فوق الصندوق، مرتفعًا عن زملائه. الآن تذكرت المتحدثين في ركن هايد بارك، حيث خطب بضع كلمات عامة للتشجيع وليذكرهم بولائهم.

«مايك ليس مخطئًا في شيء واحد، سأعترف له بذلك. سيكون هناك آخرون مثل آدامز، الذين قد يكونوا

أغبياء بما يكفي ليتحدثوا ضدنا. وربما المزيد من العرض العام من شأنه أن يساعد في ثنيهم عن حماقتهم. ولكن دائمًا سيكون هناك أشخاص من هذا القبيل ولا يمكننا أن نسعى لتدميرهم جميعًا. سيجعلنا هذا علنيين أكثر من اللازم، وسوف تطاردنا السلطات بقوة. ونحن في غنى عن كل هذا، أليس كذلك؟ طالما أننا نقف معًا ولا نجعل أنفسنا مرئيين للغاية، فلا أحد يستطيع لمسنا. تذكروا ذلك، ولا تنخدعوا بالاعتقاد بأننا نستطيع أن نكون راضين عن أنفسنا. يمكننا أن نفعل الكثير، لكن لا يمكننا أن نفعل ما نريد *بالضبط*. لا يمكن لأي إنسان أن يستطيع. نحن محميون الآن لأننا نحافظ على هدوئنا، أو نتأكد من عدم تحميلنا أي خطأ بالتأكيد. أما إذا أصبح صوتنا عالٍ جدًا... حسنًا من المرجح أن تختفي تلك الحماية. ونحن لا نريد لهذا أن يحدث، أليس كذلك؟"

لم يكن هناك شك أن كلماته لاقت استحسانًا من الرجال الذين تراصوا أمامه. أومأ الكثير برؤوسهم وأعلن واحد أو اثنان دعمهم بصوت أعلى. هز الرجل ذو الأذن الوحيدة كتفيه ببساطة لكنه لم يحاول استعادة «صندوق المتحدثين»، ولا حتى التحدث. جال جالاواي بنظره حول الغرفة لافتًا نظر كل رجل تلتقي به عيناه، ثم أجاب على السؤال الذي طرحه قبل قليل.

"لا، نحن لا نريد ذلك. لا يمكننا الاعتماد على الولاء من أي أحد سوى أنفسنا. لذلك نحتاج أن نسير بحذر. ضعوا ذلك في اعتباركم؛ حتى عندما كنا أطفالًا لم يعطنا

أحد شيئًا، لكننا نجونا وازدهرنا. معًا. صحيح" واختتم حديثه رافعًا يديه إلى الخارج، وراحتا يديه موجهتان إلى الأسفل فوق رجاله.

"حان وقت عودتكم إلى زنازينكم. اشترينا السجان لكن لن نستطيع شراءه إلى الأبد. لديه عائلة يفكر فيها ولا يمكنه خسارة وظيفته. فلتذهبوا وسأبدأ أنا بتحضير الخطة. سوف يتنفس آدامز آخر أنفاسه قبل انتهاء الأسبوع"

شهدت نهاية الاجتماع بعض محادثات مرتبكة وأرجل متخبطة، تمامًا كما كان ليحدث بعد تجمع سياسي أو خطاب في قاعة الكنيسة.

حان وقت المغادرة. خمنت أن القداس سينتهي قريبًا جدًا وجمعت معلومات أكثر مما كنت أتوقع. أصبح لدي اسم أنقله لهولمز، والطريقة التي سيقتل بها الرجل. كما أنني اكتسبت نظرة ثاقبة غير متوقعة لعقل جالاواي. بلا شك فهو قاس وعنيف، كما أظهر مع المسكين هاردي، ولكنه أكثر من مجرد قاتل عادي. إنه يعرف كيف يلهم رجاله وربما كان على استعداد للانصياع لإرادتهم الجماعية. وحقيقة أن أحدًا لم يتحداه بجدية الليلة تشير إما أن ديموقراطيته الظاهرة تلك كانت صورية، أو أن رجاله يعرفون أنه يمكن الوثوق به للقيام بما هو أفضل لهم جميعًا. تساءلت ما إذا كان أقوى من أن يتم تجاوزه، أم أنه فعال للغاية؟

تركت موضعي الاستراتيجي، وشعرت بمعدتي تترنح بينما انزلق حذائي على الأخشاب المتربة وسقطت على

الأرض. نهضت قافزًا على قدمي، تصرفت بالكامل معتمدًا على الغريزة، كسرت جزءا من خشب الصندوق المحطم الذي خانني للتو وخرجت من الباب. تحركت بسرعة لدرجة أن المراقب بالكاد بدأ في الدوران عندما أرجحت مضربي المؤقت وعاجلته بضربة قاسية إلى جانب رأسه.

لم انتظر مرور جالاواي ورجاله المسافة القصيرة إلى الباب، إنما قفزت فوق الدرابزين وهبطت في المسافة الواقعة على بعد عشرة أقدام للأسفل. التوى كاحلي تحتي أثناء هبوطي، لكن على الأقل كنت في أمان بعيدًا عن أنظار المطاردين اللذين سمعتهم يجذبون باب العلية. تعثرت وأنا أجري نصف المسافة إلى الكنيسة وأمشي نصف المسافة الآخر، مدركًا تمامًا أنه لا توجد طريقة أخرى تمكنني من التسلل مرة أخرى إلى تجمع المساجين دون أن يلاحظ أحد.

ليس لأن الأمر هام. لأنه على الرغم أني أعطيت نفسي مساحة من الوقت، سيتبعني رجال جالاواي بعد أن أكون وصلت للأمان المشكوك في أمره ذاهبًا لقبضة أولئك الذين يحرسون المساجين وهم يتعبدون. في كلتا الحالتين، كان محكومًا على المعلومات التي لدي أن تثبت أنها بلا قيمة وسأكون فشلت مرةً أخرى.

عرجت حول منعطف آخر، متوقعًا أن تمسكني يد أحد المساجين من ياقتي في أي لحظة، عندما لمحت باب زنزانة مفتوحًا جزئيًا.

غالبًا ما تترك الزنازين غير المأهولة والتي يتم تجهيزها

قبل إقامة سجين جديد بها بهذه الطريقة، لم أضيع وقت وألقيت بنفسي داخلها وأغلقت الباب خلفي. سمعت خطوات راكضة تمر بجواري وأصوات رجال يشتكون أن مخبأهم قد كُشف. بعد لحظة انضم صوت آخر للضوضاء.

"ما الذي تفعلونه أيها الحمقى اللعينون؟" كانت نبرة شابلي الغاضبة لا لبس فيها. "إنهم يخرجون من الكنيسة الآن. سيكونون هنا في أي لحظة. أسرعوا وقفوا في صف مقابل الحائط، ودعوني أقوم بالرد وأي حديث مطلوب"

ضغطت أذني على الباب، مما سمح لأنفاسي اللاهثة أن تهدأ، حسبما فعل حشد الرجال ما أمروا به، سمعت جالاواي يزمجر في شخص ما لالتزام الصمت، ثم انضم صوتٌ جديد إلى الصخب في الخارج.

"ما الذي يحدث هنا، شابلي؟ هل هؤلاء الرجال معك؟"

بالطبع، آمر السجن كيجان دائمًا أول من يغادر الكنيسة. أيًا كان ما قاله بعد ذلك ضاع وسط حشد الأصوات المتلاطم، مما تطلب مني دفع باب الزنزانة لفتح صدع على أمل اللحاق بأي مما دار بينه وبين شابلي. بالرغم من ذلك، كان هناك الكثير من الضوضاء التي منعتني من فك رموز أكثر من عدة كلمات مكتومة من حين لآخر. لكن ما أثار رعبي هو أنه قد أعطى أمرًا للجميع بالعودة إلى زنازينهم. وبمجرد حدوث ذلك، سأفتقد ولن يكون هناك أي تفسير يمكنني تقديمه ليحول بيني وبين الحبس الإنفرادي. من الضروري أن أبقى حرًا حتى عودة هولمز هذا المساء.

مع انعدام أي خيار آخر، دفعت الباب ليفتح بما يسمح لي بالخروج ودفعت نفسي للوقوف بين أقرب سجينين. على الفور التفتت عشرات الأعين نحوي ودارت همسات مُقرة تتساقط علىّ. حدقت إلى الأمام مباشرةً، مدركًا أن شابلي لا يمكن أن يسلمني دون أن يسلم جالاواي ورجاله. وهكذا، وبأمرٍ مُعلَن، تم تقسيم حشد السجناء، بمن فيهم أنا، إلى مجموعات وإرسالنا إلى زنازيننا.

لدي الكثير لأقوله لهولمز. أملت فقط أن أتجنب جالاواي ما يكفي من الوقت للقيام بذلك.

T t.me/tea_sugar

الفصل الثالث والعشرون

ثبت أن القيام بذلك أبسط مما كان متوقعًا. لاحظ الحارس الذي رافقنا أن كاحلي مصاب، وعلى الرغم من أن الالتواء لم يحتج معاينة الطبيب، إلا أنه كان كافيًا بالنسبة لي لتجنب فترة التريض في ذلك اليوم. ونتيجة لذلك، بقيت في زنزانتي طوال اليوم، كنت لا أزال هناك عندما أعلن صوت مفتاح في قفل الزنزانة عن وصول هولمز، الذي ارتدى اسم السيد أندروز مرةً أخرى.

"حقًا يا واطسون، ألا يمكنني تركك وحدك لأكثر من بضع ساعات دون أن أعود لأجد أنك جرحت نفسك بطريقة جديدة؟" قالها وابتسم. "أنا سعيد أنني أروح عنك" قلت غاضبًا من فكاهته اللطيفة بينما قضيت اليوم في ترقب عصبي، "لكن لدي الكثير لأخبرك به، والقليل من الوقتً لأقوم بذلك" مما يحسب له أنه دفع الباب على الفور خلفه واتخذ مقعدًا على الفراش الشاغر.

"أعتذر لك، واطسون. لقد حققت بعض النجاح في مساعيّ خارج هذه الأسوار. ولكن ينبغي على أن أعرف أنك لم تكن تتسكع، على الرغم من طلبي أن تكون كذلك"

عبس وهو يتحدث، لكنني بدأت بالفعل في سرد ما حدث، عن جالاواي والاجتماع في العلية، ولم تتسنى له الفرصة لمواصلة تفكيره.

خف تعبيره وأنا أحكي له، وفي عدة مناسبات طلب مني أن أكرر كلمات جالاواي بأكبر قدر من الدقة.

عندما انتهيت، قام كاشفًا عن جسده الطويل وقفز على قدمي فجأة، ممتلأً بالطاقة.

"عملٌ ممتاز، واطسون، ويخبرنا الكثير مما لم نكن نعرفه، لكنني أخشى أن تكون خاطرت بموقفك لدرجة أن سلامتك أصبحت الآن في خطر وشيك" بدأ يذهب ويجيء بطريقته المعتادة، لكنه توقفَ فجأة لأن أبعاد الزنزانة الضيقة قيدت قدميه الطويلتين واسعة الخطى. "حاولت بالفعل في كل السبل المتاحة لي لإطلاق سراحك حتى موعد محاكمتك، لكن التأثيرات المزدوجة لاعتراضات الميجور ماكلاكلان والرسالة التي أرسلت إلى بوتر جعلت ذلك مستحيلًا. كما أثبتت فكرتي الثانية ـ أن أبقى قريبًا منك تحت ستار حارس السجن ـ أنها أقل مثالية، لأنني إذا أردت إثبات براءتك وبالتالي الحصول على إطلاق سراحك بشكل دائم، يجب أن أكون بالخارج وحول المدينة ولست مقيدًا في مكانٍ واحد"

"يمكنني الاعتناء بنفسي، هولمز" احتججت غير راغب في أن يتم تهدئتي نهائيًا بسبب قلقه.

"بشكل عام، لا ينبغي أن يكون لدي شك في ذلك، زميلي العزيز" وافاني بابتسامة. "لكن هذه حالة خاصة، حيث يتم قلب يد كل رجل ضدك وليس لديك طريقة للدفاع عن نفسك بفاعلية"

بالطبع لم أستطع أن أنكر الحقيقة في كلامه. كانت

الجروح والكدمات المختلفة التي عانيت منها منذ دخولي السجن شهادة مؤلمة على نجاحي ـ أو عدمه ـ حتى الآن.

"حتى لو أقررت أن ذلك صحيحًا، فماذا تريدني أن أفعل، هولمز؟ بعيدًا عن بقائي في زنزانتي طوال اليوم، لا أرى كيف يمكنني تجنب المواجهة، خاصّة وأن جالاواي يعرف الآن أنني كنت أراقبه"

نظر إلي هولمز بتمعن. "ربما هذا هو الجواب" قال ببطء. عبر إلى الباب وخاطر بإلقاء نظرة سريعة على الخارج. "نحن متفقون على أنني لا أستطيع أن أكون هنا بصفتي أندروز طوال الوقت من أجل إعطاء وزن رسمي لحمايتك. كما لا يمكننا ترتيب إطلاق سراحك في انتظار محاكمتك. لذلك، يجب أن نضمن أنه عندما لا أكون هنا، تكون أنت أيضًا غير متاح"

"سيكون ذلك مفيدًا للغاية" وافقته، "لكن كيف تنوي فعل ذلك؟"

تيبس هولمز فجأة عند سماعنا اقتراب خطوات، لكنها مرت دون أن تُزعجنا.

"واجبات الحراسة الخاصة بي الليلة لا تتطلب مني أن أكون في قسمك، لذلك سأشرح بسرعة ثم أذهب في طريقي. هناك طريقتان يمكننا من خلالهما إبعادك عن السجناء الآخرين. إما أن أتمكن أنا بصفتي، من إقناع آمر السجن أن حياتك معرضة للخطر من السجناء الآخرين. أو يمكنك ارتكاب بعض المخالفات للوائح السجن التي تؤدي إلى وضعك في الحبس الإنفرادي. وبما أن هذا الحل

الأخير ينطوي عمومًا على درجة من العنف، أعتقد أنه من الأفضل تجربة النهج الأول أفضل"

قام بتعديل زيه ووضع قبعته على رأسه. "أنا في نوبة ليلية طوال الأسبوع، لذلك سأعود في الصباح وأتحدث إلى آمر السجن كيجان نيابةً عنك. مؤكدًا التهديدات التي وجهها ضدك مجرمون وضعناهم في السجن سويًا. أعتقد أنه لن يكون من المفيد ذكر جالاواي مباشرةً، بالنظر إلى نتيجة اتهامك السابق له." قام بتقويم قبعته بدقة. "سأحضر معي ليستراد. سيضيف بعض الرسمية إلى الطلب"

«ليستراد» قلت مستفسرًا. «ألن يكون من الأفضل الاستعانة ببوتر؟ هذا إن استطعنا إقناعه بالتحدث بالنيابة عني بالطبع» .

قطب هولمز وجهه. "لقد أثبت المحقق بوتر... عدم تعاونه، وأخشى أنه قد رفض بالفعل مساعدتك بأي شكل من الأشكال" عندها فقط سمعت بابًا يُفتح في مكان قريب وفي لمح البصر، ذهب هولمز. فقط عندما أغلق الباب وتراجعت خطواته عني أدركت أنني لم أسأله عن النجاح الذي ذكره فيما يتعلق بقضيتي.

بزغ فجر اليوم التالي بطقس بارد، ولكن مُشرق.

وصل هولمز كما قال، في حوالي التاسعة، تحول من حارس كث الحاجبين في الليلة السابقة. كان هو وليستراد

جالسين بالفعل في مكتب كيجان عندما أحضرني شابلي للانضمام إلى الاجتماع.

لدهشتي، كان المحقق بوتر حاضرًا أيضًا، واقفًا بجوار آمر السجن.

"يبدو أن هناك بعض القلق على سلامتك" بدأ الآمر دون مقدمات، بل وقبل إغلاق الباب خلفي حتى. "السيد هولمز هنا ـ بصحبة المحقق ليستراد من سكوتلاند يارد، لأسباب أعترف أنها بعيدة عن معرفتي ـ يدعي أنه كانت هناك تهديدات ضد حياتك. هل هذا صحيح؟"

"إنه كذلك" أجبت.

"وقد تم دفع هذه التهديدات من خلال بعض المساعدات التي قدمتها سكوتلاند يارد خلال عمل السيد هولمز ك... ماذا كان يعمل مرةً اخرى، محقق استشاري؟"

نظرت إلى هولمز، الذي حدق أمامه بعناد، بينما تتدلي من أصابعه لفافة تبغ أشعلها حديثًا. "نعم أعتقد أن هذا ما حدث"

"هممم" سعل كيجان وقام بوتر بتسليمه حزمة أوراق من الحقيبة التي رأيتها الآن والتي كان يمسك بها خلف ظهره. بدأ يقرأ واحدة، بينما أصبعه يتتبع السطور أثناء قراءته. انتهز ليستراد الصمت الذي أعقب ذلك ليؤكد نجاح مسعانا فيما سبق.

"لقد كانت مساعدة الدكتور واطسون لا تقدر بثمن في عدة مناسبات فيما مضى، أيها الآمر كيجان. وقد قدم هو وهولمز مساعدات ثمينة إلى سكوتلاند يارد في العديد

من القضايا البارزة. بما في ذلك بعض القضايا التي كان تأثيرها محسوسًا في أعلى المناصب في الدولة"

كنت ممتنًا للمفتش المبتدئ، لأنني أعرف كم تألم في وصفه دور هولمز بهذه العبارات المتوهجة. ومع ذلك، لم يكن الأمر مهمًا كثيرًا، لأن كيجان وجد بالضبط ما كان يبحث عنه وأجاب بلهجة رافضة للغاية.

"أعلى المناصب في الدولة، أليس كذلك؟ لقد ألمح السيد هولمز إلى ذلك قبل وصول السجين، ولكنني افترض الآن، كما كان الحال في ذلك الوقت، أنكم غير قادرين على تقديم أي تفاصيل عن هذه الحالات؟ لأسباب تتعلق بالأمن القومي، كانت تلك هي العبارة التي استخدمتها، إن كنت أتذكر بشكل صحيح؟"

أومأ ليستراد رأسه على مضض، وفتح فمه ليتحدث، لكن كيجان لم يكن قد انتهي بعد.

"والحالات الأخرى التي كان فيها هذان الرجلان عونًا للشرطة؟ تلك التي تنطوي على عملاء أقل تعظيمًا؟ هل هذه هي نوعية الأشياء التي يكتب عنها الدكتور واطسون في المجلات الدورية الشعبية. ال... على سبيل المثال، علامة الأربعة؟" تساءل متعثرًا عمدًا عند نطق العنوان.

"إنه كذلك" تدخل هولمز قبل أن يتمكن ليستراد من الرد. "لقد انتقدت واطسون أكثر من مرة بسبب ميله إلى إثارة عملنا الرائع بالفعل، لكنني لا أستطيع إنكار دقة الحقائق العارية التي يقدمها في كل حالة يكتب عنها، بمجرد تجريدها مما يقول لي عنه إنه مكتوب لغرض أدبي

ضروري. أنا لا أتملق أيًا منا أنا أو واطسون عندما أقول أن لدينا نسبة نجاح عالية في التحقيقات، والتي كانت مسؤولة عن القبض على العديد من المجرمين الآثمين وسجنهم. وهذا هو السبب في أنه بحاجة إلى حماية خاصة بينما لايزال مسجونًا مؤقتًا في هذه المؤسسة"

"كما قلت"، أجاب كيجان بسلاسة. "ومع ذلك، عندما اتصلت بالمحقق بوتر هذا الصباح ـ بصفته المحقق المسؤول بالفعل عن التحقيق في جرائم الدكتور واطسون ـ أبلغني أن الدكتور واطسون لم يلعب دورًا ثانويًا في هذه الأمور. وبينما أقرأ هذه الملخصات التي وضعها المفتش أمامي، من الواضح أن واطسون ببساطة رجل مفيد إذا كان فارسًا مع مسدس، والذي يبدو أنه يقضي الكثير من وقته في مهام إدارية بحتة، أو يشيد بذكاء زميله الذي لا حدود له على ما يبدو. في الواقع لا أستطيع أن أرى حالة واحدة يمكن القول إنه لعب دورًا أساسيًا في القبض على أي شخص" اتسمت كل من ابتسامته ونبرته بالسخرية. "أليس من الإنصاف القول إنه في كل حالة تتكشف الأحداث تمامًا كما فعلت لو كان الدكتور غائبًا طوال الوقت؟"

لم يُقدِم هولمز أي رد لوهلة طويلة. انحنى إلى الأمام وسحق لفافة التبغ في المرمدة، ثم قام بتنظيف أطراف أصابعه في بعضهما البعض.

"أولًا، أيها الآمر، أود أن أذكرك بأنه من الأنسب أن تقول: جرائم واطسون المزعومة، لم تتم إدانته بأي شيء حتى الآن، على الأقل ليس من قبل أي محكمة. ولكن

للإجابة على سؤالك، لا، لن يكون ذلك عادلًا على الإطلاق. بل وسأذهب لما هو أبعد من ذلك. سيتطلب الأمر قراءة هادفة ومتعمدة لكل حالة شاركنا فيها لاستخلاص مثل هذا الاستنتاج. صحيحٌ أن واطسون غالبًا ما يقلل من شأن مساهماته الأساسية في تحقيقاتنا لأسباب تتعلق بالتأثير الأدبي، ولكن حتى إن أخذها أي شخص بشكلها السطحي لا يمكن أن يفشل في رؤية الطرق العديدة والمتنوعة التي يقدم بها نظرات ثاقبة ويقترح مناهج جديدة في أوقات الشدة. أي رجل شرطة يستحق منصبه سينصحك بحقيقة هذا الإثبات"

في ختام حديثه، سمح هولمز لعينيه أن تنتقل إلى بوتر وتستقر عنده، جملته الأخيرة كانت موجهه إلى المحقق وليس إلى آمر السجن. لم يُفوت بوتر تلك الإهانة الضمنية.

"كيف لك أن تعرف ما الذي يجعل شرطيًا لائقًا، هولمز؟" واشتبك معه وقد تجرد صوته من أي لباقة. "ليس لديك ما يلزم لتكون حتى شرطيًا سيئًا. وتعرف ذلك في أعماقك. عمل الشرطة صعب ومحبط، وبدون مكافأة في كثير من الأحيان. لا يوجد انتقاء أو اختيار للعملاء، ولا يمكنك تجاهل القضايا المملة والمشاركة فقط في القضايا المثيرة للاهتمام. إنها ليال طويلة تقضيها تحت المطر والرياح، تراقب وتنتظر، وأيام أطول تتجول في المدينة داسًا أنفك أينما كان غير مرحب به، وتأمل ألا يقرر أحد أن حياته ستكون أسهل إذا أصبح الشرطي المتدخل هذا ملقى ميتًا في بالوعة ما. على الرغم من ذلك، غالبًا ما يتعامل الشرطي

مع الغباء طوال اليوم، ولا يمكنك أبدًا تحمل ذلك، هل يمكنك يا هولمز؟ لم أحقق أبدًا في أمر ثعبان مُدرب على تسلق الأحبال ـ نعم، قرأت بعض قصص دكتور واطسون الهزلية قبل أن أمررها إلى آمر السجن ـ لكنني رأيت عددًا لا بأس به من المتطفلين الضخام الذين يضربون زوجاتهم حتى الموت لأن الشاي لم يكن جاهزًا، أو لم يكن هناك مال لشراء الجعة، أو لمجرد أنهم يستطيعون. ماذا ستفعل مع رجال من هذا القبيل، هولمز؟ كيف ستحقق في مثل تلك الأمور؟ وكيف يمكنك استكمال حياتك إن تعاملت مع نصف دزينة من هذا الهراء في الأسبوع؟ لا عقول إجرامية مدبرة، لا توجد خطط ماكرة. فقط متوحشون يتعاملون بوحشية، ليأتي رجل الشرطة في وقت لاحق لالتقاط القطع المتناثرة ويحاول صنع شيء ما منها"

لم يقل هولمز شيئًا طوال تقريعه المطول ذاك. حدق في بوتر من خلال سحابة من الدخان، ثم نهض فجأة على قدميه ولاحقه عبر الغرفة، حتى وقف الرجلان أمام بعضهما البعض حتى كادت أطراف أقدامهما تتلامس.

"لم أخفِ أبدًا... خيبة أملي في سكوتلاند يارد، محقق بوتر. سيخبرك ليستراد، ولا شك أن واطسون سيدعمه، أنني غالبًا ما أكون أقل مجاملة لجهوده وجهود زملاءه.

في رأيي، هم حمقى مملون، بطيؤون في الإدراك والتصرف، ويميلون إلى قبول الحل الأسهل بدلًا من الحل الصحيح. ولكن..." تابع بينما احتقن لون ليستراد وفتح فمه ليتحدث. "هذه الصفات ذاتها هي التي تجعلهم مناسبون

تمامًا للعمل الذي وصفته أنت للتو. تسأل كيف يمكنني التحقيق مع البلطجي الذي يضرب زوجته حتى الموت؟ الجواب واضح. لن أفعل. لن يكون هناك شيء لأحقق فيه. فقط بعض الإصابات التي يجب الاعتناء بها وعقاب يجب تنفيذه. أنا لست مناسبًا من الناحية المزاجية لأي من الدورين، أيها المحقق، لكن أمثال جريجسون وبرادستريت وهوبكنز مناسبون بشكل مثالي لهذه المهمة. تحتاج رجلا متثاقلا لكن دائب، وعنيد أيضا. مثلك يا بوتر كما أظن. ربما لو أنك لم تغال في التعامل مع نفسك، مما سمح لطموحك أن يتجاوز قدراتك، ربما لم تكن لتصبح في هذا الموقف الذي تجد نفسك فيه الآن"

جاء صوت بوتر صاخبًا مليئًا بالغضب واحمر وجهه. "الموقف الذي أجد نفسي فيه؟ ما الذي تقصده بذلك؟ لست أنا من يغالي في التعامل مع نفسه، هولمز. بل أنت. بسبب تعجلك في الدفاع عن صديقك، فإنك تشوه سمعة قوة الشرطة التي أعضاؤها هم رؤساءك بكل الطرق. ورجلًا مثل ليستراد والذي يخاطر بحياته المهنية لمساعدتك في تلك الحماقة. أتساءل ما رأيه في ازدرائك له؟"

إن كان هولمز قلقًا بشأن استمالة ليستراد، فهو لم يظهر ذلك. "ليستراد يعرف قيمته لدي" أجابه، "في الواقع، وأقسم على قلبي بذلك، يمكنني أن أقول إنني وصفته في الأيام القليلة الماضية أنه المحقق المثالي. وإن كان لا يعرف أنني مدين له بدين من الامتنان لمساعدته في الأسابيع الأخيرة، فهو فقير كمحقق مثلك أنت. ولكي أكون

واضحًا، أشك جدًا أن يكون هذا هو الحال"

"شكرًا لك، سيد هولمز،" قال ليستراد بهدوء، "لكن يمكنني التحدث عن نفسي. أيًا كانت العلاقة القائمة بيني وبين السيد هولمز فهي ليست شأنك، بوتر" وتابع وهو يحدق في زميله من عيون ضيقة. "لكنك ذكرت المخاطر التي تحملتها في سبيل مساعدة دكتور واطسون، بل وسأخبرك لماذا تحملتها، أليس كذلك؟ ليس بسبب السيد هولمز أو المساعدات التي يقدمها أحيانًا لسكوتلاند يارد، ولا حتى بسبب أنه أنقذ حياتي قبل ذلك. لقد ساعدته لأنه رجل نبيل، أعرف أنه لم يقتل تلك المرأة العجوز أبدًا. كبداية، وحده الأحمق من يصدق تلك الأدلة الهزلية التي تشير إليه. لكن، وبنفس القدر من الأهمية، لأن دكتور واطسون رجل طيب القلب، ولأنه كان مسؤولًا شخصيًا عن القبض على مجرمين أكثر خطورة مما سيتمكن صديقك الآمر أن يرى داخل أسوار هولواي"

بمجرد خروج الكلمات من فم ليستراد، أدركت أنه قد ارتكب خطأً، ومن النظرة على وجهه يبدو أنه أدرك ذلك أيضًا.

كما وضح فيما بعد.

"أنت تثبت وجهة نظر آمر السجن كيجان بالنيابة عنه أيها المحقق" أجاب بوتر بسرعة قبل أن يتمكن ليستراد من التراجع عن تصريحه. "يبدو أن المجرمين الذين قبض عليهم هولمز وواطسون يموتون في أغلب الأحيان، بطريقة أو بأخرى. أما بالنسبة لأولئك الذين لا ينهون أيامهم وهم

يتراقصون على المشانق، أليس من المرجح إيجادهم في دارتمور أو نيوجيت أكثر من هولواي؟ في الواقع، هل يوجد حاليًا أي سجناء على الإطلاق داخل هذه الجدران ممن وضعهم هولمز وواطسون هناك؟"

لا يوجد أحد ممن تعاملنا معهم مباشرةً" أجاب هولمز على مضض بدلًا من ليستراد. "لكن هذا ليس بيت القصيد. منً المعروف أن واطسون حليف للشرطة. أنه كما عرفتم الآن، مسؤول عن إرسال عدة مجرمين متنوعين إلى المشنقة. إن الهجمات التي شنها آيزاك كولينز وآخرون هي بالتأكيد دليل كاف على أن السجين قد لا يكون بالضرورة مرتبطًا بشكل مباشر بقضايانا حتى يكون واطسون هدفًا للانتقام!"

من الواضح أن كيجان يعتقد أن بوتر قد تفوق علينا. لم يكن ليغير رأيه. تحولت ابتسامته إلى ابتسامة وقحة وهو يستقر مرة أخرى على مقعده مطلقًا زفرة قصيرة من الرضا.

"يمكنك أن تقول ذلك تقريبًا عن كل رجل هنا، سيد هولمز" قال وهو يهز كتفيه. "لو أنني لأضع في اعتباري كل من يمكن أن يكون مستهدفًا بسبب تصرفات مهينة للبعض حدثت خارج هذه الجدران، فإن زنازين العقاب ستفيض قريبًا بشاغليها. لا. أعتذر لك أيها المحقق" تابع موجهًا كلامه إلى ليستراد. "لكن يدي مغلولتان. وبصراحة سأكون مقصرًا إن لم أتوقف لحظة لأتساءل، لماذا يرى محقق من اسكوتلاند يارد ليس له صلة بتلك القضية أنه من المناسب إحضار مدني إلى مكتبي للمطالبة بمثل تلك

المعاملة الخاصة؟ أنا رجل مشغولٌ جدًا، كما أنا متأكد أنك كذلك أيضًا، ويدهشني تضييع وقتكما الثمين ووقتي أن أقضي نصف ساعة في الاستماع إلى توسلات عشوائية لما يبدو لي ـ الآن وقد التقيته شخصيًا ـ أنه ليس سوى هاوٍ لديه إحساس مبالغ به بكفاءته الخاصة"

تصلب ظهر هولمز عند سماعه ذلك، ونهض بسرعة على قدميه. "من الواضح أن الوقت الذي تم إهداره هو وقتنا الخاص، ليستراد" قال بفتور. "إن الأفكار المسبقة التي تبناها آمر السجن تجعل من غير المرجح أن يتم منح واطسون معاملة عادلة، مما يجعل الأمر أكثر إلحاحًا أن نقضي وقتنا بشكل أكثر ربحية"

قال هذا وانحني إلى الأمام عبر مكتب آمر السجن. مال كيجان إلى الوراء في خوف مفاجئ وسمعت شابلي يخطو خطوة إلى الأمام من مكانه عند الباب. تحرك ليستراد أيضًا، واقفًا إلى الجانب الآخر، بحيث يكون بين شابلي وهولمز. "وجدت دائمًا أنه من الأفضل السماح له بالتعبير عن رأيه" قال بهدوء بينما تابع هولمز بصوت حاد ورصين.

"أنت رجلٌ متعجرف ، سيد كيجان. لكنك لم تجتذب زوجة قط. تنفق كل راتبك تقريبًا على إرضاء أذواقك باهظة الثمن، مما يجعلك تشعر بالقلق دائمًا من أنه لن يكون لديك دعم مادي عندما تكون أكبر من أن تعمل. لا توظف أي خدم، ربما لأسباب مادية. من الواضح أنك لست محبوبًا من قِبل رجالك. وبالطبع، أنت تلعب البلياردو

بشكل متكرر لكنك تظل لاعبًا ضعيفًا"

حدق الآمر في هولمز بينما وجهه يتخضب باللون ببطء. "كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة؟" بدأ يرد لكن هولمز قاطع صخبه بغضبٍ بارد نادرًا ما رأيته في صديقي من قبل.

"أجرؤ، أيها الآمر، لأنني لست واحدًا من أذنابك الحقراء، ولا أحد الفقراء التعساء الذين يعانون تحت "*رعايتك*" البائسة، مع أسفي الشديد" صرخ الآمر. "إن كنت ستأتي لهذا المكتب وتنفث مثل تلك الأكاذيب بصفة رسمية.."

"أنا وأنت نعلم على حد السواء أنه لا يوجد أكاذيب في أي شيء قلته، ولكن ومن أجل زملائي، سأشرح إذا كنت ترغب في ذلك"

لم يسمح هولمز لكيجان بالاعتراض، ماضيًا فيما كان يتحول بسرعة إلى اغتيال شخصية.

"غرورك لا يمكن إنكاره وواضح جدًا لأي مراقب مفكر. لقد حلقت مؤخرًا، في الأيام القليلة الماضية، لكن فاتتك شعرة واحدة على ذقنك. أنها طويلة لتكون نتيجة نمو يوم واحد، وبما أنك بالكاد تستطيع القدوم لهذا المكتب دون حلاقة، فلابد أنه كان لديك لحية حتى وقت قريب. لون الجلد حول ذقنك وتحت أنفك أكثر شحوبًا بقليل عن باقي وجهك ـ والذي، بالنظر إلى أنه يجب عليك قضاء معظم الوقت داخل هذه الجدران، يشير إلى أنك كنت ملتحيًا لفترة طويلة من الزمن، وأن لحيتك كانت على

موضة فان دايك التي يفضلها المجتمع الفني. أن يكون هناك بعض الشعر الضال رمادي اللون- على عكس طبيعة شعرك الأسود، يوحي لي أن غرورك هو ما تسبب في إزالة لحيتك. أضف إلى ذلك بدلتك وقميصك، اللذين يجب أن تجهد جودتهما محفظة أي موظف حكومي، والرائحة الباهتة القادمة من السيجار المكلف للغاية. أكافح حقًا من أجل إيجاد أي وصف آخر غير التعجرف"

"وماذا عن عدم وجود زوجة؟" قال ليستراد مشجعًا هولمز، ومن الواضح أنه يستمتع بالمشهد.

"بالتأكيد حتى أنت لاحظت الزر الثاني من الأسفل على قميص السيد كيجان الفرنسي الباهظ الثمن، ليستراد؟ لقد ضل طريقه وتم خياطته مرةً أخرى، لكن الخيط ليس من اللون المناسب. لا يتطابق مع الأزرار الموجودة فوقه وأسفله. لن ترتكب أي زوجة مثل هذا الخطأ الأولي، كما لن يفعل أي خادم يستحق هذا الاسم، وبالتالي ليس لديه أحد بهذا المسمى، على الرغم من أن راتبه سيسمح له بلا شك إذا رغب في ذلك"

"والبلياردو؟" قلقت من أن أعاقب لاحقًا على تدخلي، لكن رؤية هولمز في فيض كامل هكذا كان أول متعة حقيقة أشعر بها منذ أيام.

"إنه أمر تافه، واطسون أؤكد لك. ولكن إن كان هذا سيروح عنك... فإن الانبعاج البادئ على أصبعه الأوسط في اليسار والكلس الأقل وضوحًا على السبابة من نفس اليد لا يمكن أن يكون سببهما سوى عصا البلياردو التي

يحملها بشكل متكرر. وهناك الكأس الصغيرة على الرف فوق رأسه، تعلن أنه جاء في المركز الثالث في مسابقة داخل السجن قبل سبعة عشر عامًا؛ غياب أي كؤوس أخرى يشير إلى أنه لم يتحسن منذ ذلك الحين. كما قلت لك، مجرد أمر تافه"

لا أستطيع إنكار أن الإيقاع والنبرة المألوفين لأحد تفسيرات هولمز هدآني، ووجدتني أنظر إلى الآمر بعطف كبير، مما ساعد إلى حد كبير أن يزيد من الاستياء الشديد الواضح على وجهه المنتفخ بالسخط والاحمرار لدرجة أني كنت أخشى وآمل، في نفس الوقت أن يصاب بالسكتة الدماغية. لم يقل شيئًا بينما كان هولمز يتحدث. لكن عندما خيم صمتٌ قصير على الغرفة، بدا وكأنه عاد إلى رشده، وبصرخة غاضبة نبح آمرًا شابلي.

"خذ السجين إلى زنزانته!" قال آمرا. "ورافق المفتش ليستراد ورفيقه خارج السجن. الآن!" اختتم كلامه بينما ارتفع صوته حتى كاد يقترب من صوت منفاخ.

نهزني الضابط من الخلف وهو يدفعني نحو الباب، قبل أن يطلب من هولمز وليستراد أن يتبعاه بشكل هامشي. كان لدي الوقت الكافي لأسمع ليستراد يسأل هولمز كيف عرف أن رجاله يكرهونه قبل أن أبتعد عن أصدقائي. وأجاب هولمز أنه بعد أن التقى الرجل، هل يحتاج حقًا أن يسأل؟

لا يمكن إنكار المتعة في رؤية كيجان في موضع إذلال، لكن أي رضا شعرت به كان عابرًا فقط. في غضون دقائق أصبحت مرةً أخرى في زنزانتي، مع الروتين الممل لليوم.

وفي المستقبل القريب، أمامي محاكمة قد أخسرها على الرغم من كل كلمات ليستراد الداعمة.

تمسكت بتلك الكلمات المُشَجعة طوال اليوم المديد، ونويت أن أسأل هولمز عن التقدم الذي ذكره بمجرد وصوله إلى نوبته بصفة أندروز. لكن في هذه الحالة، ظهر أمام زنزانتي في وقت مبكر من الظهيرة وفي يده أمر بأخذي إلى المستوصف. يبدو أن الاجتماع الصباحي مع كيجان دفعه على الأقل أن يأمر بفحص إصاباتي من قبل طبيب.

"لحسن حظنا، لديهم بعض صعوبات مع التوظيف في السجن، أحد الحراس المدرجين في قائمة اليوم لم يأت للعمل، لذا أرسلوا بعداءٍ إلى منزلي طالبين حضوري لجزءٍ من نوبة اليوم" سمح لنفسه بابتسامة سريعة.

"قد يكون الغياب مرتبطًا ببرقية مجهولة المصدر إلى الشرطة المحلية تحذر من أن حارسًا معينًا لديه توجه جمهوري[1] وخطط لتفجير وحشي في المستقبل القريب. لا تقلق!" سرعان ما قاطع هولمز اعتراضي. "لقد طلبت أيضًا من ليستراد ضمان معاملة هذا الزميل بشكل جيد واحتجازه فقط حتى أعطى الإذن بإطلاق سراحه. لكن بهذه الطريقة يمكنني أن أكون حاضرًا بقدر ما أرجو للأيام القليلة القادمة"

"وهو ما أقدره، هولمز، لكن متى تنوى أن تنام؟"

"أنت تعرفني أفضل من ذلك، واطسون! لقد دربت نفسي على العمل مع القليل جدًا من النوم عند الحاجة.

1- (يقصد الحزب الجمهوري)

بضعة أيام دون نوم لن تضعف من قواي العقلية. لكن اهدأ الآن!"

لم يكن التحذير ضروريًا، إذ إنني أيضًا قد رأيت الحارس يقترب. مثل هولمز كان يرافق سجينًا.

"عمت مساءً، أندروز،" صاح به بمرح. "ما الذي أتي بك؟"

"نوبة مزدوجة، أليس كذلك؟" أجاب هولمز بكآبة مريرة. وقف الرجلان وتجاذبا أطراف الحديث لفترة وجيزة، نظرت لزميلي الذي أومأ برأسه تحيةً.

لدهشتي كان أيزاك كولينز، لكنه لم يعط أي إشارة أنه يعرفني، نظر إلى بفضول لثانية واحدة ثم حول انتباهه إلى حذائه الأيمن الذي فركه بربلة الساق. فكرت أول الأمر أن أقول له شيئًا لأسأل لماذا حاول قتلي ولحساب من. ولكن عندما فتحت فمي عبس في تحذير وهز رأسه بحدة في حركة صغيرة وسريعة، ثم استأنف تلميع حذائه المتسخ.

مرت لحظة ثم ودع هولمز زميله. وانطلقنا في طريقنا إلى المستوصف.

فقط عندما ابتعدنا بما فيه الكفاية عن الحارس الآخر حتى لا يسمعني، تكلمت.

"هذا السجين هو آيزاك كولينز، هولمز!" أعلنت بقوة.

"أدرك هذه الحقيقة، واطسون. لقد راقبته منذ لقائك الأول معه. إنه ليس أكثر من مقاول صغير لبعض البضائع المسروقة، على الرغم من سمعته أنه عنيف. وهو في طريقه مرة أخرى إلى زنازين العقاب. بعد العثور على

سكين يدوي الصنع في زنزانته. ولكن، ها نحن وصلنا إلى المستوصف. سأسلمك إلى عهدة الطبيب هناك. على أن أكون في الخارج لتولى أمورا أخرى" أخرج ساعة جيب محطمه. "سأعود بعد ثلاثين دقيقة لأعيدك لزنزانتك".

مر بجواري ليفتح الباب لكنني وضعت يدي على ذراعه لأوقفه. "انتظر لحظة يا هولمز" همست على وجه السرعة. "التحول السريع للأحداث أنساني، لكنني أردت أن أسألك: ما التقدم الذي أحرزته في تحقيقك في مقتل السيدة ماكلاكلان؟ قلت الليلة الماضية إنك حققت بعض النجاح"

"سامحني، واطسون" اعتذر صديقي على الفور. "لقد سمحت لنفسي أن أعلق كثيرًا في الأحداث والدور الذي ألعبه، متناسيًا أنك لست بجانبي في جميع الأوقات، كما هو الحال عادة في تحقيقاتنا" نظر أسفل الممر ثم سحبني إلى الجانب حتى يتسنى لنا دقائق من التحذير إن فتح أحدهم باب المستوصف من الداخل.

"لقد اكتشفت ما حدث للفتاة التي استدرجتك إلى غرفة القتل. علي الرغم من أنني لم أتمكن من التعرف علي هويتها. ولكن لدى آمال في القيام بذلك قريبًا جدًا ومعرفة كيف تدبرت من الهروب من التعرف عليها حتى الآن، فتحت طريقًا به الكثير من التقدم في التحقيق. وليس من المبالغة أن أقول إن هذه الحقيقة، مقترنة بهويتها، ستقودني إلى حل القضية، وإلى حريتك. في غضون ذلك، كن حذرًا من جالاواي وإذا...."

في تلك اللحظة، تأرجح باب المستوصف مفتوحًا، وفي لحظة تحول هولمز إلى أندروز مرة أخرى.

"شكرًا لك، سيدي" تمتم متزلفًا للطبيب الذي وقف في المدخل. "كنت على وشك إحضار هذا السجين لرؤيتك، إنه يشكو من كسر في الكاحل والآمر يريد منك أن تلقي نظرة عليه، إن كان لديك الوقت"

نظر الطبيب إليّ بعينيه صعودًا وهبوطًا وأومأ برأسه في سأم. "كما لو لم يكن لدي ما يكفي لأقوم به" تمتم ثم قال "اتركه معي. لا ينبغي أن يأخذ الأمر أكثر من عشر دقائق لربطه. أحد زملائك موجود بالفعل في الداخل، على وشك إعادة رجل آخر إلى زنزانته. سأجعله يبقى لفترة أطول قليلًا ويضرب عصفورين بحجر واحد"

ركل الباب ليفتح على مصراعي وأومأ إلى الداخل. فلتدخل إذًا" قال دون أن ينظر في اتجاهي. "اجلس وسألقي نظرة على كاحلك في غضون دقيقة"

فعلت كما أُمرت واتخذت مقعدًا. ومع ذلك، من داخلي كنت مبتهجًا بكلمات هولمز. ربما سينتهي هذا الكابوس قريبًا!

الفصل الرابع والعشرون

أسفرت تجربتي عن الاقتناع بأنه، مهما كان الأمر بغيضًا، في نهاية المطاف يصبح أي موقف مألوفًا. وهذا ما ثَبُت خلال الأسبوع التالي في هولواي.

فمن ناحية، تبين أن اجتماعنا مع الآمر لم يكن كارثيًا تمامًا بعد كل شيء. ونتيجة التحذير الرسمي الذي أصدره هولمز إلى كيجان من احتمال وقوع هجوم جديد. تم تكليف ماي ـ الحارس الذي أخذني إلى جهاز المشي داخل طاحونة الهواء ـ إلى جانب شابلي، بمراقبتي. وغني عن القول، أن هذا الإجراء كان مدفوعًا تمامًا بالمصلحة الذاتية وليس على الإطلاق بسبب الاهتمام برفاهيتي، لكنه كان يعني أنه يمكنني الاسترخاء قليلًا. لكن لسوء الحظ، من عيوب هذا القرار منع هولمز من تبادل أكثر من التحية الرسمية القصيرة معي. مر أسبوع على هذا الحال، ثم اختفى أندروز تمامًا، ولم أتمكن من لفت الانتباه إلى علاقتنا من خلال السؤال عنه، كان على ببساطة أن أثق أنه يعمل على تبرئتي، نيابة عني خارج السجن.

على أي حال، قضيت معظم الأيام القليلة التالية في التنقل ذهابًا وإيابًا من زنزانتي إلى غرفة خاصة حيث شرح أوزمونت ماركوم نواياه عن كيفية الدفاع عني.

"في رأيي، دكتور واطسون، أن احتمال تلك المحاكمة

هـو اتهـام رهيـب للنظـام القضائـي فـي هـذا البلـد!" تمتـم باستنكار "لـم يكـن ليحدث ذلـك في إسكتلندا، أؤكـد لـك. لمـاذا رجـل نبيـل مثلك...لكنني أتخبـط، والوقـت ضيـق"

قلـب صفحـات دفتـر ملاحظاتـه دون أن يقـرأ كلمـة واحـدة، ثـم رفـع عينـه إلـي وحـدق بعينـي "كمـا تعلـم، فـإن الأدلـة ضـدك ظرفيـة وتستند في جزء كبيـر منهـا إلى ملاحظـة مجهولـة المصـدر ووجـودك فـي غرفـة مغلقـة مـن الداخـل مـع جثـة مشـوهة بجـوارك. فـي رأيـي أن الملاحظـة ذات وزن ضئيـل. لا يثـق المحلفـون في أى اتصـال يخشـى الرجـل مـن اقتـران اسـمه بـه. لكـن مسـألة المفتـاح... هـذا ليـس مثاليًـا، ليـس مثاليًـا على الإطـلاق. أفتـرض أنـك لـم تفكـر فـي كيفيـة قفـل الغرفـة والمفتـاح موجـود فـي الداخـل؟ لا؟ حسـنًا، لا يهـم، يجـب أن نمضـي قدمًـا فـي الحقائـق كمـا هـي لدينـا.

"أستطيع أن أدعـوك إلـى التحـدث دفاعًـا عـن نفسـك، إذا كنـت ترغـب؟ رجـل محتـرف مـع درجـة مـن الشـهرة والشـعبية، جـرح فـي أرض المعركـة مدافعًـا عـن ملكتـه، ليـس بقليـل. نعم، سـتحب هيئـة المحلفيـن ذلـك، سـيحبون ذلـك جـدًا بطبيعـة الحـال، سـأضع جهـدًا كبيـرًا فـي المقارنـة بيـن شـخصيتك المسـتقيمة النبيلـة مـع متهمـك الجبـان مجهـول الهويـة! نعـم، في الواقـع هنـاك الكثيـر مـن الأسـباب التـي تدعـو للأمـل حتـى قبـل أن أرفـع السـتار عـن اسـم أليسـتر مـاكلاكلان، مغتصـب الخادمـات الصغيـرات!"

أحسسـت بشـعور غيـر مريـح عنـد ذكـر مـاكلاكلان لكـن ماركـوم مضـى قدمًـا قبـل أن أتمكـن مـرة أخـرى مـن إعـادة

تأكيد إيماني ببراءته.

"هكذا الأمر إذًا! نيتي هي تشويه مرسل صك الدين المجهول وتقديم جون واطسون كما هو وبلا شك، عضو قوي وصادق وفاعل في المجتمع مع روابط قوية مع الشرطة وروابط من النبلاء وحتى الأرستقراطيين، من المؤسف، من المؤسف حقًا أنني لا أستطيع أن أفعل أكثر من مجرد التلميح إلى خدمتك للبلاط الملكي نفسه، ولكن ها أنت ذا.

"وسألمح إلى السيد هولمز، على الرغم من أنني لن أدعوه إلى المنصة، وقد وافق المفتش ليستراد على التحدث عن أخلاقك الحسنة. وسأتجنب، قدر استطاعتي أي ذكر لغرفة القتل نفسها، إلا للتأكيد على ضيق الوقت الذي كان متاحا لديك لارتكاب جريمة القتل وحقيقة نوع السكين المستخدم في هذا الفعل الدموي. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى مناقشة ميراث أليستر ماكلاكلان وافتقاره إلى حُجَّةُ غياب، وعند هذه النقطة سأكلف الادعاء بتقديم دافع آخر غير المقترح في صك المديونية الذي لا قيمة له في ذلك الوقت"

استنشق بصوتٍ عالٍ وأغلق دفتر ملاحظاته "هل يلقى هذا موافقتك، دكتور؟"

أومأت برأسي موافقًا. وبعبارة أخرى، بدا من المستحيل أن تصدق أي هيئة محلفين أنني القاتل، لكنني كنت أعرف أن الادعاء سيقوم بصبغ كل عنصر من عناصر الأدلة بغشاء أسود ليزيد من تأثيرها، ويمكنه استدعاء محقق سكوتلاند

يارد الخاص بهم والذي كان متأكدًا من إدانتي.

في غياب فرص النقاش مع هولمز، اضطررت إلى البحث عن طرق أخرى للأخبار. لحسن الحظ، سُمِح للسجناء غير المدانين بشراء الصحف ذات الجودة الأفضل، وبالتالي اكتشفت في صحيفة التايمز أننا أنقذنا حياة آدمز، الشخص الذي رشحه جالاواي للموت قبل أيام. كان التقرير صغيرًا، لكنني قصصته واحتفظت به.

تصدر عنوان *"القتلة المحتملون"* جميع الصحف، وتحته جاء خبر اعتقال مسلحين ملثمين اقتحموا منزل جون آدامز، أحد أهم جامعي التحف الفنية في لندن. وانتهى التقرير إلى أن برقية مجهولة المصدر وصلت لتنبيه المفتش ليستراد من سكوتلاند يارد إلى الهجوم المحتمل مما أدى إلى الاعتقالات، يعتقد أن تلك الأعمال من صنع زعيم العصابة سيئ السمعة ماتي جالاواي، سمحت لنفسي بابتسامة صغيرة على تلك المفارقة.

تذكرت وصف ليستراد للرجل الذي أبلغ عن جالاواي ـ وهو منافس كما قال ـ وتساءلت عن مدى ما يتطلع إليه رؤساء العصابات في العاصمة.

وفقًا للتاريخ على القصاصة، كان هذا الثامن والعشرون من الشهر، أي قبل أسبوع واحد فقط من الموعد المحدد لبدء محاكمتي. لم أتلق بعد أي خبر من هولمز. لم يكن بوسعي سوى أن أرجو أن يكون اقترب من انفراجة ما، ولكن إذا فعل، فإنه يبقى الأمر سرًا ببراعة. واصلت البحث عن كل المعلومات التي يمكنني الوصول لها بشأن جالاواي،

وحاولت في وقت متأخر من الليل وأنا في زنزانتي، بناء سلسلة من الأحداث والتحركات التي من شأنها أن تضعه، أو أحد رجاله، في الزنزانة إلى جانب هاردي المسكين. ذكرى إيماءاته الصغيرة التي أعطاني إياها على الدرج وكأنه يشمت فيّ لأنه يعرف ماذا اقترفت يداه، احترقت داخلي. كان يعتقد أنه لا يمكن المساس به. وربما هو على حق. بالتأكيد لديه حرية التحرك داخل السجن، ومن يعرف عدد الحراس الذين يعملون لحسابه. نمت بشكل متقطع، وتستهلكني بشكلٍ متزايد فكرة حصانته التي لا نهاية لها من العقاب.

سمعت الرجال المدانين يصفون الأيام التي سبقت إعدامهم بأنها تمر بثلاث مراحل، بينما تطول الليلة التي تسبق الإعدام إلى الأبد. ويبدو هذا لي أيضًا في الأسبوع الأخير قبل محاكمتي.

جاءت الأيام الأولى وولت في ضبابية وأنا غير قادر على اختيار ذكرى واحدة يمكنني وضعها بشكل نهائي في تلك الفترة القصيرة. أعلم أن كل يوم يمر بطريقة مماثلة لتلك التي سبقتها في سلسلة لا تتغير من الوجبات التي أتناولها في زنزانتي منفردًا، والساعات التي أقضيها في العبادة أو ممارسة الرياضة، لكن ما يمكنني قوله على وجه اليقين هو كلما لم أكن محبوسًا أصبح مهووسًا بماتي جالاواي. في الكنيسة، حرصت على الجلوس في مكان ما خلفه حتى أتمكن من مراقبته بشكل أفضل. في الفناء، تحركت موليًا ظهري للجدار بحيث يكون دائمًا في مرمى

بصري. حتى في الطريق من زنزانتي إلى غرفة الزوار للقاء ماركوم، كانت عيناي في حركة مستمرة بحثًا عن قاتل هاردي مستثنيًا كل شيء آخر.

فقط بعد أن صافحني ماركوم بعد ظهيرة يوم جمعة بارد وقال إنه سيراني في المحكمة يوم الاثنين، تباطأت الأحداث أخيرًا من ضبابية الأسبوع الماضي إلى سرعة أكثر قابلية للفهم. لم أر هولمز سواء بصفته أو منتحلًا شخصية أندروز، على الرغم من أنني بالكاد لاحظت غيابه بسبب هوسي، لكن الآن ومع عودة حواسي إلى شيء قريب من حالتها الطبيعية، ملأني عدم وجود أي خبر، على العكس المتوقع، بالتفاؤل. عدم وجود أخبار هو في ذاته أخبار جيدة، وأعرف أن صديقي لن يهجرني في هذا الوقت إلا إن كان يتبع طريقًا واعدًا لا يمكنه الانحراف عنه الآن. في غيابه كل ما استطعت فعله هو الاستعداد للمحاكمة.

بينما أنا مستلقٍ على الفراش أفكر فيما يمكنني فعله لمساعدة نفسي، فتح ملاكي الحارس، السيد ماي، باب زنزانتي في إحدى الليالي وتسلل إلى الداخل. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ولم يكن هناك سبب يمنعه من التواجد هناك.

اعتدلت على الفراش ودفعت بالغطاء بعيدًا، لكن قبل أن أتمكن من الكلام وضع أصبعه على شفتيه في إشارة إليّ ألا أتكلم.

"بهدوء، دكتور واطسون. لدي شيء أعتقد أنه يهمك"

أغلق الباب خلفه برفق وأخذ مقعدًا على الفراش الفارغ.

"لقد راقبتك، دكتور، كما تعلم، بناءً على أوامر من آمر السجن، ولا أظن أن هناك الكثير من الشر فيك، ليس ما يكفي لتقوم بالأشياء الرهيبة التي يقولون إنك فعلتها على أي حال. ووصلت إلى التفكير في أنني أستطيع أن أجد لك منعطفًا جيدًا، لأنني لن أحب أن أرى رجلًا جيدًا مثلك أن يترك هكذا كما لو كان ملقى في صندوق للقمامة".

بعد أن أنهى حديثه القصير، ظل صامتًا يحدق فيّ من المسافة الفارغة بيننا. كان هذا حديثًا جيدًا بالفعل. اندفع منه في نفس واحد كما لو كان يتدرب لكنه لم يتذكره بشكل كامل بينما كان حريصًا على إخراج كل الكلام قبل أن ينسى المزيد منه.

كان القمر مكتملًا في تلك الليلة ومن خلال ضوءه استطعت أن أرى العرق يلمع على شفاه ماي العلوية. دقت أصابعه إلى ساقه ونقرت قدمه على الأرض في إيقاع غير متناغم. ظهر توتره بشكل واضح وهو شيء متوقع إن كان يكسر القاعد ليظهر لي بعض اللطف، لكن ربما كان متوترًا للغاية لأنه ينوي تمرير بعض المعلومات لي ويذهب. أيًا ما كان ينوي القيام به، لم يعتقد أنه يستطيع تفسيره إن ألقي القبض عليه أثناء قيامه به.

"منعطف جيد؟" قلت بعناية. كلما استطعت أن أغريه أن يشرح أكثر، كلما أصبحت جاهزًا بشكل أفضل في الأيام المقبلة. لم يكن هناك شك أني أنوي الموافقة على كل ما يقترحه. فقط الأحمق لا يتوقع فخًا، لكن من الأفضل أن يدخل الفخ عن طيب خاطر بدلًا من البقاء في الظلام

والمخاطرة بأخذه على حين غرة في وقت لاحق.

"يمكنني أن أريك دليلًا أن مات جالاواي هو القاتل"

سواء فخًا أم لا، تحدث ماي كما لو كان يصدق ما يقوله. سكنت أصابعه وقدمه، وأصبح صوته طبيعيًا وغير مجبر. لو أن هذا هو الطُعم، فإنه مقنع على الأقل. انزلقت قدمي في حذائي وقمت واقفًا. وهو أيضًا بينما توتر فجأة.

"لو أن هذا حقيقيًا سيد ماي، لك جزيل شكري الذي لن ينتهي. لكن أظن أن هذا الدليل ليس معك الآن؟"

هز رأسه نافيًا. "لا، ليس معي. لكن إذا جئت معي، يمكنني أن آخذك إلى حيث هو. إنه مخبأ في مكتب آمر السجن".

لقد شعرت بما يقرب الإهانة من اعتباري أحمق لدرجة أني سأقع في حيله باهتة بهذا الشكل، لكنني قررت بالفعل أن أوافق ماي. "هل ستتقدم الطريق، أم أذهب أنا في المقدمة؟"

تردد، ثم فتح الباب وتمتم قائلًا "سيكون من الأفضل أن تتقدم أنت، دكتور"

خرجت إلى الممر ولاحظت أن الباب في الآخر كان مواربًا. استدرت نحو ماي، ضرب ألم قوي في رأسي بينما نزلت هراوة ثقيلة على جانب وجهي. تعثرت إلى الأمام وامتدت ذراع إلى الجدار، لكن قبل أن أصل إليها، تحول كل شيء إلى الأسود.

الفصل الخامس والعشرون

عندما أفقت، أول ما فكرت فيه إن كنت مازلت على قيد الحياة. والفكرة الثانية كانت كم من الوقت سيمر على في هذه الحالة السعيدة.

عرفت في الحال أنني في الغرفة المهجورة التي رأيت فيها جالاواي يأمر بقتل جورج آدامز لم تتغير باستثناء أن التوقيت المتأخر استلزم إضاءة ثلاثة مصابيح وبدلاً من صندوق في منتصف الغرفة، كان هناك الآن مقعد، والذي كنت مربوطا به بإحكام. استطعت تذوق نكهة الدم المعدنية في فمي. وخفقت إحدى العينين بشكل مؤلم بينما انتفخت وأغلقت على نفسها بحيث لم أستطع سوى التحديق من خلال الأخرى في العصابة التي تجمعت وأحاطت بي. رأسي أيضًا كان يؤلمني وكل نفس كان مؤلمًا، من الواضح أن الضرر السابق الذي لحق بأضلاعي قد تفاقم بسبب الإصابات الجديدة.

تحدث صوت من يساري، الجانب الذي ضعُفَت فيه رؤيتي، بحيث اضطررت إلى لف رقبتي لمواجهة المتحدث. كما هو متوقع، كان ماتي جالاواي.

قال وهو يتحرك حتى وقف أمامي مباشرةً "أرجو ان تتقبل اعتذاري، دكتور واطسون، بعض الرجل يمكنهم أن... يتحمسوا بعض الشيء" ابتسم، لكنها ابتسامة باردة

"ومع ذلك، أنت رجل مشهور، وأنا متأكد أنك تدرك أن أي إزعاج تجد نفسك فيه حاليًا هو مؤقت بطبيعته"

سمعت من خلفي ضحكات رجال جالاواي وأملهم في أن يكون موتي مؤلمًا، لكنني لم أشعر بأي خوف، بل شعرت بالغضب فقط لأنني خذلت ألبرت هاردي. وأن قاتله سيكون أيضًا قاتلي. توترت من الأحبال التي ربطتني إلى مقعدي، وأدركت على الفور عدم الجدوى من أي تصرف. كان الحبل مشدودًا جدًا حول معصمي وكاحلي بحيث لا يسمح لي حتى بأدق الحركات. بدلًا من ذلك، ركزت على إبقاء رأسي مرفوعًا وأنا أنظر إلى جالاواي. مهما حدث صممت على أنني لن أظهر أي خوف. قررت ألا أعطي قاتلي تلك اللذة أبدا.

بدا أن جالاواي فهم. "شجاع، سبق وأخبرتك ذلك، دكتور. وسأقولها مرة أخرى. من المؤسف أن أثبت كم أنت عازم على تدميري، لأنني سأسعد بانضمامك لمشروعنا الصغير. رجل مثلك سيكون إضافة مفيدة لمجموعتنا... ولكن هكذا هو الأمر. لا تملك سيطرة على دورك في علاقتنا بقدري تمامًا. من المحتم أن يكون أحدنا هو المنتصر والآخر ضحية. ولدي الكثير من الرجال يعتمدون عليّ للمخاطرة بنتيجة أخرى غير تلك التي نشارك فيها الآن. آمَلُ أنك تستطيع رؤية ذلك؟"

افترضت أن السؤال بلاغي، لكن جالاواي توقف كما لو كان ينتظر جوابا.

"هذا مجرد عمل، صحيح جالاواي؟" قلت أخيرًا،

غير قادر ـ وغير راغب ـ في التزام الصمت. "هل كان مجرد عمل عندما ذبحت هذا الصبي أيضًا. هل هذه هي طريقتك في العيش مع جريمتك؟"

عرفت أني أصبحت غاضبًا مرة أخرى، وقررت ألا أصرخ من الغضب في المخلوق الوحشي الواقف أمامي. من الأفضل ألا نعطي جالاواي أي رضا مهما كلف الأمر، وأن لا أضيف شيئًا إلى انتصاره، لكن الابتسامة الماكرة التي تلاعبت على شفتيه كادت تثنيني عن هذا القرار.

"ربما ما يقوله الجميع صحيحًا، ها؟ أن شيرلوك هولمز يبقيك بجواره كلعبة. أنه يتسلى برؤيتك تتراقص حوله دون فهم شيء.

أنت بالتأكيد لم تستمر في العمل تحت الوهم الأحمق بأنني من قتلت هاردي؟ لماذا أفعل ذلك؟"

"لأنني ارتكبت خطأً فظيعًا!" خرجت الكلمات مجبرة من حلقي، لم أتمكن من احتجازها. "لأنني فشلت في منعه من التجسس عليك!"

تصاعد الألم من أضلاعي إلى كتفي وأنا أضغط على قيودي، لكن الغضب الذي كان يغلي بداخلي منذ دخلت هولواي لن يتم إخماده مهما تمنيت. "كان يجب أن أمنعه، لكنني لم أفعل. وهكذا ذبحتموه كما لو كان لا شيء!"

تحولت ابتسامة جالاواي الآن إلى ضحكة مجلجلة. "تجسست عليّ؟ قلتها بنفسك، واطسون. لم يكن أكثر من طفل. قتلت أكثر من رجل وربما أنا هذا القاتل المتوحش الذي تدعيه، لكنني لا أقتل الأطفال لأنهم راقبوني. في

أسوأ الأحوال، أرسل أحد رجالي ليحذره" هز رأسه. "أنت تخيب أملي، دكتور. لقد تصرفت تحت سوء الفهم بأن هناك ما هو أكثر من الشجاعة والرغبة في التعرض للأذى فيما يخص الألعاب التي يمارسها السيد هولمز، لكن يبدو أنني كنت مخطئًا. تجسس علي، أليس كذلك؟"

ضحك مرةً أخرى، ولا يمكن أن يكون هناك شك أنه يتسلى حقًا. ولكن إذا لم يكن جالاواي قتل صديقي، فمن فعل؟

لم أنتظر كثيرًا لأعرف. ثبت جالاواي نفسه وانحنى أمامي بحيث أصبح وجهه مستويًا مع وجهي. اقتربت من رؤية اللحظة التي غادرت فيها الابتسامة عينيه لتحل محلها صلابة باردة. تحول جالاواي إلى رجل الأعمال مرة أخرى.

"سأخبرك من قتل صديقك الشاب، أليس كذلك؟ لأنني أعرف كل ما يجري هنا. عرفت أن الصبي قد مات قبل أن يفعل الحراس. رأى أحد رجالي الأمر وهو يحدث، أتري. ألم يخبرك بوتر بذلك؟ أخبرته أن يعطيك تحذيرًا عادلًا مما ينتظرك في زنزانتك. ليس من شيء نستغربه في ذلك، على ما أعتقد. أنه ليس أفضل من كلب. ولكن على كل حال... مازلت أعرف من قتل الصبي. هل تريدني أن أريك؟" وقف وتمدد غير مهتم على الإطلاق كيف رددت عليه. "لا يوجد سبب يمنعني من تقديم هذه الخدمة الأخيرة لك. من المؤكد أنك ضيعت حياتك مقابل إنقاذ حياة جورج آدامز، لكنني لست قاسيًا كما تعتقد ولن أرسلك إلى قبرك غير راضٍ. ليس في هذا الصدد على

الأقل"

أشار لأحد رجاله الذي لم أره. "أحضر للطبيب هديته، وبعد ذلك يمكننا القيام بهذا الأمر"

لم يقم الرجل بأكثر من إطلاق صوت ناخر، ثم مر بي ذاهبا إلى الرواق خلفي. سمعت بابًا يُفتح افترضت أنه الباب لمساحة التخزين التي شاهدت اجتماع جالاواي السابق وعصابته منها، ثم أتى صوت ضربة مكتومة كما لو كان شيئًا ثقيلًا قد سقط على الأرض. في ضوء المساء المحتضر دخل الرجل الغرفة موليًا ظهره لي وهو يسحب شيئًا لم أتمكن من فهمه. تنهد تنهيدة أخيرة وسمح لحِملِه أن ينزلق على الأرض، ثم عاد إلى الظلال.

استلقى جُوال من الخيش تحت قدمي جالاواي. بمجرد أن رأيت شكله عرفت أنه يحتوي على جثة.

"ها هو قاتلك، دكتور واطسون. سأعترف بجريمة القتل تلك بكل سعادة"

أشار إلى وجوب فتح الجُوال، ركع أحد رجاله وسحب الحبل الذي يربطه ثم تعامل مع الجزء العلوي وهو يطويه، وكشف عن وجه آيزاك كولينز الغاضب.

"تبدو مندهشًا، دكتور. هل كنت تتوقع شخصًا آخر؟"

"لا أفهم،" قلت بضعف. "لماذا وجب على هذا الرجل أن يقتل هاردي المسكين في حين كان بإمكانه قتلي بسهولة بدلًا من ذلك؟"

اخترقتني ضحكة جالاواي مثل سكين. "أنت تفكر في نفسك كثيرًا، دكتور. أليس كذلك؟ أنت لست مهمًا

كما تعتقد، ليس في مكانٍ مثل هذا. هناك العديد من الأسباب التي تؤدي لمقتل أيّ رجل داخل جدران السجن. وما تعتبره شهرتك ليس على رأس تلك القائمة. لماذا، أشك أن رجلًا واحدًا من كل مائة قد سمع باسمك، ناهيك عن أن يكون قادرًا على التعرف عليك في مكانٍ مزدحم مثل باحة السجن.

"لكن اسرق من أي رجل هنا وتكون أنهيت حياتك بيديك. دفع الفتي الثمن الذي لابد وأنه عرف أنه سيدفعه، عندما سرق الخمر من ايكي كولينز"

سرق خمرًا؟ فجأة تذكرت الكحول القوي الذي تشاركته مع هاردي في ليلتي الأولى. بالطبع لقد سرقها. أخبرني أنه قد وصل للتو. من أين يمكن أن يأتي سوى بالسرقة؟

"لكن حرف ال G المحفور على وجهه؟" بدا السؤال في غير موضعه حتى وأنا أسأله. لكن جالاواي هز راسه على أي حال.

ليس G، دكتور وإنما C. هل تظن أنني وصلت لما أنا عليه بالتوقيع على جثثي؟"

ضحك على الفكرة. "لكن كولينز أراد أن يعرف كل سجين من قتل الصبي. أشك في أنه عرف من أنت في البداية. ربما انشغل لمعرفة ذلك بعدما... تدخلت أنا، لكن بحلول ذلك الوقت أصبح يعرف أنه لا يستطيع لمسك. حتى لو أراد ذلك. وهو ما أشك فيه أيضًا. سأقول هذا في حق ايكي كولينز، لم يسع للبحث عن المتاعب، بل أدار وضعه بفاعلية وأبقى نفسه بعيدًا عن المتاعب، لم يعط

أي حارس سببًا لإزعاجه. بعض الدفعات لشابلي وواحد أو اثنين أخرين وتم غض الطرف عنه. لكنه لم يستطع أن يدع صبيًا أغر يسرق منه، هل يمكنه ذلك؟" أصبحت ابتسامة جالاواي باردة مثل الهواء العالق في الغرفة. "لأنه إذا تعلق الأمر بشيء بائس مثل أخذه ولو جزء مما كان ملكا لآيكي، ويهرب دون عقاب، حسنًا، ما الذي يمنع شخصا مثلي أن يقرر أخذ كل شيء؟"

لم يكن هناك ما يمكنني قوله. حدقت بنظرة فارغة في جالاواي، بعقل فارغ، مدركا فقط أنني بدأت أرتجف. علمت في تلك اللحظة أنني سأموت في تلك الغرفة البائسة. لا شيء يمكن أن ينقذني. لهذا السبب أراني جالاواي الجثة واعترف بجريمة القتل. أراد مني أن أعرف أن حياتي ستنتهي قريبًا.

"حسنًا، الآن تعرف" قال وهو لا يزال يبتسم "اعتبر هذه المعلومة شكرا أخيرا لك على الخدمة التي يقول الناس أنك قدمتها لي مع عمة ماكلاكلان. لا يعني هذا أنني أعتقد أنك حقًا فعلتها. ليس لفترة طويلة، لكنني لطالما رجوت أن أتسبب للسيد شيرلوك هولمز في أمر خبيث. لم أستطع تجاهل فرصة ذهبية أتت لي على طبق من ذهب مثل ظهورك في فناء هولواي. ومتهمًا بجريمة قتل كان ليظن الجميع أنني من فعلتها؟ كانت فرصة جيدة جدًا. لذلك حرصت أن يعرف العالم أنك تابعٌ لي ومن رجالي. صافحتُك ليراها الجميع. مددت جناحي فوقك مدعيًا أنك ملكي. ثم أرسلت صك المديونية فقط لأتأكد

من بقائك تحت رحمتي.

أستطيع أن أخبرك أننا ضحكنا على ذلك. لا أعلم من أوقعك في هذا الشرك لكنني بذلت قصارى جهدي للتأكد من بقائك هناك.

"لكن كل هذا انتهى الآن. ولدي أعمال مهمة على أن أتولاها. أخشى أنني لا أستطيع إضاعة المزيد من الوقت عليك، دكتور واطسون. على رجالي أن يعلموا الجميع أنني الرجل الذين يأتون إليه من أجل الخمر الآن. يقال إن الوقت لا ينتظر أي رجل. متأكد من أنك تفهم"

ركل الجثة الملقاة عند قدميه بغير اهتمام. "خذ هذا بعيدًا وألقه في زاوية ما ليُعثر عليه" أمر أقرب الرجال إليه.

"وأنت" تابع مشيرًا لآخر. "فلتقتل واطسون، وضع جثته في نفس المكان. سيكون هناك القليل من الهرج عندما يكتشفونها. لكن الجميع يعرف أنني فعلت كل ما في وسعي لحماية الطبيب المسكين. إلى جانب ذلك، ما قيمة ما أدفعه لكيجان إن لم يكن للتغطية على مثل تلك الأمور؟ ضع في اعتبارك أن تترك السكين التي ستستخدمها بجوار الجثث. ربما تضعها في يد ايكي. قد يساعد هذا"

التفت بسرعة، بينما الرجل الذي تحدث معه وقف أمامي، حاملًا في يده قطعة طويلة من المعدن الحاد. أردت أن تظل عيناي مفتوحتين وهو يقترب، مصممًا أن أواجه الموت وجهًا لوجه على الأقل. عندما كسر الصمت أكثر صوت غير مُتوقع.

"خذ خطوة أخرى نحوه وسأضطر إلى إطلاق النار"

التفتُّ برأسي نحو المتحدث، وذهلت إذا رأيت الرجل الذي سحب الجثة قبل قليل يخرج من الظلام مادًا يده للأمام ممسكا بمسدس. لو لم أتعرف على صوت هولمز لما عرفته على الإطلاق. كان يرتدي نفس الزي القذر الذي يرتديه بقيتنا، وجهه ملطخًا ومغطى جزئيًا بلحية خفيفة. فقط عيناه عندما التقطتهما أشعة القمر القليلة الأخيرة، كانت تلك عيني صديقي.

تابع قائلًا. "فكوا وثاقه" بصوت هادئ كما لو كان يناقش الطقس. "افعل ذلك الآن أو يموت السيد جالاواي عندما أصل للرقم ثلاثة" حرك المسدس قليلًا بحيث وجهه مباشرة إلى جالاواي، ثم قال بهدوء، "واحد"، لم يكن جالاواي جبانًا، سأعترف له بذلك. للحظة اعتقدت أنه سيسرع نحو هولمز. انحنى إلى الأمام واضعًا كل ثقله على أصابع قدميه، لكن هولمز تمتم متذمرًا، "اثنان،" ومن الواضح أنه أدرك أن المسافة بينهما كانت كبيرة جدًا، مال للخلف مرة أخرى وصرخ "افعل ما يقول، فك وثاق الدكتور"

أخذ قاتلي المحتمل يخطو حولي وشعرت بالأحبال حول معصمي ثم كاحلي ترتخي وتسقط. دفعت نفسي واقفًا على قدمي وتمايلت إلى جانب واحد بينما يستأنف الدم مساره المتقطع، مما أدى إلى ألم حاد انتشر عبر ساقي.

"كيف؟" تمتمت، لكن هولمز أسكتني بهدوء.

"في خلال لحظات، واطسون" قال وهو يأخذ مرفقي بيدٍ واحدة بينما احتفظ بالمسدس في الأخرى موجهًا

بثبات إلى قلب جالاواي.

تراجعنا ببطء خارج الغرفة. بمجرد أن عبرنا إلى الخارج حتى وضع هولمز مزلاجًا وأغلق الباب خلفنا محاصرًا الرجال في الداخل. عادت الدورة الدموية بشكل كامل بحلول ذلك الوقت، وحرصت أن أبتعد لكن هولمز تمسك بمرفقي وأمرني بالانتظار.

لم أنتظر كثيرًا. إذ لم تمر أكثر من دقيقتين قبل أن أسمع خطوات تصعد الدرج نحونا ثم ظهر وجه المفتش ليستراد المتلهف من الظلمة، مع اثنين من الشرطيين مرتديين الزي الرسمي.

"هل هو في الداخل، سيد هولمز؟" سأل ليستراد وهو ينظر إليّ بينما يفعل ذلك.

"هو وبعض أعضاء من عصابته بالإضافة إلى جثة أحد ضحاياه، أيها المفتش. واحد منهم على الأقل مسلح بسكين يدوي الصنع، لذلك أقترح عليك أن تأخذ هذا" سلم ليستراد المسدس. "سيكون هناك بلا شك تهم أخرى، لكن في الوقت الحالي، فإن مقتل آيزاك كولينز سيكون كافيًا"

"وبالنسبة لدكتور واطسون؟"

"أعتقد أن المستوصف سيكون الأفضل. مع حارس من الشرطة ليكون في جانب الأمان. لكن أولًا على أن أتحدث له على انفراد"

كان رأسي لايزال ثقيلًا ويداي تهتزان، لكن كان لدي القوة والإرادة الكافية لأخذ مقعدًا على الدرجة العليا من

الدرج وانتظار هولمز لينضم لي.

"خشيت أن أكون متأخرًا جدًا" بدأ بمجرد أن جلس. "لقد تأخرت في العودة من مهمة ضرورية، وعلى الرغم من أنني جئت مباشرةً إلى زنزانتك مرتديًا زي آندروز، إلا أنك بالطبع كنت قد ذهبت بالفعل.

لحسن الحظ، لا يوجد سوى عدد قليل من الأماكن التي يمكن أن يأخذوك إليها في الساعة الواحدة صباحًا وقمت بالمقامرة بشكل صحيح أنه لن يكون منزل المضخة. هرعت إلى هنا، واكتشفت جوالًا كبيرًا حيث نجلس الآن ـ نفس الجُوال الذي رأيته يحتوي السيد كولينز الراحل ـ بالطبع كنت أتساءل كيف سأدخل، عندما أرسل جالاواي رجله لجلب كولينز. بعد ذلك كان على التصرف في خطة لإفقاده الوعي وأخذ مكانه. والباقي أنت تعرفه"

لا يزال لدي العديد من الأسئلة، لكنني كنت أعرف أنه يمكن تأجيلها في الوقت الراهن. أشار هولمز إلى الشرطي القريب طلبًا للمساعدة. وبتنهد منهك سمحت له بمساعدتي ثم سبقته إلى أسفل الدرج.

T t.me/tea_sugar

الفصل السادس والعشرون

في المستوصف استقبلني الطبيب الذي رأيته في وقت سابق بكفاءة. لم تكن أي من إصاباتي خطيرة، مما طمأنني. فقط ضلع آخر مشروخ وجرح عميق في رأسي لا يتطلب علاجًا أكثر من مرهم مطهر.

بينما كان يتم إعادة ربط أضلاعي، وصل خبر من ليستراد بأنني مطلوبٌ في مكتب آمر السجن. احتج الطبيب لأنني بحاجة إلى الراحة ـ وهو تغيير واضح في موقفه عن المرة السابقة التي قضيتها تحت "رعايته"ـ لكنني أكدت له أنني شعرت بأني أفضل بكثير بالفعل، مع إظهار الكثير من التردد، وافق في النهاية على إطلاق سراحي مع الشرطي الذي رافقني وأنا أستند إليه استعدادًا لتثبيتي إن تعثرت، سرت بأسرع ما أمكنني إلى مكتب كيجان.

هنا أيضًا تغير الوضع كثيرًا عن زيارتي السابقة. لم يكن هناك أثر لكيجان على الرغم من أن الوقت مازال مبكرًا جدًا، لم تكن تلك مفاجأة كبيرة. جلس ليستراد على مقعد آمر السجن، بينما كان هولمز جالسًا على حافة مقعد آخر، وهو لايزال يرتدي زي السجن البائس الذي ارتداه أثناء إنقاذي. جالاواي أيضًا كان حاضرًا، مقيد اليدين إلى معصم شرطي، واقفًا أمام مكتب الآمر. عندما دخلت نظر إلى هولمز وتحت نور المصباح الصناعي رأيت نظرة

ارتياح تومض عبر عينيه.

"اتخذ مقعدًا، واطسون،" قال هولمز. "أخبرنا جالاواي قصة رائعة للغاية. متأكد أنه لن يكون لديه أي اعتراض على سردها مرة أخرى لخاطرك"

جلست وأنا أفحص الرجل الذي أمر بموتي قبل ساعة واحدة. بدا متماسكًا ويقظًا، وعلى استعداد تام أن يواجهني وينظر في عيني وهو يتكلم.

"الأمر واضح للغاية، دكتور واطسون. لست مستعدًا على الإطلاق أن أتأرجح من المشنقة من أجل قتل كولينز، لكنني لن أتخلى عن أي من رجالي لمنع ذلك. الولاء هو كل شيء في عمل مثل عملي. لكن فقط من خلال الثقة يولد الولاء. كيف يمكن لأي من رجالي أن يثق بي مرةً أخرى إن فعلت ذلك؟ لا، أفضل أن أكون أنا نفسي على حبل المشنقة من أن أرسل أحدهم بدلاً عني. لكن هذا لا ينطبق على الجميع. بعضهم أوظفهم وهم لا يفهمون شيئًا عن الولاء، فقط يمدون أيديهم لأملأها بالمال والمعلومات، أو أي ما كان يحتاجونه. سينقلبون على في أقل من ثانية إن ظنوا أن ذلك سينقذهم. لذلك لا أعتقد أنني أدين لهم بأي شيء في المقابل. هذا معقول، ألا تظنون ذلك؟"

لم أقل شيئًا وهز جالاواي كتفيه بتجاهل. لوح هولمز بيده ليشجعه على الاستمرار.

"مثل آمر السجن كيجان، على سبيل المثال؟" قال هولمز. "حتى لو أنك رشوت جميع الحراس، فقد أدركت بمجرد أن استلمت نوبتي الأولى أن درجة الحرية التي كنت

تتمتع بها تتطلب تواطؤا من مركز أعلى" نظر إلى بوجه ملبد بالإحباط. "حاولت أن أحذرك منه، لكن تم مقاطعتنا، ثم تم استدعائي بشكل لا مفر منه"

حرك جالاواي عينيه بيننا كل بدوره ليتأكد من أنه حظي باهتمامنا، قبل أن يجيب. "كيجان؟ طبعًا. كنت أرشيه لسنوات. دفعات منتظمة أيضًا للتأكد من أن أي من رجالي الذين ينتهي بهم الأمر بالمرور من بواباته يُعاملون بشكل صحيح. وأكثر من ذلك بقليل بين الحين والآخر عندما نحتاج إلى بعض الترتيبات الخاصة. السجن يمكن أن يكون مكانًا خطرًا ـ حسنًا لست بحاجة إلى إخبارك بذلك، دكتور واطسون، أليس كذلك؟ـ وإذا سقط شخص ما من على الدرج بين الحين والآخر أو تمكن من شنق نفسه في زنزانته، حسنًا، من هناك ليقول ما حدث؟ ليس الآمر كيجان بالتأكيد، ولا حراسه. ليس أولئك الذين يحسبون بين المرتشين، على أي حال. وينطبق الشيء نفسه إذا كنت أريد أن أرى شخص يتعرق على جهاز المشي داخل الطاحونة قليلًا. عقاب مثل هذا يعلم المرء الاحترام، أليس كذلك؟".

"دعنا نكن واضحين تمامًا هنا، جالاواي" قاطعه ليستراد. "أنت تقول إنك دفعت للآمر كيجان ليغض الطرف عن التعذيب والقتل داخل سجنه؟ وهل أنت على استعداد لوضع شهادتك تلك في بيان وتكرارها في المحكمة؟"

"قلت إنني سأفعل، ألم أقل ذلك؟ أخبرتك أنني لا أدين

لـه بشيء. ولا بوتـر أيضًا"

مـن الواضـح أن اسـم المحقـق بوتـر كان إضافـة جديـدة للمحادثـة لأننـي سـمعت ليسـتراد يستنشـق الهـواء مـن بيـن أسـنانه، وتحـرك هولمـز إلى الأمـام حتى أصبـح جالسًـا تمامًـا أمـام مقعـده.

"شـكرًا، جـالاواي، لقـد تسـاءلت متـى سـتذكر المحقـق بوتـر" تحـدث هولمـز قبـل أن يتمكـن ليسـتراد مـن الـرد وعينـاه تلمعـان بشـكل اسـتثنائي وارتسـمت شـفتاه في ابتسـامة رفيعـة. "سـأكون مضطـرًا إذا سـمحت لـي بتوضيـح مـا نعرفـه بالفعـل بشـأن المحقـق، ويمكنـك أن تضيـف وتصحـح حسـب الضـرورة؟"

هـز جـالاواي كتفيـه كمـا لـو أن الأمـر يبلـغ أقصـى درجـات اللامبـالاة بالنسـبة لـه. حملـق ليسـتراد عاقـدًا حاجبيـه، لكنـه ظـل صامتًـا بينمـا عـاد هولمـز للجلـوس فـي مقعـده وبـدأ فـي الـكلام.

"عملـت مـع المفتـش بوتـر لبعـض الوقـت، فـي الواقـع قبـل وقوعـه منـذ خطيئتـه الأولـى، اقتربـت منـه علـى مـا أعتقـد بغـض النظـر عـن بعـض العيـوب فـي شـخصيته، رجـل مثـل بوتـر لـن يتحـول إلـى شـخص مثلـك بمحـض إرادتـه. ليـس بسـهولة علـى الأقـل. لكنـك اسـتغللت أدنـى انحسـار لـه. خيانـة، كمـا رآهـا هـو، مـن قبـل أولئـك الذيـن كان ينبغـي أن يدعمـوه».

"لذلـك تواصلـت معـه وعرضـت عليـه تقديـم معلومـات مـن شـأنها أن تسـاعده علـى اسـتعادة مكانتـه التـي فقدهـا. شـيء صغيـر فـي البدايـة، تفاصيـل جريمـة يرتكبهـا أحـد منافسـيك،

وهي مسألة غير سارة، لكنها تافهة في المخطط الكبير. دليل على حسن نيتك. ربما قدمت نفسك له على أنك أكثر الوحوش غير المنطقية، المجرم النزيه. مجرم ينتمي للمدرسة القديمة، يحترم قواعد اللعبة غير المعلنة. أستطيع أن أتخيل بوتر يتفاعل بشكل جيد مع نهج من هذا النوع».

"وهكذا صقلت المحقق جيدًا. زودته بتدفق مستمر من المعلومات وشاهدت أسهمه وهي ترتفع مرةً أخرى، ومع ذلك، دائمًا ما حدث ذلك جنبًا إلى جنب مع أسهمك. فقد استفدت أنت أيضًا. كيف لا وكل ضربة وجهها ضد هذه العصابة أو تلك كانت ضربة ضد أحد منافسيك. توسعت أعمالك مع سقوط كل منافس والفراغ الذي خلفوه في أعقابهم ملأته أنت أو أحد رجالك، حتى أصبحت في وضع يسمح لك بنصب الفخ الذي بنيته حوله".

تَوقف سرد هولمز ونظر إلى جالاواي، رافعًا حاجبًا واحدًا بحثًا عن تأكيد. أومأ جالاواي مرة واحدة. وقال "هذا صحيح، ظن أنه وضعني في راحة يده وقال لي إنه يستطيع أن يحطمني في أي وقت. لكنه كان مخطئًا"

رد هولمز الإيماءة. "لأنه على الرغم من أن بوتر ليس أحمق، إلا أنه رجل بسيط، في القلب. وحتى الكبوة المهنية التي عانى منها لم تعلمه الحذر. كما حدث عندما وضع نفسه ذات مرة في مواجهة المؤسسة، مقتنعًا بأنه ما دام على حق لا يمكن أن يُنكر والآن سمح لنفسه بالاعتقاد أن صدقه وأمانته زوداه بدرع يحميه ضدك. لكنها لم تفعل، لا تستطيع أن تفعل. سيخبرك واطسون أنني لا أهتم بالتخمين،

لكن من الآمن أن أقول إن بعض الاعتقالات التي قام بها باستخدام المعلومات التي قدمتها له، تورطه في درجة ما من عدم اتباع القوانين والتي إذا ما تم نشرها على الملأ فسوف يقاتل لدحضها.

توقف مرة أخرى وانتظر أن يتحدث جالاواي.

"شيء من هذا القبيل. لقد تأكدت أن لدي بعض الشهود على تعاملاتنا. رجال ذوو شخصية جيدة على استعداد أن يقسموا إن لزم الأمر، أن بوتر مرتش، أخذ أموالاً مني وهو يعلم أنه يعمل لحسابي"

"لكنه لم يأخذ منك أي مال، أليس كذلك؟"

"ولا فلسًا واحدًا. لكن من سيصدق ذلك؟ حتى لو فعلوا، فهل سيبدو غروره ثمنًا أكثر قبولًا، بمجرد أن تقوم الصحف بتحريف تَمْثِيلِيَّة؟ ليس سرًا أن هناك أكثر من صحفي سيطبع أي شيء يدر عليه المال"

"هذا ما اكتشفناه. ولكن أيًا كان السبب، وجد بوتر نفسه محاصرًا، غير قادر على التراجع عن معرفته بك، ولم يترك له سوى خيار المضي قدمًا في الخدمات التي قدمها لك ذات مرة والتي ساعدتك أن تنمو أكبر من أي وقت مضى. ما لا أستطيع التأكد منه هو متى أدركت أول مرة أنك تستطيع استخدام بوتر للتلاعب بالميجور ماكلاكلان"

عثر ليستراد على صوته أخيرًا وتدخل معترضًا بغضب قبل أن يتمكن جالاواي من الكلام.

"لقد تعديت الحد بكثير، سيد هولمز. لديك الحق فيما يتعلق بكيجان، وحتى بوتر إن كان الفخ مغريًا بما يكفي فأنا

أتفهم. لكن السير كامبل ماكلاكلان؟ بطل حرب حاصل على أوسمة وعضو في حكومة صاحبة الجلالة؟ لا." قالها وهو يهز رأسه بعنف. "هذا ما لن أصدقه. ولن يصدقه أي أحد آخر"

"كما هو الحال دائمًا، أسأت الفهم، ليستراد." أجابه هولمز بهدوء. "لقد تصرف السير كامبل طوال الوقت لأكثر الأسباب نبلًا. لأنه وثق في بوتر ضمنيًا، وصدقه عندما أوحى له بالحاجة لاتخاذ إجراء ضد المجرمين الذين ابتليت بهم شوارع لندن. إذا كان مذنبًا بأي شيء فهو الوثوق أكثر من اللازم بكل بساطة. ولكن لِم يكون عليه؟ لقد أثبت بوتر صدقه في الماضي على كل حال"

"في الماضي؟" التزمت الصمت حتى الآن، لكنني كنت أعرف دوري جيدًا.

"هل تتذكر طبيعة ما حدث عندما سقط بوتر من وجاهته العملية؟ سعيه المفرط وراء بعض الأعضاء الأصغر سنًا من العائلات البارزة؟ لم يتطلب الأمر مني سوى بضع دقائق من التصفح عبر سجل قصاصاتي للكشف عن السبب الذي يجعل السير كامبل يضع الكثير من الثقة في بوتر. ما يكفي من الثقة. أعترف أنني لم أعط القضية سوى القليل من الاهتمام، سواء في وقتها أو منذ ذلك الحين، لأنها بدت غير مرتبطة بمعاناتك الحالية. ولكن عندما تحدثنا مع ماكلاكلان، أشار ضمنيًا إلى أن نظرته الإيجابية للرجل كانت تستند لأكثر من مجرد رأي، وبدأت أتساءل عما جمعهما معًا في المقام الأول. في النهاية، على

الرغم من شهرة بوتر في سلك الشرطة، فهو مجرد محقق وسيكون من غير المرجح بالطريقة الشائعة للأمور أن يكون لديه العديد من التعاملات مع فارس حاصل على أوسمة. ولكن عندما وصف ماكلاكلان كيف أن شقيقه الأصغر ذا شخصية مشاكسة ومتمردة وجهوده لوضع حد لتصرفاته، وضحت العلاقة بينهما.

عانى بوتر بدوره في تحقيق يحتمل أن يورط العديد من أعظم العائلات في البلاد في فضيحة أخلاقية. لم يتم الإبلاغ عن هذه المسألة على نطاق واسع، مما أدى إلى فشلي المؤسف في الوصول إلى الرابط في وقت سابق، لكن واحدة أو اثنتين من المجلات الأكثر راديكالية نشرت التفاصيل المرتبطة بالأمر ولحسن الحظ قمت بحفظ هذه التقارير في مكتبتي الخاصة. كان أليستر ماكلاكلان أحد الأسماء المذكورة في أقدم التقارير عن تلك الفضيحة ـ وهي مداهمة لمنزل سيء السمعة في ضواحي لندن ـ ولوحظ أن الشرطة التي اتخذت هذا الإجراء بناء على معلومات قدمها شخص أو أشخاص مجهولون. لقد اكتشفت الآن أن ذلك الشخص لم يكن سوى السير كامبل ماكلاكلان. علم ماكلاكلان أن غض الطرف كان أمرًا مفروغًا منه عندما يتعلق الأمر بأفعال مؤسفة من قبل الشباب ذوي المكانة العالية، لكن كل ما أراده هو تخويف شقيقه الأصغر وإصلاحه قبل أن يلطخ اسم العائلة بشكل لا رجعة فيه. لكن الأهم من ذلك، أنه كعضو في الحكومة يمكن أن يثق من أن مثل تلك القضية سيتم إخفاؤها. لذلك

تواصل مع بوتر، وهو رجل يتمتع بسيرة طيبة لإحساسه القوي بالواجب والأخلاق، وزوده بالمعلومات التي يحتاجها لقيادة مداهمة على المنزل سيء السمعة. وهو ما فعله بوتر، وعلى الرغم من أن الأمر انتهى بالإضرار بمسيرته المهنية، إلا أن اسم ماكلاكلان لم يظهر في أي تقرير رسمي. من الواضح أن السير كامبل كان معجبًا بما يكفي بتقدير بوتر للبقاء على اتصال. وفي وقت لاحق، أخذ نصائحه حول أفضل السُبل للتعامل مع مشكلة العصابات. نصائح جاءت مباشرةً من جالاواي"

"هذا صحيح، سيد هولمز" أعلن جالاواي في الصمت الذي أتبع تفسير هولمز. "استولى بوتر بالفعل بالتأثير على ماكلاكلان عندما تواصلت معه، في الواقع كان هذا هو ما أوحى لي بالفكرة. كنت قد سمعت بوجود شرطيًا من النوع اليميني المتلهف انضم مؤخرًا ببعض الحماقة المعتادة، وكان ينوي وضع حد لأعمال تجارية مثل أعمالي. أعترف أنني فكرت في التخلص منه في بادئ الأمر، لكن لا فائدة من التخلص من شيء قد يفيدني، كما أقول دائمًا. وتوصلت إلى أن الاثنين قد يكونان مفيدين للغاية بالفعل"

من الواضح أن جالاواي قرر أن أفضل فرصة لتجنب حبل المشنقة هي الكشف عن أكبر قدر ممكن من المعلومات دون توريط أي من رجاله.

بدا مرتاحًا وهو يقف أمامنا، في الواقع بدا مستمتعًا تقريبًا بسرد هولمز. كان من الممكن أن نكون مجموعة من الأصدقاء يناقشون مسرحية رأيناها، أو رحلة إلى الريف.

لكنني تذكرت الجثث التي تركها في أعقابه وجلبت تلك الفكرة غصة مرة في حلقي.

"والسيدة ماكلاكلان؟" تصدع صوتي وأنا أتحدث وجعلني الغضب غير واضح، لكن لدهشتي كان هولمز هو من أجاب.

"جالاواي لم يقتل السيدة ماكلاكلان، واطسون. ظننت أنك ستدرك ذلك الآن. لماذا؟ ماكلاكلان كان بالفعل يفعل ما يريده بالضبط. لماذا يخاطر بقتل عمته؟ إلى جانب ذلك، حتى إن لم تثق بكلامه الآن، فقد أخبرك بالفعل ـ وإن كان ذلك دون علمه ـ عندما لم يكن لديه أي سبب يدعوه للكذب. ماذا سمعته يقول وأنت تتجسس عليه من غرفة التخزين الصغيرة تلك؟ لا يريد أفعالًا تجذب النظر إليه وتحدث الكثير من الضوضاء. من الواضح أن جالاواي لم يكن له دور في وفاة السيدة ماكلاكلان"

التفت إلى جالاواي وسأله. "لكن، هل تعرف من قتل السيدة التعيسة؟"

هز جالاواي كتفيه مبتسمًا ابتسامة رقيقة تراقصت على شفتيه، في تلك اللحظة أملت بشدة أن مهما كانت المساعدة التي قدمها للشرطة، أن يكون ذلك غير كافٍ لإبعاده عن المشنقة.

"ليس لدي فكرة" قال بهدوء. "لو أنني سأتحرى الصدق، فقد كان الأمر غريبًا بعض الشيء. جاء بوتر ليراني قائلًا لو أنني قتلت السيدة العجوز، سيذهب مباشرةً إلى السلطات ويخبرهم كل شيء أيًا كانت العواقب التي

سيواجهها. لزمني الأمر جهدًا كي أقنعه بأن ليس لي علاقة بالقتل. قلت له أن ينظر في أمر باقي العصابات، هم من يريدون خداع ماكلاكلان"

"لكن أنت من أرسل الخطاب المتعلق بمديونية واطسون، أليس كذلك؟"

"نعم" أجاب جالاواي ببطء. "في الحقيقة لقد جعلت بوتر يفعل ذلك. كم أضحكني هذا الأمر، أن أرسل بوتر ليسلم خطابًا سينتهي به المطاف في يده مرةً أخرى. كانت فرصة أفضل من أن أضيعها، بما أن الدكتور هو المشتبه به الوحيد. هذا كل ما تطلبه الأمر، بالإضافة إلى بعض التمثيل المسرحي في ساحة السجن، حتى أصبح كل رجل، في الداخل والخارج، يصدقون أنه القاتل.

أن أجعل بوتر يستخدم بعض حيله لعرقلتك ساعد بالطبع. يمكنك القول إنه جانبٌ إيجابي لموقف بغيض"

"لكن لماذا، جالاواي؟ ماذا استفدت حقًا؟ أنت لم تقتل السيدة ماكلاكلان، لماذا تلق اللوم علي أنا؟" كان يقول الحقيقة ـ مع مقتل كولينز بشكل لا يمكن دحضه لم يكن هناك ما يجنيه من إنكار جريمةً قتل أخرى. سأضطر قريبًا للتفكير في سؤال من قتل عمة ماكلاكلان وذهب إلى هذا الحد لتوريطي، لكن في الوقت الحالي سأكتفي بالإجابة على هذا السؤال.

"لقد أخبرتك بالفعل." أجاب جالاواي وهو يهز رأسه، كما لو كان يشعر بخيبة أمل مني. "ألا تتذكر، في المرة الأولى التي أجرينا أحد محادثاتنا القصيرة؟ قلت لك

حينها. لقد تقاطعت طرقنا قبل الآن، أنت فقط لم تعرف ذلك، في الواقع إن نظرنا إلى الأمر من منظورٍ آخر، أنت سبب تواجدي هنا"

مع هذا البيان غير المتوقع انتفض هولمز واقفًا في خط مستقيم وحملق بعينيه.

"نحن السبب؟" سألته قبل أن يتمكن هولمز من الكلام. "لكن لا توجد قضية شاركنا فيها حيث كنت أنت متورط"

"أدرك أنك مررت بوقتٍ عصيب، واطسون. لكن انتبه" صاح هولمز وقد استيقظ اهتمامه من جديد. "قال إننا لم نكن على علم بالعلاقة. هيا جالاواي. كيف تقاطعت طرقنا؟ من المفترض أنه نتيجة تحقيق كنت متورطًا فيه بشكل عرضي فقط؟"

"أحسنت يا سيد هولمز، أحسنت. هكذا بالضبط، في الواقع ولأكثر من مرة. كانت المرة الأولى عندما كنا نقوم ببعض الأعمال لجمعيات الصدقة. قبل عشر سنوات على الأقل. لقد فككت ذلك التجمع الصغير. وصادف أن لحقت الشرطة بثلاثة من رجالي الذين كانوا يسلمون بعض الأغراض لهذا المبنى في ذلك الوقت. ثم كان هناك شارلي ميلفيرتون. كنا قد وضعنا بعض الأموال لشراء قصة مثيرة من خادم شخصي ما وبعناها إلى ميلفيرتون. لكنه قُتِل قبل أن نستطيع تحصيل أموالنا. ولا يوجد طريقة لاستعادتها"

دق هولمز بأصابعه على المكتب. "رائع!" تمتم ثم قال، "لكن على الرغم من أنه كان أمرا محيرا لك، إلا أن

أيًا من المناسبتين لم تؤد إلى حبسك الحالي؟"

"يمكنك القول إن هذا الأمر كان... غير مباشر أكثر. هل تذكر أندرو تانكارد الذي أرسلته إلى المشنقة الربيع الماضي؟ حسنًا، لقد كان شخصًا آخر يدين لنا بالمال ـ قدرًا كبيرًا من المال في الواقع ـ لكنه تخلف عن السداد بسبب وفاته غير المناسبة. اضطررنا إلى شطب ديونه مما تركنا في حاجة ماسة إلى التمويل. لذلك ذهبت أتذلل إلى ذلك الخنزير الخائن آدامز أطلب منه أن يشركني في أحد مخططاته. وخانني في أول فرصة أُتيحت له" هز رأسه بحزن. "لا أستطيع لومه ـ ربما فعلت الشيء نفسه ـ لكن لم أكن لأقترب على الإطلاق إلا بسببك. على أي حال أعتقد أنني مدين لك بذلك، بل وأكثر من ذلك بمجرد أن أدركت أن الطبيب هنا لم يقتُل عمة ماكلاكلان بعد كل شيء".

لم يعد بإمكاني التزام الصمت أكثر من ذلك. "لقد أدنتني انتقامًا لشيء لم أعرف حتى أنه حدث؟" صرخت غاضبًا.

هز جالاواي كتفيه بعد اهتمام. "أنت والسيد هولمز تتعاملان مع ما تقومان به على أنه لعبة. أنه شيء لتسليتك، لتمضية الوقت. اللعبة على قدم وساق، أليس هذا ما يقوله؟ لكنك مخطئ. إنها ليستْ لعبة، ويصاب الناس بالأذى عندما تتصرف على أنها كذلك.

قلت لك إن الجريمة عملٌ تجاري لا يختلف عن أي عمل آخر. معظم الناس يعملون معي لأنه لا يوجد شيء

آخر يمكنهم القيام به، لكنك تتصرف كما لو أن لديهم الاختيار. أنت تعتقد أن الحثالة المبتدئين وأسمال الأحياء الفقيرة يمكنهم أن يفعلوا ما يريدون أو يكونوا ما يريدون إذا عملوا بجدٍ أكبر. أقول لك، لا يمكنهم ذلك. بالتأكيد تعلمت ذلك هنا؟ يحاول أولئك الصادقون، وينتهي بهم الأمر إلى الموت في نفس المنازل الفاسدة التي ولدوا فيها، دون المزيد من المال في جيوبهم. أو الطعام في بطونهم مما كان لديهم في ذلك الوقت.

حتى وإن انضممت إلى رجالي، سينتهي بك الأمر ميتًا في بالوعة، لكن سيكون لديك حياة تستحق العيش في أثناء ذلك. يعتمد رجالي عَليّ لإطعام أسرهم والحفاظ على وجود سقفٍ فوق رؤوسهم. كانوا سيكونون في إصلاحية ما أو في الشوارع إن لم يعملوا معي.

أجبني على هذا، دكتور. ما الذي يهمك إذا تعرض أحد البنوك للسرقة أو يضطر لوردًا أن يدفع أكثر مما ينبغي لاستعادة الرسائل التي كتبها إلى فتاة مصنع جميلة؟ من المصاب؟ يمكن للمؤمن عليه من البنك وسيادته تحمل التكلفة. لكن هذا المال المأخوذ يشق طريقه مني إلى رجالي، ومنهم إلى أسرهم، وبسببه يتم إطعام الناس ويصبح لديهم مكان يعيشون فيه ليس مليئًا بالقذارة والمرض. قلت لك من قبل، أنت لا ترى سوى نوعين من المجرمين، ولا تهتم إلا بنوع واحد. رجال مثلك أنت والسيد هولمز، تلعبون نفس اللعبة لكن فقط من الجانب الآخر. لكنني أخبرتك، هناك أنواع أخرى أيضًا. نحن فقط لسنا من النوع الذي

قد تضعه في أحد كتبك، وربما كنت على حق، ربما نحن مجرد أسماك صغيرة تسبح بين أسماك قرش. ومع ذلك، فإنك تتدخل في أعمالنا، حتى لو كان دون علمك ودون التفكير في العواقب. لأنه لا توجد أي عواقب لك"

بينما تحدث، انفصل عنه غشاء التسلية الذي يتدثر به، ولمحت تحتها حقيقة الرجل. هناك سخط حقيقي في صوته ورنين في كلماته عن المكانة المنحطة التي أتى منها.

"لكن مشاهدتك مشنوقًا؟ هذا من شأنه أن يعلم شيرلوك هولمز أن ألعابه الصغيرة لها عواقب أكبر مما كان يعتقد"

بعد ذلك، لم يقل جالاواي شيئًا، باستثناء تقديم اسم محام بارز وطلب الاتصال به في أقرب وقت ممكن. بعد بضع دقائق من الاستجواب غير المثمر، بدا هولمز خلالها مهمومًا لكنه لم يقل شيئًا، لوح ليستراد بيديه في الهواء بانزعاج وأمر الشرطي بأخذه بعيدًا، تاركًا ثلاثتنا فقط وحدنا في مكتب آمر السجن.

"سوف يرجع عن تصريحاته بالطبع. عرض كيجان بالفعل أن يقدم أدلة ومعلومات لتقليل عقوبته، وهو يعرف ما يكفي لإدانته" قال المحقق وهو يعرض على لفافة تبغ. ملت إلى الأمام لأخذها. ومد هولمز يده في جيب سترة السجن التي كان يرتديها.

"أعتذر يا واطسون. كدت أنسى أنني جلبت لك هذا"

حمل في يديه غليوني ولفافة التبغ.

"ليستراد واثق من أنك رجل حر أيضًا، في الوقت

الحالي على الأقل،" أضاف وأنا أشعل الغليون وأستنشق منه بعمق.

ابتسم ليستراد مؤكدًا. "أنت بالفعل رجل حر، دكتور. يتم احتجاز بوتر بينما نتحدث. وسيتم إعادة النظر في كل قضاياه البارزة على أنها قضايا مشتبه بها. على الرغم من أنني لا أود أن يتجاوز ما أقوله حدود هذه الغرفة، لكنني لن أتفاجأ إذا تم التخلي عنهم جميعًا وسمح لبوتر بالتقاعد في هدوء. لم يمض وقتٌ طويل منذ أن جعل بالمر ومايكل جون سكوتلاند يارد أقرب للخراب. أشك في أن السلطات سترغب في فضيحة أخرى"

عندما فكرت مسبقًا في تلك اللحظة، تصورت أن شعوري الأساسي سيكون الراحة، ربما مخففًا من السخط الذي شعرت به من أنني تم اتهامي من الأساس. من المسلم به، بسبب جهود مايكروفت هولمز، أن عاري لم يكن معروفًا على نطاق واسع، لكنني كنت أفضل دحض كل الشكوك بشكل لا لبس فيه.

ومع ذلك فإن احتمال الخروج من بوابات هولواي كرجل حر كان رائعًا. دخنت الغليون الخاص بي. وفكرت في هاردي الذي لن يتمكن من فعل ذلك أبدًا. وشكرت هولمز على صداقته.

الفصل السابع والعشرون

مر ما بقي من الصباح في نوبة من الأوراق والمقابلات، حيث أخبرت ليستراد أولاً بكل ما حدث، ثم كررت سردي في بيان رسمي إلى شرطي من سكوتلاند يارد. بعد ذلك هاجم هولمز المسؤول ذا الوجه الأحمر الذي تم إرساله ليدير السجن في غياب كيجان المتوقع أن يكون دائمًا، حتى يتم الانتهاء من جميع الاستمارات ذات الصلة بإطلاق سراحي.

بينما وقفت في منطقة الاستقبال، سار هولمز وسلمني ورقة الإفراج النهائية. ومع ذلك، كان وجهه متجهًا، بينما نقل لي الأخبار الصادمة.

"تمكن المحقق بوتر بطريقة ما من إقناع مرافقه بالسماح له بالعودة إلى المنزل لأخذ بعض الملابس بدلًا من الذهاب مباشرة إلى سكوتلاند يارد. بعد أن تُرك وحده لمدة دقيقة واحدة، أخذ مسدسًا كان قد أخفاه في غرفة نومه وأطلق النار على نفسه. لقد توفي على الفور." هز رأسه بحزن. "أيًا كانت خطاياه. فهو خارج دنيانا الآن"

رغم أن بوتر قد لعب دورًا مهمًا في تمديد فترة بؤسي الأخير، لكن عندما فكرت فيه كان الشيء الذي تذكرته بوضوح هو النظرة على وجهه في آخر مرة رأيته فيها، عندما قال إنه لا يحمل لي أي سوء نية شخصية وإنه كان

يتبع الأوامر فقط. جاء تعبيره من رجل مُثقل بالحزن والأسف.

والآن باءت تلك الأوامر بالفشل، وجدت أن الشفقة عليه هي الشعور الذي سيطر على أكثر من أي مشاعر أخرى. كان هولمز على حق. لم يعد بيننا لنحكم عليه.

"والآخرون؟" سألت بهدوء بينما أسلم حارس البوابة ورقة الإفراج عني.

أجاب هولمز "تم احتجاز شابلي وماي وسبعة حراس آخرين. كما يتم حاليًا التعامل مع جميع رجال جالاواي من قبل ضباط ليسترد واتهامهم بمجموعة متنوعة من الجرائم. وفي الوقت نفسه، يرغب كل من جالاواي وكيجان تقديم أدلة ضد الآخر. ليس من الواضح بعد من الذي سيتم منحه هذه النعمة الخاصة، ولكن في حين أن كيجان فاسد حتى النخاع، فإن جالاواي قاتل. سوف يُشنق، أنا متأكد من ذلك"

مررنا عبر البوابة وخرجنا إلى الطريق، ومثل المرة السابقة، كانت هناك عربة في انتظارنا. لكن هذه المرة لم يكن ليسترد حاضرًا. كان لديه الكثير ليقوم به في سكوتلاند يارد وكان قد غادر في الساعات الأولى من الصباح. لكنه وعد بمقابلتنا في شارع بيكر ذلك المساء.

انزلقت في المقعد وأنا أشعر بالإرهاق الذي حاربته بينما هو يضغط على مثل حمل الأثقال. ومع ذلك لم أستطع النوم قبل أن أسأل هولمز عما إذا كان لديه أي فكرة عمن قتل سارة ماكلاكلان. حدق في وجهي لفترة بدت

مثل الأبد، ثم هز رأسه ببطء.

"أنا آسف حقًا، يا صديقي العزيز. لكن وعلى الرغم من أنني قضيت الأسبوعين الماضيين فيما اعتقدت أنه المسار الصحيح، فقد ثبُت أنه قاحلٌ في النهاية، أنا لست أقرب إلى الحل مما كنت عليه عندما رأيتك آخر مرة"

رأيت أنني آلمته أن يقدم مثل ذلك الاعتراف، لذا أسرعت إلى تذكيره أنني كنت سأموت في تلك العلية لو لم يظهر في الوقت المناسب لإنقاذ حياتي. أومأ برأسه، لكنني كنت أعرف هولمز جيدًا بما يكفي لأعرف أنه لن يتم مواساته بتلك السهولة. ومع ذلك، لم يكن لدي أي طاقة للقيام بذلك، لهذا سمحت لعيني أن تغلق بينما العربة تهتز في طريقها عائدة إلى المنزل وشارع بيكر.

بالكاد وصلت إلى غرفتي قبل أن أنهار على الفراش وأنام أعمق نوم وأكثره رضا في حياتي.

عندما استيقظت، كان قد حل الغروب. في الخارج كان الليل يشوبه ضباب رمادي، لكن نارًا مشرقة احترقت في الموقد. استقبلني هولمز ملوحًا بغموض، كما لو أنني غبت فترة بعد الظهيرة وليس لأسابيع. كان لدي الكثير لأسئلة، لكن أولًا في حاجة إلى حمام طويل ووجبة جيدة.

بمجرد أن أكملت حمامي وارتديت ملابس أكثر تحضرًا مما اعتدت عليه مؤخرًا، ظهرت السيدة هادسون حاملة براد شاي وعشاءا فاخرا من شرائح الضأن التي انقضضت

عليها بتلذذ وسرور. فقط عندما أنهيت عشائي جاء هولمز حاملًا جريدة اليوم مفتوحة على صفحة داخلية وأسقطها أمامي. القسم الذي أرادني أن أقرأه كان تقريرًا يحتل جزءًا كبيرًا عن السلالم المتحركة الجديدة لهارودز، لكن تحته في جزء مربع صغير خطط تحته بقلم، تقرير عن وفاة المحقق جوناثان بوتر في حادث عنف مأساوي في منزله. لم يكن هناك أي ذكر لجالاواي أو سجن هولواي.

"كان من الحتمي أن تدفن خيانات بوتر معه" أشار هولمز وهو ينزلق في المقعد المواجه لي ويشعل لفافة تبغ. "لن يتم خدمة أي شخص مهم بشكل جيد من خلال كشفه بالكامل. يرى مايكروفت أنه سيتم إدانة كيجان بتهم بسيطة، أمر ذو طبيعة تقنية يشتبه به، ولن يقضي أي وقت في السجن. فقط جالاواي هو من سينزل عليه العقاب الكامل للقانون." نفث الدخان وهو يفكر نحو السقف. "أنا لست مهتمًا بالسياسة كما تعلم، واطسون. لكن أجدني غير راض إلى حد ما عن ذلك، أرفض ادعاءه بأنني لا أفكر في عواقب ما أقوم به بالطبع، لكن لا يزال... على إيلاء بعض الاعتبار إلى ادعائه بأن نوعًا معينًا من الأشخاص ليس لديهم خيار سوى الجريمة، وأن هذا النوع هو الذي يدفع الثمن حتمًا، بطريقة أو بأخرى"

أنا أيضًا فكرت فيما قاله جالاواي عندما كنت أنتظر إطلاق سراحي.

كونه رجلًا عنيفًا هو أمر لا جدال فيه، أنه قاتل قاس هو أمر عاينته بنفسي. لكنه في الواقع أيضًا رجل مخلص

لرجاله، كما كان الميجور ماكلاكلان لرجاله. كم منا كان يفضل حبل المشنقة على خيانة أصدقائه؟ أملت أن أفعل إذا وصل الأمر لذلك، لكنني ما زلت أفضل عدم إخضاعي للاختبار. وقد قتل الرجل الذي قتل هاردي، وهي نفس المهمة التي وعدت أنني سأقوم بها. في حالات الضرورة القصوى، هل كنا مختلفين جدًا؟

قررت عدم الخوض في هذه المسألة. بالإضافة إلى أنه كان لدي أمور أخرى أناقشها مع هولمز.

"بالتأكيد يبدو أن كل لغز أثاره سجن هولواي قد تم وأده الآن بدقة، لكنني أتمنى، على المستوى الشخصي، أن نكون قادرين على إلقاء المزيد من الضوء على جريمة القتل التي وضعتني هناك في المقام الأول"

أملت ألا أبدو كما لو كنت اتهم هولمز بالفشل، لأنني متأكد من أنه فعل أكثر مما يمكن لأي رجل حي آخر أن يفعله، لكن على الرغم من ذلك، لم أستطع أن أتحفظ على خيبة الأمل البادية في صوتي. والتي التقطها هولمز في الحال.

"لا يسعني سوى أن اعتذر لك، واطسون. يؤلمني كثيرًا أنه في المناسبة الوحيدة التي تكون في أمس الحاجة لقدراتي الاستنتاجية والتحليلية أن أخذلك. والأسوأ من ذلك في تعطشي لكشف الإجابة، أُجبرت على التخلي عنك خلال الأسبوع الماضي، عندما كان ينبغي أن أكون إلى جانبك. لقد كدت تُقتل لأنني أخترت أن أتبع أثرًا قاحلًا. لم أكن لأغفر لنفسي لو أن إهمالي أدى إلى موتك"

"لكنك لم تفعل" أشرت إلى ذلك فورًا. "لقد وصلت في اللحظة الأكثر ملاءمة! على الرغم من أنني أشعر بالفضول لمعرفة أين كنت بالضبط؟"

أطفأ هولمز لفافته وهز رأسه.

"لم أكن في مكان مفيد، واطسون. أثر أعمى أهدرت فيه عدة أيام دون أي هدف مهم" قرص أرنبة أنفه وهو يتنهد. "كن مطمئنًا إلى أنني لن أتوقف عن تحقيقاتي، لكن في الوقت الحالي لا يوجد شيء إيجابي يمكنني إخبارك به"

كان بإمكاني الضغط عليه أكثر، لكن من الواضح أنه كان متعبًا (تساءلت فجأة عما إذا كان قد نام على الإطلاق) ولم يكن لديه رغبة في مناقشة ما اعتبره فشلًا. أومأت برأسي في إشارة إلى فهمي، وحولت النقاش إلى أمور أقل إيلامًا. يجب أن أكون راضيًا عن حريتي كما اعتقدت، قبل أربع وعشرين ساعة كنت سأكون راضيًا عن حياتي على كل حال.

بعد أسبوع آخر تلقيت تأكيدًا رسميًا من ليستراد بأنه لن يتم اتخاذ أي إجراء آخر ضدي فيما يتعلق بوفاة سارة ماكلاكلان.

وبحسب ما ورد كان الميجور ماكلاكلان غاضبًا (بالكاد لا أستطيع لومه في ظل تلك الظروف) وهدد برفع دعوى قضائية خاصة ضدي، حتى تدخل مايكروفت مرة أخرى.

أيًا كان ما قاله، فقد ترك الميجور المسألة تسقط تمامًا، ومع عدم اهتمام أي شخص آخر بإعادة النظر فيما أصبح شأنًا محرجًا للغاية للحكومة، سرعان ما تلاشت وفاة سيدة مسنة ذات حصافة عقل غير مؤكدة من ذاكرة أولئك القلائل الذين عرفوا بالأمر. لم يكن في ذلك تبرئة لي، لكنني قلت لنفسي أنه ما يجب أن يجري.

أعدم جالاواي شنقًا بتهمة قتل آيزاك كولينز قبل عيد الميلاد مباشرةً، على الرغم من أن المحاكمة لم يتم النشر عنها إلا قليلًا. حكم على كيجان بالسجن لمدة عام واحد مع وقف التنفيذ لمدة عامين، وتقاعد في أيرلندا من بين كل الأماكن. رتبت لدفن ألبرت هاردي في مقبرة صغيرة في لندن، عزمتُ على زيارتها كل عام في ذكرى وفاته.

مع هذا، اعتقدت أنني انتهيت من هذا الكابوس نهائيًا. عدت أنا وهولمز لحياتنا الاعتيادية وسرعان ما انشغلنا في عدة قضايا. لا أستطيع قول أن عدم وجود قرار نهائي لم يزعجني، لكنني مضيت قدمًا تاركًا ماكلاكلان ورائي. ثم في إحدى الأمسيات بعد أكثر من عام وبينما كنت جالسًا على الطاولة أقرأ ملاحظاتي حول قضية تماثيل نابليون النصفية، وهولمز يغفو بجوار المدفأة، سمعت أصواتًا ترتفع من الطابق السفلي وعاصفة من الأحذية تركض باتجاه غرفتنا، فُتِح الباب الذي كشف عن وجه ليستراد وهو يلهث.

"لقد عاد إلى البلاد، سيد هولمز" قال لاهثًا. "أليستر ماكلاكلان عاد إلى منزله"

تحول هولمز في غضون لحظة. قفز إلى قدميه ممسكًا بمعطفه في يده قبل أن أتمكن من الرد. كان انفعال هولمز

أمرًا يستحق المشاهدة، بينما وقف ليستراد في المدخل مبتسمًا مثل قطة شيشاير.

"تعال يا واطسون!" قال هولمز آمرًا، لكنني استغرقت لحظة الآن لاستيعاب ما قاله ليستراد، وصممت على عدم الذهاب إلى أبعد من ذلك حتى أعرف بالضبط إلى أين نحن ذاهبون ولماذا.

"آتي إلى أين، هولمز؟" قلت بانفعال. "ما الذي يهم أيًا منا في أليستر ماكلاكلان الآن؟ أم أننا سننطلق إلى المجهول في كل مرة يظهر فيها جزء من الماضي غير المؤسف في انجلترا؟"

"ليس بأي حال من الأحوال،" عاد هولمز وجمع معطفي وقبعتي وألقاهما لي. "لكن هناك أكثر من جزء واحد من ماضينا في إنجلترا الليلة"

"كيف؟" بدأت أتساءل لكن هولمز كان في عجالة لأن يتحرك وقد استعجل ليستراد بالفعل من أعلى الدرج.

"الوقت هو الجوهر هنا، واطسون. يجب ألا ندع ماكلاكلان ينزلق من بين أيدينا وإلا ضاع كل شيء!" عندما رأى أنني متردد، متردد في فتح الجروح القديمة دون أي غرض واضح، تابع قائلًا، "ألم أخبرك أنني لن أتوقف عن تحقيقاتي حتى أحل القضية؟ يحمل ماكلاكلان مفتاح حل جريمة مقتل عمته، وتبرئتك التامة، لا تنس مسدسك!"

لم ينتظر ردًا آخر مني، بينما تبع ليستراد أسفل الدرج راكضًا. سحبت معطفي وجلبت مسدسي من غرفتي وركضت خلفه، يشتعل أمل جامح في صدري كنت قد قضيت العام الماضي في محاولة إخضاعه.

الفصل الثامن والعشرون

وقفت عربة الشرطة التي وصل فيها ليستراد تنتظر على الطريق، وأنفاس الخيول مثل البخار في هواء الليل البارد. بمجرد أن صرنا في الداخل أخرج ليستراد رأسه من النافذة وأمر السائق بالتحرك.

"أنت تعرف إلى أين ستذهب" صاح في السائق، "وكن سريعًا قدر الإمكان!"

جلس مرةً أخرى في مقعده بينما نفذ السائق كلمته، ونهز الخيول للتحرك إلى الأمام، سرعان ما كنا نرعد عبر شوارع لندن، ثم خارج المدينة إلى الريف. أفسحت طرق المدينة اللائقة المجال أمام الممرات الريفية وأخيرًا الممرات الممطرة، لكن لم يشرح هولمز أو ليستراد إلى أين نحن ذاهبون.

كل ما قاله هولمز أن الليلة يمكن أن تكون اللحظة التي نتوصل فيها إلى نتيجة، أو يمكن أن تكون نهاية محتملة للنجاح. في كلتا الحالتين، طلب مني الانتظار حتى نصل إلى وجهتنا وأن أثق به أنه سيتم الكشف عن كل شيء هناك.

لحسن الحظ لم تكن رحلة طويلة، وبعد أن انتظرت اثني عشر شهرًا بالفعل ـ وبعد أن تخليت عن أي أمل في الحل ـ تمكنت من كبح جماح نفاد صبري على السَاعة

التي استغرقتها الرحلة.

أخيرًا، في الحادية عشر إلا خمس دقائق، انحرفنا إلى مسار ترابي استطعت أن أرى في نهايته منزلا ريفيا منخفضا، توقفت خلفنا عربة شرطة أخرى.

"كدنا نصل تقريبًا، دكتور" قال ليستراد بنفس الابتسامة التي كانت على وجهه في شارع بيكر والتي ظهرت مرة أخرى على وجهه كلما نظر إليّ. فتح الباب وقفز إلى الأسفل ثم عبر إلى العربة الأخرى واشتبك مع السائق في محادثة.

ترجل هولمز أيضًا وتبعته، حتى وقفنا معًا في الظلام والثلوج. لم يكن بالإمكان سماع صوت سوى لهث الخيول والتمتمة المنخفضة لمحادثة ليستراد. الضوء الوحيد المرئي لأميال جاء من نوافذ المنزل الريفي.

أنهي ليستراد كلامه مع السائق الآخر وعاد إلينا، وهو لا يزال مبتسمًا.

"طريدتنا بالداخل، سيد هولمز" قال ليستراد هامسًا. "تبع جنكيز، ماكلاكلان إلى هنا ورآهما عند النافذة منذ دقيقتين فقط" وأشار إلى سائق عربتنا "أنت وجينكيز اذهبا من الخلف، في حالة قيامهما بالهرب. لا أتوقع أي تصرفات عنيفة، لكن الدكتور وأنا مسلحان تحسبًا لذلك. سيد هولمز،" قال متوجهًا لصديقي "ربما يكون من الأفضل لو أنك قدت الطريق"

أومأ هولمز برأسه. سحب ليستراد مسدسًا من جيب سترته وأمسك به أمامه بينما سار ببطء في الطريق إلى باب

المنزل، هولمز وأنا في أعقابه. سرعان ما انفصل سائقا الشرطة عنا واختفيا في الظلام.

عند النظر عن قرب، لم يكن منزل المزرعة نفسه مميزًا. كان يتكون من طابق واحد. طوله حوالي ثلاثون قدمًا، مع سقف من الألواح الخشبية وباب خشبي ثقيل، بين قوسين على كلا من الجانبين بنوافذ طويلة مغلقة. حديقة خضراوات صغيرة تمتد على جانب واحد مع ما بدا وكأنه بازلاء تنمو في صفوف طويلة مرئية فقط من الخلف. سطع ضوء من خلال الشقوق في المصاريع على أحد جوانب الباب.

سار ليستراد للباب ونقر بقوة عليه بعقب مسدسه. كان الصوت أعلى مما توقعت، لكن ليس عالٍ بما يكفي ليخفي أصوات الدهشة الآتية من الداخل. أمسكت سلاحي بإحكام أكبر حيث فُتِح أحد المصاريع لثانية واحدة ثم أغلق بسرعة مرةً أخرى.

مرت لحظة قبل أن يُفتح باب المنزل ببطء ويظهر شخص ما لم نتبين من هو بسبب الأضواء الآتية من الخلف من مصابيح معلقة فيما بدا وكأنه مطبخ.

بدا أليستر ماكلاكلان متعبًا. سترته مجعدة وعيناه مظلمتان بالهالات السوداء. سقط فمه مفتوحًا وهو يلهث قليلًا بينما يتحدث، كما لو كان في سباق، أو ربما من الخوف.

"مساء الخير أيها المحقق ليستراد. هذه زيارة غير متوقعة. السيد هولمز والدكتور واطسون أيضًا! مجموعة

مميزة بالفعل" انحنى قليلًا لي "سمعت بالطبع أنه تم إطلاق سراحك، وإن لم يكن تم تبرئتك بالفعل. تهانينا سيدي. قلت لك أنني أعرف أنك بريء، أليس كذلك؟"

لم يأخذ أي خطوة لدعوتنا للدخول، على الرغم من أن رذاذا خفيفا بدأ في التساقط. أعترف أنني كنت في حيرة من أمري أن ليستراد لم يعتقله ببساطة في المكان الذي يقف فيه، إذا كان هو وهولمز متأكدان أنه المذنب، إن كنت قد ذهبت لهذا الحد بناءً على ثقتي في رفيقي. كنت على استعداد للذهاب لما هو أبعد من ذلك بقليل.

"ما الذي عاد بك إلى إنجلترا، سيد ماكلاكلان؟" تساءل ليستراد.

"زيارة عائلية أيها المحقق، سأكون هنا وأذهب في غضون يوم واحد، على ما آمل" ابتسم ماكلاكلان بعصبية وهو يمرر راحة يده عبر شعره.

"ومع ذلك اخترت أن تأتي مباشرةً من الميناء إلى هذه المزرعة النائية؟ لم تفكر في البقاء مع أخيك في المدينة؟"

"إنه... إنه لا يعرف أنني هنا. أتمنى أن أفاجئه. لم نكن قريبين منذ وفاة عمتي، كما تعلمون" زادت قوة صوت ماكلاكلان بينما استمر بالمزيد من الاقناع "لكن لدي سبب لأعتقد أن المصالحة قد تكون ممكنة"

رفع هولمز ياقته بفخر وعدل من قبعته بقوة على رأسه. "هل يمكننا مواصلة هذه المحادثة في الداخل، سيد ماكلاكلان؟" تساءل هولمز "لا أستطيع التحدث نيابة عن اصدقائي، لكنني أصبحت غارقًا تمامًا تحت هذا المطر"

أخذ خطوة نحو الباب، لكن ماكلاكلان سحبه عليه. "أخشى أن هذا ليس مناسبًا" قال محتجًا، "فأنا متعب للغاية بعد الرحلة من فرنسا. متأكد أنك تتفهم. ربما في الصباح...؟"

سقط شيء ما في الغرفة المظلمة خلفه وسمعنا بابًا يُفتح، تلاه تعجب مكتوم وصوت إغلاق الباب مرةً أخرى.

"لن يستغرق الأمر سوى لحظة واحدة، ونحن الثلاثة فقط، سيدي" قال ليستراد موضحًا. "سيبقى رجالي في الخارج بالطبع"

وضع يده على الباب وبدأ في دفعه ليُفتَح، بينما حاول ماكلاكلان إبقاءه مغلقًا بقدمه، وهو يشكو ساخطًا. كنت على وشك إضافة وزني إلى وزن ليستراد عندما فُتح الباب من الداخل ودخلت فتاة حيز الضوء.

كانت الفتاة ـ وهي امرأة شابة حقًا، الآن بعد أن رأيتها بوضوح أكبر ـ هي نفسها التي تركتني مع جثة سارة ماكلاكلان. أصبح هناك لون أكثر في خديها وشعرها أغمق مما كنت أتذكر، لكن لم يكن هناك أي خطأ في أنها هي، حتى وإن أتت الإضاءة من خلفها بواسطة المصباح. كما لم يكن هناك مجال لإخفاء البندقية التي كانت تحملها في يديها.

أخذ ماكلاكلان خطوة إلى الخلف، واحتلت نظرة متجهمة وجهه "ماري..." قال وهو ينظر لها، لكن الفتاة لم تعط أي إشارة أنها سمعته.

"ابقوا في أماكنكم، إذا سمحتم" قالت آمرة مما سمح

للبندقية أن تترنح أمامها. "لا مكان نذهب إليه، أليستر. لن يكونوا هنا إن لم يعرفوا الحقيقة بالفعل، لكنني لن أذهب لأي مكان قبل أن أقول ما لدي"

خطرت ببالي فكرة أنه من المحتمل أن ننزع سلاحها إن اندفعنا جميعًا نحوها دفعة واحدة، لكن قبل أن أتمكن من تقديم هذا الاقتراح لرفاقي، خطا هولمز أمامي وخاطب الفتاة بنبرات هادئة ومدروسة.

بدأ بقوله "أفترض أنك ماري بار؟"، وعلى الرغم من أن الاسم بدا مألوفًا إلا أنني لم أستطع تحديد السبب بالضبط. قال هولمز إن أكثر من جزءٍ من ماضينا كان هنا، لكن مهما كانت الطبيعة السابقة لمعرفتنا بها، ظل لغزًا بالنسبة لي في الوقت الحالي.

أومأت الفتاة رأسها بحدة. "هذه أنا. وإذا كنت تعرف اسمي فأنت بلا شك تتذكر أختي أيضًا؟"

شيء غير دقيق ثار في ذاكرتي. حاولت الوصول لها، لكنها هربت بعيدًا حتى عندما اعتقدت أنني أمسكت بها.

ومع ذلك، من الواضح أن هولمز عرف ما تقصده. كان يتوقع أن تكون هذه المرأة هنا مع ماكلاكلان.

"أتذكرها بالفعل، فتاة جذابة كما أذكر، وإن كانت اختياراتها لأحبائها مؤسفة"

بشكل غير متوقع، قطبت ماري بار حاجبيها وهي تنظر في اتجاهي بينما يصف هولمز شقيقتها. "قد تعتقد ذلك، سيد هولمز" أجابت وهي تحول نظرها إليه، "لكن هذا يقول عنك أكثر مما يقول عن أختي"

"هذا حقيقي" بدا هولمز معتذرًا. لم يعط أي إشارة إلى أنه على دراية حتى بالبندقية أو حقيقة أن ماري بار كانت تحملها على بعد قدم واحدة من بطنه.

"نعم في الواقع" حولت قدمها إلى الأرض الرطبة وأخذت نصف خطوة للخلف كما لو كانت تدرك ان هولمز قد اقترب كثيرًا. "لكن دعونا نترك ذلك جانبًا في الوقت الحالي. لديك بلا شك أسئلة لي، وسأسعد بالإجابة عليها، حيثما أستطيع. أنا لا أتوقع الهروب من عواقب أفعالي" حسمت كلامها دون أن تظهر أي عاطفة.

كان مشهدًا غريبًا تمامًا. وضع هولمز يديه خلفه ورأسه يميل قليلًا إلى جانب واحد، بينما وقفت ماري بار مستقيمة الظهر على بعد ثلاثة أقدام أو نحو ذلك أمامه، كان الاثنان متناغمان كما لو كانا يناقشان الطقس أو تكتيكات لعب البريدج. بدل ليستراد وقفته من قدم إلى الأخرى بجوار كتفي، وسعل ماكلاكلان في صمت، لكن بخلاف ذلك لم يكن هناك صوت في فناء المزرعة. لولا السلاح الموجه نحونا، فقط كان يمكننا أن نكون عابري سبيل نتوقف من أجل بعض الاتجاهات إلى أقرب نزل.

كسر هولمز الصمت بشكل يكاد يقترب من الاعتذار. "إذًا أنت لا تنكرين قتلك سارة ماكلاكلان؟"

"هل هناك جدوى من الإنكار؟ الفعل بالكاد مهم، فقط السبب. لكن نعم، لقد قتلت السيدة العجوز. كانت غارقة في متاهة عقلها لسنوات، كما تعلمون. ظنت أنني شقيقتها عندما ساعدتها في ارتداء ملابسها، لذلك كان من

السهل إقناعها بالمجيء معي، على الرغم من أني كنت بعيدة لعدة أشهر. انتظرت حتى خرج الجميع أو ناموا وسمحت لنفسي بالدخول من باب المطبخ، وشققت طريقي إلى غرفتها. كنت أعرف أنها ستكون جاهزة للنوم، وبالفعل كانت هناك تجلس بجوار مرآتها، تتحدث إلى نفسها كما تفعل في الكثير من الأحيان في الليل. أخبرتها أننا ذاهبون في عُطلة لبضعة أيام في البلدة. كم كانت سعيدة برؤيتي، أحدثت ضوضاء حتى ظننت أنها ستجلب أحدًا يركض لها. ألبستها رداءها الجيد وغادرنا بنفس الطريقة التي جئت بها، دون إثارة اهتمام أي أحد. كنت قد التقطت السكين في طريقي إلى الداخل إلى جانب بعض القطع المألوفة الأخرى، وتبعتني هي مثل الكلب المخلص. لقد خرجت تتجول من قبل، كما ترى. كانت تحب أن تكون خارجًا في الليل. انزلقنا من باب المطبخ إلى عربة أجرة رتبت لتقللنا، ثم مباشرة إلى بيت جدتي، بهذه البساطة"

"بمجرد أن وصلتم هناك قتلتِها. وإن لم يكن على الفور، على ما أعتقد. لقد ترددت"

"لا ليس على الفور. أحضرت لها بعض المارينج لأنه كان المفضل لديها، كانت تأكله في الفراش بينما علقت اللوحة وما إلى ذلك. ابتسمت لي ووصفتني بالأخت الجيدة، لم أعتقد أنني أستطيع المضي قدمًا في ذلك. كانت من النوع اللائق، حقًا. فقط من سوء الحظ أن يكون وجودها مناسبًا لي في ذلك الوقت. لكن كان لابد من القيام بالأمر. لذلك جلست على الفراش وفرشت شعرها حتى غطت في

النوم ثم ـ عندما لم أستطع أن أنظر في عينيها ـ طعنتها في صدرها"

"استخدمت قطعة من القماش لوقف التدفق الأولى للدماء؟"

"نعم، وبقيت مرتدية معطفي أيضًا، لأنني لم أستطع المخاطرة أن يتلطخ ثوبي، خوفًا من أن يكتشفه الدكتور واطسون. لكن كانت الدماء أكثر مما أتوقع"

هز هولمز كتفيه "هكذا الأمر دائمًا" قال ببساطة.

نظَرَت إلى هولمز بحزنٍ في عينيها "لم تعانِ، لكن الدم سال على معطفي حتى بعد أن استخدمت قطعة القماش. استلقت هناك وعيناها مغلقتان، أصبح تنفسها أكثر هدوءًا ثم رحلت. شعرت بارتخائها تحتي.

"الجروح الأخرى كانت بعد الوفاة؟" سألها هولمز. "لقد قمت بها بعد أن كانت ميتة بالفعل؟" أوضح، لكنه التقط نظرة الفتاة المرتبكة.

"أعتقد ذلك. ارتعشت قليلًا في اثنين منها، لكنني لم أستطع التوقف، حتى لو أردت ذلك. كنت بحاجة إلى منظر مرعب، كما ترى. أردت ألا يشك أحد أن القاتل كان وحشًا"

"بالطبع" قال هولمز. "لكن أولًا كان هناك سلاح الجريمة الذي يجب التخلص منه. لا يمكنك تركه في الغرفة. كنت تنوين أخذه معك، لكن معطفك كان مغطى بالدم بحيث لا يمكن ارتداؤه"

أومأت موافقة.

"لذا جردت الوسادة من غطائها واستخدمته لإلقاء السكين في السقالات بالمنزل المجاور؟"

"لم أستطع التفكير فيما يمكن القيام به غير ذلك. كان على مقابلة الدكتور واطسون، ولم يكن لدي الوقت لدفنه، ولا الأعصاب للوقوف في منتصف الشارع وإلقائه بعيدًا. كنت سأعود لاحقًا لأخذه، لكنني لم أحسب حسابًا لوجود شرطي هناك طوال الوقت. كما كان الأمر، فبالكاد أعدته إلى الغرفة وحبسته في الداخل قبل أن يظهر شرطي في الشارع"

"لقد مررتِ المفتاح إلى جدتك أثناء مغادرتك، بالطبع؟ وأعادته هي إلى القفل بينما الشرطي هاوي والآخرون يقفون في الغرفة مع واطسون".

لم تقل الفتاة شيئًا لكنها شددت قبضتها على البندقية. لم يبد هولمز قلقًا. "أنت لن تورطيها؟ وهذا أمر يستحق الثناء، على ما اعتقد"

"هذا ليس أمرًا مهمًا. لقد رحلت منذ فترة طويلة الآن. أموال أليستر دفعت ثمن ذلك. لن تجدها أبدًا"

"آه نعم، أموال أليستر. شكرًا لك على طرح ذلك، آنسة بار. كنت أخشى أن اضطر إلى إزعاجك حتى تخبريني عن العصفور الآخر الذي قتلته بحجرك الوحيد، سأكون مهتمًا بمعرفة الدافع الذي جاء أولًا. هل قتلت ربة عملك السابقة حتى يحصل السيد ماكلاكلان على ميراثه وبالتالي يصبح حرًا في الزواج منك، أم أنك فعلت ذلك من أجل معاقبة واطسون على ما اعتبرتِه إساءات في حق عائلتك؟"

في الماضي كانت مشاهدة هولمز في تحليق كامل أمرًا ممتعًا في الكثير من الأحيان، لكن في هذه المناسبة، ولأول مرة، أدركت أنها قد تكون تجربة مؤلمة أيضًا. الحقائق العارية للجريمة أثبتت براءتي، أو هكذا اعتقدت. لكن الآن، يبدو أنني كنت مسؤولًا بطريقة ما. ولو فقط كدافع للقتل.

تذكرت لوسي بار.

قبل بضع سنوات، تولينا قضية اعتقد فيها مصرفي ثري أن ابنه سرق جوهرة شهيرة، بيرل كورونيت- جوهرة التاج. تذكرت الآن أن العائلة كانت قد وظفت خادمة تدعى لوسي بار، تورطت في علاقة رومانسية غير حكيمة. لم تكن شخصًا لا يُنسى بشكل خاص، على الرغم من أنني أعطيتها جزءا صغيرًا في نسخة القصة المنشورة في ذا ستراند. لكنني لم أستطع أن أرى لماذا يجب أن يكون لدى شقيقة الفتاة أي عداوة تجاهي بسبب القضية. لم تكن لوسي متورطة في أي جرائم، إلى جانب ذلك، فإن هولمز هو المحقق وليس أنا.

بينما كنت أفكر، دفع ماكلاكلان نفسه إلى الأمام ووقف الآن بجوار ماري بار.

"لا تجيبي على ذلك، ماري" قال بصوته الناعم. «إن خطيبتي تعاني من مرض عصبي وهي عرضة لبعض الخيالات. ليس لديها ما تقوله حتى تتحدث إلى محام"

مع ذلك، لم تكن ماري بار امرأة يسهُل إسكاتها، حتَّى من قبل رجل قتلت من أجله.

"لا تكن سخيفًا، عزيزي أليستر" قالت بابتسامة. "كان إشراك هذا الحيوان إضافة متأخرة إلى خطتي، سيد هولمز. لكنه كان أمرًا ملهمًا علي ما أظن. في الأصل كل ما أردته هو أن يكون أليستر رجلًا حرًا من قبضة أخيه وقادرًا على الزواج مني، كما أراد كلانا. أرى إنك تنظر إلى بشك أيها المحقق. أنت تفكر ماذا يرى أحد النبلاء بمجرد خادمة، باستثناء تحالف لحظي. لكننا واقعان في الحب، والحب لا يعرف شيئًا عن الطبقات الاجتماعية"

كما لو كان يثبت كلامها، وضع ماكلاكلان يده على كتفها، بينما أراحت هي رأسها على كتفه لفترة وجيزة.

"حتى بعد فصلي من العمل وتحذير أليستر من أن يكون له أي علاقة بي. واصلنا اللقاء سرًا. ربما بقيت سعيدة بذلك، لكن أليستر أراد أكثر من بضع ساعات مختطفة هنا وهناك"

"كنت قد اكتفيت من حياة الفسوق" قاطعها ماكلاكلان. "لقد التقيت بالمرأة التي رغبت في قضاء حياتي معها، ونويت القيام بذلك بغض النظر عن التكلفة التي سأتكبدها اجتماعيًا وماليًا"

"أترى أيها المحقق. كيف لا أحب رجلًا كهذا؟ لكن على الرغم من استعداده للتخلي عن كل ما لديه، لم يكن أليستر مستعدًا للفقر الذي سيترتب على ذلك إذا قام بتجاهل رغبات عائلته ببساطة. لم يستغرق الأمر طويلًا للتفكير في عمته، التي بالكاد تعرف اسمها، لكنها حملت مفتاح حريته. إذا ماتت فسيكون كل شيء كما ينبغي. خططت

للقيام بالأمر بأفضل طريقة، بحيث لا يتم الاشتباه في أليستر، اخترت مكانًا بعيدًا عن المنزل وليلة كان معروفًا أنه في المنزل. لقد خاطرت باستخدام جدتي ومنزلها، لكنها تحدثت كثيرًا عن ترك لندن والعودة إلى قريتنا، وعرفت أن أليستر سيكون قادرًا على تحمل تكاليف إرسالها إذا سارت الأمور كما هو مخطط لها. بعد ذلك، عندما خرجت إلى شارع لينهوب في إحدى الأمسيات، أتساءل عن أفضل ليلة لتنفيذ الأمر، من الذي أراه سوى الدكتور جون واطسون، الوحشي عديم القلب الذي ظلم أختي بقسوة. أما الباقي، فقد أخبرتك به بالفعل"

كنت قد سمعت من هذا التلميح بقدر ما قدرت على قبوله. وهكذا قبل أن يتمكن هولمز من قول كلمة أخرى، تقدمت إلى الأمام متجاهلًا البندقية تمامًا في فورة غضبي، وواجهت الآنسة بار.

"تلك مرتان الآن تصفينني بعبارات غير إنسانية وأنا في حيرة من أمري لفهم السبب. ماذا فعلت بك أو بشقيقتك حتى تشعري بمثل هذا الكره لي وتتمنين لي كل هذا الأذى؟"

أجاب هولمز قبل أن تتمكن هي. "لأنها تلومك أنت، وليس أنا، على وفاة شقيقتها، بالطبع. هذا صحيح، أليس كذلك آنسة بار؟"

النظرة التي وجهتها الفتاة لي كانت مليئة بالكراهية الشديدة لدرجة أنني كدت أتراجع. بدأت تتحدث، لكن ليس للإجابة على أي من أسئلتنا مباشرةً.

"لم تعمل أختي مرةً أخرى بعد أن فصلها السيد هولدر. فهي بلا مرجع ولا رسالة توصية، كما ترى. وفرصة ضئيلة ثمينة لزواج لائق أيضًا. لذلك انتقلت إلى الريف واختبأت بعيدًا، في أنتظار مرور الوقت. في انتظار أن ينسى الناس ما كان مجرد بضعة أسطر في حكاية لم يقم أغلبهم بقراءتها حتى. هذا ما اعتقدته على أية حال.

لكن الناس لم تنس. لم تتسن لهم الفرصة لهذا، ليس والسيد شيرلوك هولمز يتصدر جميع الصحف، والدكتور واطسون يحول مغامراته إلى مواد ترفيهية. وهكذا، في ليلة ما اتخذت طريقها إلى الغابة خلف المنزل الذي كانت تمكث فيه وانتحرت. كان الثلج يتساقط بغزارة حتى عندما تم ملاحظة اختفاءها استلزمهم الأمر يومين ليجدوها تحت أكوام الثلوج. لم أعرف بالأمر إلا بعد مرور أسبوعين. ولا فائدة من معرفتي على أي حال. ليس وكأن سيتم إعطائي إذنا بسبب حالة انتحار. خاصة وأن المنتحرة امرأة مستهترة. إن للميجور ماكلاكلان آراؤه بخصوص مثل تلك الأشياء"

لفظت كلمة آراؤه تلك كما لو كانت أقذر الألفاظ النابية التي اضطرت لنطقها. لكنها لم تكن قد انتهت بعد.

"هذا هو السبب الثالث وراء اختيارك السيدة ماكلاكلان لتكون ضحيتك" قاطعها هولمز. "لتدمري السير كامبل"

أمالت رأسها إلى جانب واحد، آخذة الاقتراح في الاعتبار "ربما قليلًا" اعترفت قائلة. "ربما كان هذا جزءا من الأمر. لكن في الأساس كانت هي من تستطيع منح أليستر حريته وحياته مرةً أخرى. كل ما دون ذلك كان مجرد

تابع للأمر"

حدقت في كل منا بدوره، تتحدانا أن نتكلم.

"هل يجيب هذا على سؤالك، دكتور؟" وجهت سؤالها لي. أمسكت بمقبض البندقية بإحكام لدرجة أن مفاصل أصابعها برزت بيضاء اللون ضد احمرار بشرتها الطبيعي. وتابعت. "ربما لا، لكن لدي سؤال لك؟".

ارتعش فمها كما لو كانت تنوي الابتسام ثم قررت عدم القيام بذلك، لكن لم يكن هناك أي دفء في وجهها ولم تعط أي علامة أخرى أنها أسقطت حذرها ولو قليلًا. تصدع صوتها عندما تحدثت في فائض من الألم والتردد.

"هل كنت لتتذكر شقيقتي على الإطلاق لو لم نذكرك أنا وصديقك؟"

ترددت في الرد لأنني لم أكن متأكدًا من عقلي إن كنت سأتذكر لوسي بار دون مساعدة. كنت آمل ذلك، لكن عليَّ أن أعترف لنفسي بأن ما أتذكره بشكل أساسي حتى الآن هو ما كتبته عن القضية، وليس الفتاة نفسها.

"هل اعتقدت أن شقيقتي باغية، دكتور واطسون؟" اقتحمت ماري بار أفكاري. "هل هذا هو السبب أنك رسمتها على أنها قد سقطت تمامًا عندما كانت ببساطة غير حكيمة؟ هل هذا هو السبب في أنك دمرت حياتها بجريمة أنها حمقاء وساذجة، وتعتقد أنها في حالة حب؟"

كان الاتهام سامًا بقدر ما كان غير متوقع لدرجة أنني تراجعت داخليًا وهي تتحدث. لكن لم أستطع أن أنكر وجود درجة من الحقيقة في تأكيدها بمجرد أن وضعت

شقيقتها في ذهني. لقد بالغت بالفعل في وصف طبيعة الفتاة، وأضفت بعض التفاصيل المثيرة كما قال محرري. أحب القُراء خصومات هولمز، كما قال بابتسامة متملقة، لكن إضافاتي الفنية الصغيرة هي التي ميزت القصص، وإلى جانب ذلك، لم تخطئ امرأة محتقرة ذات أخلاق متدنية، كان يجب أن أقول لا. لكنه كان للتو قد اشترى لي وجبة غداء رائعة، وفي وهج عدة أكواب من النبيذ المستورد الممتاز، لم يبد إطراؤه أكثر من اعتراف بفضل في مكانه الصحيح.

عرفت بالطبع أنني لا أستطيع تقديم ذلك كعذر، ولا أريد ذلك. توفيت امرأتان وستنضم لهما امرأة أخرى على الأقل في الوقت المناسب. لم يكن لدي أي أعذار لأقدمها.

"آنسة بار" بدأت لكن لم يكن لدي تفسير غير الحقيقة العارية والبائسة على الرغم من أنني شعرت أنه ليس لدي الشجاعة لذلك. إنها مفارقة أن تهرب الكلمات من الكاتب.

ليس وكأن هذا مهم، لقد أخرت ردي لفترة طويلة جدًا.

أخذت ماري بار خطوة للأمام وهي تزمجر وقامت بوضع فوهة البندقية تحت ذقني. من الواضح أنني لم أستطيع رؤية أصبعها يشد على الزناد، لكن هُيّئ لي أنني سمعت صوت نقرة صغيرة أثناء سحبه.

ترنح ماكلاكلان إلى الخلف في صدمة ومن زاوية عيني رأيت ليستراد يرفع مسدسه، لكنني عرفت أن الوقت قد فات لفعل أي شيء. لم تأت علامة من أي من السائقين اللذين

ذهبا إلى الخلف. فقط هولمز كان يعرف ماذا يفعل.

"أنا آسف آنسة بار" قال بصوتٍ عال. "لكنك على وشك قتل الرجل الخطأ"

في أقل من ثانية، علقت حياتي من خيط متداع وبعدها شعرت بفوهة البندقية تتحرك بشكل غير مرئي بعيدًا عن حلقي.

"مهما كانت عيوبه الأخرى آنسة بار" تابع هولمز بصوت ثابت "لم أعرف واطسون أبدًا يتعمد إلحاق الأذى بامرأة، ولا أظن أن هذا ما فعله الآن" كان صوته رقيقًا، كاد يكون حزينًا. حاولت الفتاة التحدث لكنه رفع يديه موجهًا راحتيه للأمام "من فضلك دعيني أنهي حديثي. لقد اقترح عليّ مؤخرًا أنني لا أعطي اهتمامًا كافيًا لتأثير تحقيقاتي على المتورطين فيها"

أخذ خطوة للأمام وحرك البندقية بعناية حتى وجهها إلى صدره. "إذا قام واطسون بإبراز دور أختك في إحدى قصصه، فإن الخطأ لا يكمن معه، بل معي. أنا من أشركه في عملي وأنا من شجعه على تدوين ملابسات قضاياي. وقد أولى في بعض الأحيان اهتمامًا أكبر للجوانب الأكثر إثارة للقضايا مما كنت أود، ولكن على مستوى ما كنت راضيًا عن المكانة التي وضعني فيها. ولكي يبرز (العبقري) الذي خلقه واطسون، كان عليه ملء الخلفية بشخصيات أقل، والتي يمكن لقرائه التعرف عليها بشكل كامل. ولأنها خيالية، على الأقل جزئيًا كما نعلم أنا وهو. لكن من الواضح أن هذا لا ينطبق على الجميع" تنهد تنهيدة

متعبة، وقرص أرنبة أنفه كما لو كان يتألم. "لا يسعني إلا أن أقدم أصدق اعتذاراتي، لما يبدو أنه تعزية، للسماح لواطسون برسم صورة خاطئة جدًا لشقيقتك، ونتيجة ذلك أنها تعرضت لأذىً شديد"

غرق كل ما حولنا في الصمت للحظة طويلة. استمر هطول الأمطار الغزير وبدت شخصية ماري بار تتأرجح مثل الرذاذ تحت الضوء الخلفي الآتي من المنزل. انزلقت إحدى قدميها إلى الخلف وانخفضت البندقية قليلًا، لكن هولمز لم يقم بأي خطوة لأخذها منها. بدلًا من ذلك رفع يديه بصبر غريب جدًا. ووضعت هي السلاح الثقيل فيهما. أغلقت أصابعه الطويلة حولها، ثم خفضها إلى الأرض.

قال بهدوء "فلتذهبي مع المحقق ليستراد، سيكون لديه المزيد من الأسئلة لطرحها عليك"

رفع ليستراد رأسه بحدة، كما لو كان مندهشًا من ذكره، لكنه سرعان ما تذكر واجبه وسحبها ليضع الأصفاد بيديها. مع ذلك سارع أليستر ماكلاكلان إلى أخذ يدها قبل أن يتمكن المفتش من القيام بذلك.

"لم أرد أيًا من هذا، كما تعلمون"

قال بحزن. "لكن بمجرد أن قامت بالأمر، ماذا يمكنني أن أفعل سوى محاولة حمايتها؟"

وضع سترته حول كتفي ماري بار وشاهدتهم يركضون بعيدًا في الظلام، وليستراد يسير بجوارهم بتحفظ غير واضح.

وقفت أنا وهولمز تحت المطر الغزير بشكل متزايد.

لم نقل شيئًا لبعض الوقت، كإن بمفرده مع أفكاره. من المفترض أن أشعر بالارتياح الكبير لأن كل شيء قد انتهى، لكن في الحقيقة شعرت فقط بالخدر والحزن الشديد على الشقيقتين بار، والعار من دوري في مصيرهن.

في النهاية شعرت بالمطر يتسرب من ياقة معطفي راكضًا أسفل ظهري. التفت إلى هولمز الذي بالكاد كان مرئيا في الضوء الخافت وقال "حان وقت العودة المنزل، واطسون. السيدة هادسون تنتظر وأنا في حاجة إلى تدخين الغليون والنوم العميق. مساء غد يجب أن ندعو ليستراد إلى شارع بيكر، ووقتها سأقدم الشرح الكامل الذي أعلم أنك ترغب فيه".

T t.me/tea_sugar

الفصل التاسع والعشرون

في اليوم التالي زارنا ليستراد في شارع بيكر مرة أخرى.

ومع ذلك في هذه المناسبة فقد وصل وهو أكثر هدوءًا، وقبل كأسًا من الويسكي وهو يتخذ مقعدًا بجوار المدفأة. في البداية، بدا غير مرتاح لوجوده في شارع بيكر كضيف. جلس بصلابة وصمت على مقعده. واضعًا الكأس بتوازن على ركبته وهو ما يزال ممسكًا بقبعته. بشكلٍ غير متوقع كان هولمز هو من جذبه للاسترخاء قليلًا وتدريجيًا، وربما كان تأثير كأس الويسكي الثاني، استكان مرةً أخرى وأصبح أكثر حيوية في حديثه.

تحدثنا لفترة قصيرة عن الأخبار الأخيرة ثم مد هولمز ساقيه الطويلتين، وأشعل غليونه وقام بتقديم التفسير الذي وعد به.

"هل تتذكر قول بوتر إن متسولي الشوارع يأتون ويذهبون ولا أحد يستطيع أن يقول أين أو متى؟ هذا ليس صحيحًا تمامًا كما تبين للجميع. صحيح أننا لا نقدرهم، لكنهم يقدرون أنفسهم. لا يختفي عربي واحد من الشارع في هذه المدينة إلا وعرف أصدقاءه. لقد أرسلت ويجينز ورفاقه في مهمة تعقب أيا من أشباههم الذين اختفوا في اليوم التالي لمقتل الآنسة ماكلاكلان. لم يجدوا أحدًا لم يتمكنوا من ذلك. لكن ويجينز اكتشف شيئًا مرتبطًا بمسألة

أخرى كلفته بها.

"يبدو أنه بعد ثلاثة أيام من جريمة القتل، توجهت عربة إلى شارع لينهوب وأقلت السيدة سواميس، صاحبة المنزل التي كانت قلقة للغاية على سلامة مستأجريها المسنين. ستهتم بمعرفة أن امرأة شابة لوحظت بالفعل في العربة. أعتقد أنك ستكون أكثر اهتمامًا بمعرفة أنه تم تزيين أبواب العربة بقرنين متماثلين لآيل"

"أليستر ماكلاكلان!"

"هو بالضبط" أكد هولمز. "في البداية كنت قد أمرت ويجينز بالمشاركة في البحث عن الفتاة واستبعدت الأخ الأصغر تمامًا. ومع ذلك، وبعد أن عرفت بلقائك معه، طلبت من ويجينز بدلًا من ذلك، الانتباه إلى أي نشاط غير عادي في منزل ماكلاكلان. لقد كان محقًا في افتراضه أن عربة العائلة التي غادرت في جوف الليل تعتبر نشاطًا من هذا القبيل"

"كل هذا جيد، هولمز. ومن الواضح أنى أدركت متأخرًا وأنك كنت على حق. لكن لا شيء مما قاله ماكلاكلان في لقائنا أوحى لي بأنه مذنب. بل على العكس، في الواقع. ما الذي رأيته أنت وأنت لم تحضر اللقاء ولم أره أنا الذي كنت حاضرًا بالفعل؟"

"أعتقد أنني لاحظت في ذلك الوقت أنني لم أثق في قدرتك على الحكم على الشخصيات دون أدلة داعمة. من واقع تجربتي، أي رجل قد يرتكب أي جريمة. أما بالنسبة لماكلاكلان على وجه الخصوص، فقد أدهشني أمران على

الفور. أولًا، اليقين الذي أعلن به ثقته ببراءتك. لا يمكن لأي رجل أن يكون متأكدًا من مسألة مهمة للغاية كتلك بخصوص شخص له معرفة سطحية به. كان التفسير الوحيد هو أنه إما يعرفُ هوية القاتل الحقيقي، أو يعرف حقيقة أنه لا يمكن أن تكون أنت"

"والأمر الثاني؟"

"ماكلاكلان دعا الفتاة باسمها، ماري. ليس بار كما قد يتوقع المرء من منحط سيء السمعة يصف فتاة مسكينة دمرها بهواياته. لا، لقد عرف اسمها الأول واستخدمه بدلًا من ذلك. مما أشار إلى أن هناك علاقة حميمية تحدثت عن شعور قوي"

قلت له "نعم، أرى ما تقصد، لكن أخبار العربة الراحلة هذه لم تأت إلا بعد مرور بعض الوقت، بعد فترة طويلة من الحدث؟"

"بالفعل. لم يكن لدي أي وسيلة للتأكد من المكان الذي ذهبت إليه العربة، وبعد طردنا المفاجئ من منزل الميجور ماكلاكلان، لم تكن هناك طريقة لمعرفة ذلك. بالطبع ذهبت إلى الباب الخلفي متنكرًا في زي رجل معدم يبحث عن عمل، على أمل الحصول على معلومات من أي خادم، لكن أغلق في وجهي الباب. من الواضح أن الميجور أو على الأرجح موراي قد حذر الموظفين أن يكونوا على أهبة الاستعداد. ومع ذلك، كان لدي طريق واحد مفتوح أمامي"

"عنوان ماكلاكلان في باريس!" صحت وأنا أتذكر

البطاقة التي تركها لهولمز.

"صحيحٌ تمامًا، واطسون. ولهذا السبب اضطررت إلى تركك فجأة. لم يكن لدي أي طريقة لمعرفة المدة التي سيبقى فيها ماكلاكلان في نفس الفندق، لذلك هرعت للحاق بأول قارب إلى فرنسا. وكما تبين كان قد انتقل بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى باريس، واستغرق الأمر مني عدة أيام لتعقبه إلى منزل صغير في شارع بلوميه"

"ماذا قال؟ أفترض أن ماري بار لم تكن موجودة"

"لا لم تكن هناك، وأنكر ماكلاكلان حتى معرفة اسمها. لقد كرر ببساطة أنه سيسعد بالكتابة نيابةً عنك للمحكمة، متوسلًا الرأفة ومعربًا عن اعتقاده الخاص بأنك بريء، لكنه لم يستطع مساعدتي في بحثي عن خادمة مفقودة"

"ألم تستطع إحضار ليستراد معك؟ ربما كان قادرًا على إقناع الشرطة الفرنسية باعتقال ماكلاكلان؟"

"بأي تهمة؟ إلى جانب أنه حتى لو أدين بطريقة ما بجريمة، فلن يقربنا ذلك من القاتل الحقيقي وتبرئتك؟ من الأفضل بدلًا من ذلك الانتظار، ونأمل أن تحاول عشيقته القاتلة الانضمام إليه في باريس. إن هذا الأمل هو ما تشبثنا به أنا وليستراد منذ العام الماضي"

"كان هناك إشعار مع وصفها في كل ميناء لمدة اثني عشر شهرًا حتى الآن" أضاف ليستراد. "السيد هولمز كان متأكدًا أن السيد ماكلاكلان قد أخفاها في مكانٍ ما، في انتظار أن يتم شنقك واختفاء أي اهتمام بالقضية"

"لم أكن متأكدًا، ليستراد" وبخ هولمز المحقق، "كنت

آمل فقط. لهذا السبب لم نتمكن من إخبارك، واطسون.

تخيل التوتر الذي كنت لتشعر به يوميًا على أمل الحصول على أخبار ومع ذلك لم يصل أي منها"

فهمت منطقه، وكنت شاكرًا لكليهما على المتاعب التي تكبداها من أجل تبرئة اسمي. لكن سؤالاً واحدًا لا يزال يتردد في ذهني.

"لماذا افترضت أن الخادمة هي من قتل السيدة ماكلاكلان؟ لماذا ليس أليستر ماكلاكلان نفسه؟"

"هل لديك القليل من الثقة فيّ هكذا، واطسون؟ كان من الواضح منذ وقت مبكر جدًا أن القاتل امرأة. ربما كانت سارة ماكلاكلان تتوه إلى حد ما في عقلها، لكنها ظلت سيدة، ولم تكن تعتقد أنه من المناسب أن تظهر مرتدية ملابس النوم أمام رجل غريب. من هنا كان الاحتمال الأقوى هو أن الفتاة التي خدعتك لمعالجة جدتها المريضة والقاتل لابد أن يكونا واحدا" توقف وأمال رأسه متفكرًا. "كنت سأصل إلى هذا الاستنتاج في وقت أبكر لو لم أفترض خاطئًا أن بوتر تعامل بحسنة نية. إصراره على أنك ـ أو شخص من نفس المكانة ـ هو المسؤول، جعلني أتساءل عما إذا كان هناك شخصان متورطان، الفتاة لتجعل الضحية مستكينة ورجل ليقوم بالتنفيذ. لكن إذا كان هذا هو الحال، فلماذا لم تقاوم السيدة ماكلاكلان؟ بالطبع بمجرد أن أتيحت لي فرصة فحص الغرفة التي قتلت فيها، اقتنعت بأن شخصًا واحدًا فقط كان حاضرًا. واثقًا من أن هذا الشخص أنثى"

"بسبب طريقة إخفاء السكين وطريقة استعادتها؟ أم أن هناك أمرًا آخر لم تطلعنا عليه أنا وليستراد؟"

"على العكس من ذلك. نقلت كل ما رأيته. فقط الاستنتاجات التي قدمتها كانت غير مكتملة. قلت إن رجلًا انحنى لينظر من النافذة ـ هل تتذكر بصمات الأصابع على الزجاج؟ـ ولكن كما عرفنا أن فتاة كانت في الغرفة، كان الاستنتاج الواضح هو أنها هي التي تركت بصماتها. اكتشاف سلاح الجريمة حيث كان لم يكن سوى تأكيدًا لنظريتي"

"أين ينبغي ألا يكون؟" كل ما قاله هولمز منطقي تمامًا، لكنني لم أكن في مزاج جيد للألغاز. أعتقد أن هولمز أدرك ذلك لأنه سارع بالرد.

"على السقالات. هل تتذكر أنني لم أجد السكين في البداية، لكن كان على النزول وإعادة الصعود مرةً أخرى عبر درج مختلف؟ كنت قد حسبت المسافة التي يمكن أن يتمكن فيها لكل من رجل وفتاة من إلقاء حقيبة تحتوي على خنجر من النوع المطلوب لإلحاق الجروح التي رأيناها. يمثل الدرج البعيد المسافة التي يمكن الوصول لها لو كان الرامي رجلا متوسط القوة، والأقرب إلى فتاة كما وصفتها. بمجرد أن تأكدت من عدم وجود سكين في النقطة البعيدة عرفت أنني كنت على صواب طوال الوقت، وأن بوتر كان مخطئًا"

"داهية" قلت موافقًا، ثم عبست عندما خطرت لي فكرة. "لكن لماذا كنت مهتمًا جدًا بالمتسكعين الذين

ساعدوا الشرطي هاوي على كسر الباب؟"

"كما قلت، ضللني المفتش بوتر في البداية. لا أستطيع سوى لوم نفسي على ذلك. افترضت أنه كان مخطئًا ببساطة في اعتقاده أنك مذنب، وانطلاقًا من هذا الافتراض المعيب، افترضت أن رجلًا آخر لابد وأن كان مشاركًا. في تلك المرحلة لم يخطر بالي أنه يمكن أن يضللنا عمدًا"

"تساءلت عما إذا كان الرجل الضئيل هو القاتل؟"

"بالضبط. أعترف أنه كان من غير المحتمل، لكن إذا كان حجمه ضئيلًا بما فيه الكفاية، فكان من الممكن التصور أنه، وليس الفتاة، من ترك بصمات الأصابع، وألقى الحقيبة، وقتل السيدة ماكلاكلان. في النهاية أثبت بالفعل أنه محتال ولكن ليس من النوع الذي كنت آمله"

"اعترف بأنني قد تساءلت عما إذا كنت تعتقد أن الرجل الصغير قاتل مأجور، استأجره أحد أعدائك" قال ليستراد بابتسامة.

"من الواضح أنك تعمقت في قراءة كتب الخيال، أيها المحقق" ضحك هولمز، "لو كنت أعرف لكنت نصحت بعدم القيام بذلك. لا يمكن للعقل المحدود أن يحتفظ بالكثير من المعلومات قبل أن يبدأ في الخلط بين الحقيقي والخيالي"

"هولمز!" وبخت صديقي. "لقد كانت أفعال ليستراد لا تقدر بثمن في الأسابيع الأخيرة. إنه يستحق ما هو أفضل من الإهانة"

هُيئ لي أنني رأيت وميضًا من الندم يعبر وجه هولمز.

"أقدم اعتذاري، ليستراد" قال نادمًا، "تحدثت بهدف المزاح، لكنني بالكاد أظن أنه من المحتمل أن يستخدم أي عدو لي قاتلا مأجورا من أجل تنفيذ ضربة معقدة كتلك ضدي. من الأسهل بكثير السير خلفي في أي شارع من شوارع لندن وإطلاق النار على من الخلف، أو استدراجي إلى شلال ما مناسب والتسبب في سقوطي!"

ضحك ملء فمه، لكنني شعرت برجفة مكبوتة من الفكرة وحولت المحادثة إلى موضوع أقل ترويعا. في بعض الأحيان تكون روح الدعابة لدى هولمز أكثر مما هو مرغوب فيه.

تمت

T t.me/tea_sugar

قناة T إحدى قنوات

مكتبة

t.me/soramnqraa

عن المؤلف

ستيوارت دوجلاس، هو مؤلف للعديد من القصص القصيرة والروايات، بالإضافة إلى روايات شيرلوك هولمز، كنز ألبينو والمحقق المزيف. وهو أحد مؤسسي "Observe Books" وكان محررًا مميزًا لمجلة جمعية الخيال البريطانية. يعيش في إدنبرة.

شيرلوك هولمز

T t.me/tea_sugar

سُجن ظلمًا.

بعد استدعائه للكشف على مَريض وهمي؛ يجد الطبيب واطسون نفسه مقبوضًا عليه بتهمة القتل العمد لسيدة مُسنّة. يُحبس في سجن هالاواي وتتكدّس الأدلة ضده، يصبح أمل واطسون الوحيد هو أن يكشف شيرلوك هولمز هوية القاتل الحقيقي، لكن ظهور خطاب يربط واطسون بعصابات سيئة السمعة وعمليات ابتزاز يجبر هولمز على استخدام عبقريته لإنقاذ صديقه من حبل المشنقة.

9 789778 201307